



Shero4jesus@gmail.com

ومصائب قام ديوكلتيانوس (او تكلا) واغتصب الناج الامبراطوري
وأصبح صاحب السلطة كله على المملكة الرومانية برمتها
وفي خلال ذلك نجح البطريرك مكسيموس وذلك سنة ٢٨٢
ويحتمل ان الامة وجدت صعوبات ومقاومات في اختيار خلف له ولذا
ظل الكرسي البطريركي بدون بطريرك بضعة اشهر الى ان انتخب ثيوناس
الذى ساس شعبه بسلام وحكمة مدة من السين . وفي مدة المدنة
هذه التي جاءت بين الحروب والاضطهادات التي كانت تتولى على
الكنيسة المصرية كالحلقة المفرغة بنيت في مدينة الاسكندرية اكبر كنيسة
في بر مصر وكرست باسم العذراء مريم . ولو ان الكنائس الكبرى
لم تكن قليلة في هذه البلاد الا ان هذه الكاتدرائية الجديدة دلت
على نهضة مدوحة لانها كانت اول مابناه المصريون المسيحيون من نوعها
كمعبد عظيم يجتمعون فيه للعبادة الجمهورية

اما المسيحيون في مصر فلم يكن لديهم سبب يعرفونه يحملهم على
الشك في نويا ديوكلتيانوس في بدء حكمه ولم يكونوا يظنون به سوءاً
من نحوهم وهذا ظاهر من جواب ارسله البطريرك ثيوناس اى لوسيان
المسيحي الذي كان معيناً حيث ذكر في وظيفة خطيرة عند الامبراطور هي
(ناظر بيت الملك) او يعني اوضاع (مدير الدائرة الخاصة) . وكان
تعينه في هذه الوظيفة بعد ارتقاء ديوكلتيانوس العرش الملكي بقليل
فكتب اليه البطريرك يقول :-

« ان الراحة التي اتمتع بها الكنيسة الان تعزى الى سبب واحد فقط
هو سلوك المسيحيين الحسن واعمالهم المعدودة التي تضيئ كالشمس في
رابعة النهار فینعكس ضوءها امام اعين الكفرة والملحدين فتبهر انظارهم
وبذلك يتتجدد ابانا الذي في السموات . اما غرضنا الذي رمي اليه والغاية
القصوى التي نسعى خلفها هي ان تكون مسيحيين فعلا لا بالاسم
فقط وان نعمل اعمال المسيحيين الحقيقيين لانه اذا كانا نطلب مجد انسانا
الذاتي فتكون كمن يطلب شيئاً تافهاً زائلاً لا فائدة منه . فاذاً يجب على
كل مسيحي ان يتم بعده الله الاب وبعده الله الابن الذي سر لاجلنا على
خبة الصليب وقدانا بدمه فداء ابداً لا يقوم بذهب او بفضة . فلذلك
ليها العزيز لوبيان لا اريد ان يعرف عنك التباكي والتغزير لانك اهديت
كثيرين من خدمة البلاط الملكي الى معرفة الحق وادخلتهم في حظيرة
المسيح بل بالاحرى بل ان تشكر الله الذي اختارك الله نافعه للبنيان
وجعلك واسعة خير لنفع الاخرين واعطاك نعمه في عيني مولاك لحد
مكانت فيه من نشر كلمة الخلاص واداعة معرفة فادي المسيحيين وذلك
مجده اعمه وخلاص الكثيرين »

وقد كتب هذا البطريرك كثيراً يوصي ابناءه الموجودين في
خدمة الامبراطور بالالتفات لواجباتهم كمسيحيين واتيان الاعمال التي
يمتاز بها المستخدم المسيحي في ديوان وثني عن غيره ثم شدد عليهم
الوصية بالابتعاد عن شر كثيراً ما سقط فيه المصريون بل الشرقيون

بوجه عام حيث قال :-

« ان الله ينهاكم عن ان تبعوا الآخرين شيئاً من متعلقات القصر خلسة او ان تأخذوا رشوة لكي تقولوا للإمبراطور كلاماً ضد الحق ابتعدوا عن الطمع والجشع اللذين يتسلك بهما الوثنيون لا المسيحيون واعلموا ان الربح القبيح والفنش هما صفتان لا تلائمان من قبل المسيح وعول على الاقداء به ذلك الذي كان فقيراً معدماً . لا تتكلموا بشر فيما بينكم ولا تخرج كلمة قبيحة من افواهكم بل لكن كل اعمالكم مقرونة باللطف والتآدب مع العدل والحق بذلك يتتجد اسم ربنا والهنا يسوع المسيح فيكم وفي اعمالكم . تعموا واجياتكم التي أنسدت اليكم بخوف من الله وبمحبة للإمبراطور وبغاية الدقة والاجتهد واعتبروا ان الاوامر التي تصدر لكم من مولاكم الذي لم يسيه الى احد من رجال الله كالمها صادرة من الله نفسه لانه مقام منه ولم يقل السيف باطلأ واخيراً يا أبنائي الاعزاء البسو الصبر كرداً وتنطقو بالفضيلة وامتلوا بالرجاء والإيمان والمحبة »

شخص يكون ماهراً في علم الحساب عارفاً بمسك الدفاتر فلا يعتمد على ذاكرته في هذا العمل وان يكون حسابه مرتباً مبوتاً حتى يسهل معرفة الميزانية وخصبها في وقت قصير ويجب كتابة تاريخ صرف النقود وسبب صرفها والمكان الذي صرفت فيه في أئمدة على حدتها في الكشوف (الاستمارات) الخاصة بذلك . وقد وضع هذا البطريرك العارف تعليمات لامين الثياب والملابس واختاره من الرجال الذين اشتهروا بالدقة والامانة وكتب له يوصيه بـ لاحظة الترتيب الآتي وهو :-

« مقدار الملابس المسالمة لعهده ونوعها وما هيها والاماكن الموضوعة فيها وتاريخ وصولها للمخزن باسم المتعهد الذي وردتها وهل هي حسب الشروط ام لا وضرورة افقادها مراراً ومعرفة موضع كل سلمة من الدولاب المخزونية فيه . وعلى الامين أن يفعل كل هذا بتواضع وطول اناة لكي يتتجد اسم المسيح حتى في مثل هذه الاعمال القليلة الامامية »

وقد شرح ثيوناس بالتفصيل الوافي واجيات أمين الكتبخانة واظهر في شرحه هذا كل حكمة ومهارة مما يدل على غزاره مادته وطول باعه اذ قال - « يجب على أمين الكتبخانة ان يكون عارفاً بما عنده من الكتب والمجلدات وان يتفقدها ويفحصها كل آونة وأخرى وان يربتها حسب اهميتها ويدرجها في كشف على نسق واضح وان يستخدم امهر النساخ وابرعهم لنسخ ما يحتاج اليه من الكتب الغير

وبعد هذه المقدمة العمومية اسهب البطريرك في تفصيل الطريقة التي يسير عليها المستخدمون عند تأدية واجياتهم المتنوعة المتعددة . وكان أكثر موظفي البلاط الامبراطوري من المسيحيين وكانت وظيفه أمين الكتبخانة خالية حيثنى وكان البطريرك ثيوناس يرجو تعين مسيحي فيها . اما أمين الخزانة الخاصة فقد أوصى البطريرك بانتخاب

موجودة عنده . كذلك يلزمـه ان لا يرتـأـي ويظنـ انه ليسـ في حاجةـ الى الدرسـ والمطالعـة او الالامـ بمحـتوياتـ الكـتبـ خـصوصـاـ اليـ يـغـيلـ اليـهاـ الـامـبرـاطـورـ ويـحـثـ عـنـهاـ وـيـطـلـبـهاـ . ويـتـحـمـ عـلـيـهـ ايـضاـ مـعـرـفـةـ اـسـماءـ الخطـباءـ وـالـشـعـراءـ وـالـمـؤـرـخـينـ الـذـينـ نـبغـواـ فـيـ الـاعـصـرـ الـخـالـيـةـ وـالـوقـوفـ عـلـىـ مؤـلـفـاتـهمـ وـمـصـنـفـاتـهمـ وـاقـوالـهمـ الـمـأـثـورـةـ . وـوـحـيـثـ انـ هـذـاـ الـامـينـ كـثـيرـاـ ماـ تـضـطـرـهـ شـؤـونـ وـظـيـفـتـهـ لـالـمحـادـثـةـ معـ الـامـبرـاطـورـ وـارـشـادـهـ اـهـمـيـةـ التـرـجـمـةـ السـيـعـيـنـيةـ لـكـتابـ الـمـقـدـسـ وـنـفعـهـ وـماـ فـيـهـ مـنـ الـفـائـدةـ العـظـمىـ وـانـ يـفـهـمـ انـ هـذـاـ الـكـتابـ كـانـ لـهـ مـنـزـلـةـ كـبـرىـ عـنـ بـطـلـيمـوسـ فـيـلـادـلـفـوسـ الشـهـيرـ الـذـيـ كـانـ يـقـدرـهـ حـقـ قـدـرهـ (١)

وـقـدـ وـضـعـ هـذـاـ الـبـطـرـوكـ الـمـاهـرـ اـرـشـادـاتـ أـخـرـىـ عـنـ الـكـتبـ الـتـيـ يـشـيرـ بـقـراءـتـهـ عـلـىـ مـسـامـعـ الـامـبرـاطـورـ بـصـوتـ جـمـورـيـ كـمـ اـنـهـ اـشـارـ اـيـضاـ عـلـىـ الـقـارـيـءـ باـقـيـاسـ شـوـاهـدـ مـنـ كـتبـ اـخـرـىـ تـنـاسـبـ مـقـامـ الـمـوـضـوعـ الـمـرـادـ تـفـيـضـهـ لـالـامـبرـاطـورـ . وـقـدـ ذـكـرـ اـيـضاـ اـنـهـ يـلـزمـ الـامـينـ

(١) مـلـومـ اـنـ بـطـلـيمـوسـ فـيـلـادـلـفـوسـ هـذـاـ هـوـ لـذـيـ اـعـتـنـىـ بـتـرـجـمـةـ التـوـرـاـةـ التـرـجـمـةـ اـسـمـاءـ السـيـعـيـنـيةـ . وـيـظـهـرـ مـنـ فـوـلـ زـوـسـ اـنـهـ لمـ يـكـنـ بـخـطـرـ بـالـهـ اـنـ اـمـبرـاطـورـ رـومـاـيـ كـبـيـرـ كـلـيـانـوسـ يـكـوـنـ عـلـىـ دـرـجـةـ مـنـ اـجـمـهـلـ المـطـقـ سـلـدـانـهـ لـاـ يـعـرـفـ شـيـئـاـ عـنـ بـطـلـيمـوسـ وـاـعـمـالـهـ الـمـرـوـفـةـ . وـلـكـنـ جـبـلـ ذـكـرـ اـلـامـبرـاطـورـ اـمـاـيـ كـانـ حـقـيقـةـ رـاهـنـةـ حـقـ اـنـ مـرـيدـيـهـ وـجـبـهـ شـهـدـواـ بـخـلوـهـ مـنـ كـلـ مـرـفـةـ وـجـبـدـهـ مـنـ الـبـلـمـ وـالـرـفـانـ

انـ يـعـتـيـ بالـكـتبـ الـقـدـيـمةـ الـمـسـوـخـةـ وـانـ يـجـلـدـهـ تـجـلـيـداـ حـسـنـاـ وـانـ
يـعـمـلـ كـلـ مـاـ مـنـ شـائـهـ حـفـظـهـ مـنـ اـيـديـ الـبـعـثـ . كـذـاـ يـجـبـ عـلـىـ الـذـينـ
يـقـرـأـ كـتـابـاـ لـالـامـبرـاطـورـ اـنـ يـعـزـجـ كـلامـهـ بـعـضـ شـوـاهـدـ عـنـ اـعـمـالـ
الـمـسـيـحـ وـيـدـخـلـ فـيـ مـوـضـوعـهـ اـسـرـاـ يـجـرـ اـلـاحـدـثـ عـنـ الـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـةـ
وـكـثـيرـاـ ماـ شـدـدـ هـذـاـ الـبـطـرـوكـ الـوـصـيـةـ عـلـىـ الـمـسـيـحـيـنـ الـمـسـتـخـدـمـيـنـ فـيـ
الـدـوـاـرـ الـامـبرـاطـورـيـهـ بـعـرـاءـةـ شـروـطـ النـظـافـهـ وـهـنـ الـمـنـدـامـ وـانـ تـكـوـنـ
دـلـائـلـ الـفـرـحـ وـالـابـهـاجـ ظـاهـرـةـ عـلـىـ سـيـاهـمـ وـعـلـامـ الـهـيـبـهـ وـالـوـقـارـ وـاضـحـهـ
فـيـ مـلـامـهـ وـعـلـىـ وـجوـهـهـمـ
وـلـنـعـدـ الـآنـ لـلـبـحـثـ عـنـ اـصـلـ هـذـاـ الـامـبرـاطـورـ وـفـصـلـهـ الـذـيـ توـسـمـ
فـيـهـ الـمـسـيـحـيـوـنـ الـمـصـرـيـوـنـ كـلـ خـيـرـ وـبـرـكـةـ فـنـقـولـ :-

اـنـ الـذـيـ يـنـظـرـ اـلـىـ اـسـمـ هـذـاـ الـامـبرـاطـورـ يـظـنـهـ يـوـنـاـنـاـ اوـ رـومـاـنـاـ وـلـكـنـ
اـسـمـهـ فـيـ الـحـقـيقـةـ لـقـبـ اـخـذـ مـنـ مـدـيـنـهـ فـيـ دـلـاـطـيـهـ هـيـ مـسـقـطـ رـأـسـ اـمـهـ
وـذـلـكـ لـاـنـهـ وـلـدـ عـبـدـاـ مـنـ وـالـدـيـنـ كـانـاـ تـحـتـ رـقـ الـعـبـودـيـهـ اـلـاـ اـنـهـ اـظـهـرـ مـنـ
نـعـومـهـ اـلـفـارـهـ طـبـعـاـ اـشـعـبـاـ وـحـذـقـاـ طـبـعـاـ فـيـ طـلـبـ اـتـقـدـمـ وـالـرـفـعـهـ كـمـ اـنـهـ
كـانـ يـشـكـ كـثـيرـاـ فـيـ الـوـسـانـطـ الـتـيـ اـسـتـعـمـلـهـ الـنـيلـ غـرـضـهـ الـذـيـ يـسـيـعـ اـلـيـهـ
وـلـنـدـ تـقـدـمـ دـيـوـكـلـيـانـوسـ تـقـدـمـاـ سـرـيـعـاـ فـيـ الرـتـبـ الـعـسـكـرـيـهـ اـلـىـ اـنـ عـيـنـ
قـائـدـاـ لـلـحرـسـ فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ مـاتـ فـيـهـ الـامـبرـاطـورـ نـوـمـرـيـانـوسـ فـيـ مـدـيـنـهـ
خـلـكـدـونـيـهـ عـنـ دـعـوـتـهـ مـنـ حـرـبـ الـقـرـسـ كـامـرـ بـلـكـ . فـلـاـ مـاتـ نـوـمـرـيـانـوسـ
هـذـاـ دـبـرـ حـيـلـهـ مـحـبـوـكـهـ الـاـطـرافـ بـهـاـ جـعـلـ قـوـادـ الـجـيـشـ الـذـينـ كـانـواـ فـيـ

الحرب مع الحكم الرومانيين ان يصادقوا على انتخابه امبراطوراً فتم له ذلك . ولما استتب له الامر افتتح حكمه بقتل رجل كان يخشى من مطالبه اياه بسرير الملكة ومخالف ان يصييه شر منه ولذلك اتهمه بأنه القاتل ليومنوس سلفه فيجيء بهذا الرجل المسكين امامه وهو مقيد بالاغلال والسلسل وحوله جم يصخبون ويصيرون فاما سكه وذبحه بيده ذبحاً دون ان يعلم به تحقيقاً او ان يحيطه على محاكمة بل هدر دم الرجل هدراً وبعد مضي ستين على هذه الحادثة رأى ديوكتيانوس انه يصعب عليه تنظيم هذه الملكة بفرد ينها هي مملكة واسعة الا طراف اعتاد شعبها عدم الخضوع بـ وله الذين يقتربون استقل لهم ويفقدونهم حرتهم فلذلك اشرك معه في ادارة الملكة مكسيمان وهو رجل أعمى كان مثله كمثل ديوكتيانوس في انه ترقى سريعاً في الرتب العسكرية الى ان صار قائداً لفرقة وذلك لخده الطيب ومهارته . فلما عينه ديوكتيانوس وكيلاً له اعطاه لقب امبراطور المغرب وبعد هذا التعيين بست سنين شعر الامبراطور الروماني بضرورة تعين وكيلين له وشركيه فعين قسطنطينوس وكيلامكسيمان وهو رجل من عائلة طيبة وعزن غاليروس وكيل لنفسه وهو رجل راعي قطمان وسي هذين الوكيلين قيصرين واضطراها ان يطلق كل منهما رأسه ويقترب بابنته مولاه لينا بذلك الترقى والرفعة اما هؤلاء الامبراطرة والقياصرة فكان لديهم شغل خطير في انهم يعلمون للدفاع عن سلامه الملكة التي كانت تحمل تدريجياً و تستقبل ولاية مصر طول هذه السنين بل انها قامت مت مرات في اثناء هذه

من بعدها خرى وذلك لأن الشعب رفض مبايعة عبد ذميم كديوكليانوس والا عتراف بأنه امبراطور عليهم وكانت كل ولاية من هذه الولايات النازعة لا تقلل تحثار عميداً لها من بينها ليقيم الحروب ويشن الغارات طمعاً في اعادة الاستقلال القديم وكانت اول ولاية نزعت الى الحرية بريطانيا وعقدت لواءها الى امير منها اسمه كاراشيوس وتبعها فرنس تحت قيادة اليانوس واماندوس ثم قرطاجنة تحت يوليانيوس واخيراً قامت مصر تحت زعامة اخليوس واعتقلت البيض الصفاح لتسود استقلالاً لها كان قد مات دراج . والذي يتذر طول مدة الجماد في مصر لاجل الحرية وما له من الاهمية العظمى لانه جهاد في سبيل الملائكة من رق العبودية يعجب جداً اذ لا يجد ما يشفي العلة عن اخليوس هذا ولا يعرف شيئاً عنه بينما يراه رجالاً عنيداً وبهلاً صنديداً ظل تسعة سنوات متالية يقاوم القوة الرومانية ويحتقر سطوتها وعظمتها الى ان مات بعد مدة طويلة في الحرب وعموه خات آمال مواطنه ولم يعد لهم امل في الاستقلال . وكل ما نعرفه عن اخليوس هذا على سبيل التخمين انه مصرى النزعة مسيحي المذهب ولو انه يوناني الاسم . وقد مضت ستين سنة بعد هذه الحادثة والمصريون يتضجرون ويتملعون من حكم هؤلاء البرابرة المفترضين الذين انحلوا لانفسهم لقب امبراطورة رومانيين وادعوا ان الملكة المصرية ائنا هي ارث لهم لا يصح ان ينزعهم فيها منازع . ولم تكن مصر طول هذه السنين بل انها قامت مت مرات في اثناء هذه

المدة وهي تتغلب السلاح وتسير خلف كل من يقول بأنه قاصد استقلالها وساع في تحريرها ولكنها لم تستند شيئاً ولم يخشمها العدو لأنها كان مؤكداً أنها تهزم امامها لما اعده لها من جيش متعرن ولأنه استأجر لها عاكراً متدربة في فنون القتال لا يقف امامها هذا الشعب المصري الضعيف الذي اعتزل السلاح من قرون مضت ولم تبق له معرفة بالحروب كان المصريين لم يكونوا يتظرون نجدة من الخارج ولكنهم ارتبطوا كلهم معاً - اليوناني والمصري والسيحي والوثني على السواء - لكي يجاهدوا واجهاد اليائس القاطن في نوال الحرية

وبعد ان حاصر الامبراطور مدينتي قبطس وبوزيريس حصاناً طويلاً ثقاب عليها اخيراً واهلكها عن بكرة ائمها ومن ثم سار في طيبة الى ان وصل آخر حدود مصر فعقد معاهدة مع أهالي النوبة والحبشة وتنازل لهم فيها عن الاقليم الواقع بين اصوان ووادي حلقا على شرط ان يردوا غارات الاعداء الذين ينبرون على حدود المملكة . وكانت تتجدد هذه المعاهدة سنوياً ويقام لها احتفال ديني تحر فيه الذبائح حسب طقوس الديانة المصرية القديمة وتعمل لها الولائم الفاخرة في جزيرة فيلا التي ع skirtت فيها الحامية الرومانية . ولم تزل بقايا السور الذي شاده) ديكليتيانوس في وسط الوادي قائمة الى يومنا هذا . وقد ذكر بعض المؤرخين ان ديكليتيانوس لم يشق تمام الثقة بمدافعة اهالي النوبة عن الحدود المصرية فاتفق معهم فيما بعد بان يدفع لهم جزية سنوية ومثلها للبلميين الذين كان يخشى شر غاراتهم وهم الذين ساعدو التدمريين قبلاً على افتتاح مصر من جهة الجنوب ولما اكل ديكليتيانوس هذا كله غادر مصر وتبعه جيشه ولذلك نقص ظل السلطة الرومانية فيها وأوشك بدر قوتها على الانفول وعليه التفّ المصريون باجمعهم مرّة ثانية حول الاخيوس - الذي كان فرّ من وجه ديكليتيانوس قبلاً - فقاتلته مدينة الاسكندرية بترحاب واجلال بعد اذ فاز بالنصر ونال غرضه . وقد يصعب على الباحث تحديد مدة استقلال مصر تحت حكم اخيوس ولكن البعض ذعموا ان

وقد قضت سنة هذا الكون الطبيعية ان يكون السبق للسرع والنصر للقوى . وتفسير ذلك ان اخيوس المارد ذكره بك كان قد أخذ طيبة وأقيم ملكاً فيها لمدة أربعة اعوام ذاق فيها المصريون طعم الحرية المزوج بعلم تهديد الرومانيين لهم بينما كان غاليريوس غير قادر الكلمة لا تتعذر سلطاته حدود خيمته ولا يسمع صوته سوى عاكره ولذلك سعى جمهده في الحصول على مركز ثابت واجداد شهرة له من العدم فسار بجنوده ضد المصريين واخيوس عساه يذلهم فيعود بالشهرة والنصر ولكنه لم يفلح في تدبيره هذا وحيثذا اضطر ديكليتيانوس ان يحضر بنفسه ومعه جيش مزبد ومن ثم بدأ الحرب بيده وبين المصريين او يعني اخر بين العلم والنصرانية والضعف من الجهة الواحدة وبين الجهل والكفر والقوة من الجهة الأخرى

مصر ظلت مسفلة من ست سنوات الى تسع وبنوا عليهم هذا على ان ديوكلينوس لم يعد لمحاربة مصر وارجاعها لسلطته الا بعد ان قضى وقتاً طويلاً في رومية كانت مصر في اثناء تستشق نسم الحرية المنش

فلا قدم ديوكلينوس لاخضاع مصر زاد شقاوتها وعظم بؤسها ومصابها . فانه بينما كان اخليوس في الاسكندرية يجني ثمار انتصاره داهما ديوكلينوس قاصداً افتتاحها فبدأ اولاً بشدید الحصار عليها بان حول مجاري المياه التي تشرب المدينة منها ولم يبق شنك في انتصاره عليها ما دام قد قطع كل صلة بينها وبين باقي مصر وما دام هو قادر على ايجاد كل ما يحتاج اليه من مؤونه وذخيرة بواسطة البحر المتوسط وبينما كان ديوكلينوس يحاول أخذ الاسكندرية ويقاتل المصريين ليس لهم استقلالهم كانت الامم الاخرى الخاضعة لسلطة الرومانية تجاهد مع الامبراطرة الرومانين شركاء ديوكلينوس دفاعاً عن حياتها واحتفاظاً على وحدتها واستقلالها وقد رشى هذا الامبراطور النوبين والبلميين ليكونوا على الحياد فلا يدعون يد المساعدة لمصر وكان حرب ديوكلينوس السابق لهذا قد أورد مصر موارد الخراب والدمار وحرمهما من ملكها الذي سجن في الاسكندرية فلذلك لم تقو هذه المرة على مقاومة طويلة فان الاسكندرية بعد ان مضى عليها ثمانية شهور في حرب عوان يدفعها اليها اليأس سلمت للامبراطور وأخذ اخليوس اسيراً ثم

حكم عليه بالموت . قيل ان ديوكلينوس اغتاظ جداً من مقاومة الاسكندرية له وحق من استبسالها في حربها معه فأقسم ايعاناً مغلظة ان لا يكفر عن ذبح اهلها حتى تجري دمائهم كالسيل المنهر في الشوارع ويبلغ ارتفاعها الى ركبة حصانه قصاصاً لهم على عنادهم وعدم اسلامهم فذهب عشرات الالوف من المصريين وجرى دمهم كالغدران في الازقة والشوارع الى ان شبعت نفس ديوكلينوس بهذا المنظر الذي تشيب من رؤيه الاطفال فاتهز فرصة سقوط حصانه عند ما عثر بالجثث المكومة فوقف الذبح لانه اعتبر عشار جواده عالمة من السماء على اتمام هذا الانتقام وهو لم يكن ليكت مطلقاً عن عمله هذا لو لا ان دواع سياسية خطرت به فوجده مخرجاً من الحيث يفسه الذي أفسنه فكف عن خراب المدينة وذبح كل كأنها . وقد زعم البعض ان العمود المنفرد الذي لم يزل الى الان قائماً في اطلال الاسكندرية القديمة المعروف « بعمود السواري » اقامه الوطئيون هناك او نصب باسم الامبراطور نفسه في هيكل سيرابيس ليكون تذكاراً لهذه الحادثة المشوهة الا ان الباحثين الذين عملا في الاسكندرية لا ثبت صحة هذا الزعم . اما ديوكلينوس فعرف كيف يتصرف في مصر فقضى فيها وقتاً - اكنا مادياً ولم يصب جامات انتقامه على رأس هذه البلاد الثقيلة الا بعد بضعة اعوام ولكن هذا الانتقام الثاني كان صارماً جداً لا مثيل له بين اعمال الانسان الوحشية

ولما رأى بعض الاشخاص الذين كان قد حكم عليهم بالموت او يائني
ان ديكليتوس ينوي بهم شرًّا تركوا مصر وفروا الى بلاد اخرى . وقد
بدأ ديكليتوس حيئته في ابطال سبك النقود المصرية القديمة ولكن
هذا لا يعد شيئاً في جانب المصيبة العظمى التي اصابت مصر بضياع
كتابها العلمية القديمة التي كانت اثمن الكنوز عندها . فان هذا الامبراطور
الجاهل الذي كان عقلاً مفعماً بالخرافات والاوهم ظن ان المصريين قادرؤون
بواسطة علم الكيمياء ان يحولوا كل المعادن الاخرى الى ذهب وهاجر
وان هذه هي الطريقة الوحيدة التي جمعوا بها مالاً طلاقاً صرفوه في المدة
التي كانوا يجاهدون فيها لاستقلالهم وحررتهم . فبناء على هذا الفكر
السخيف - الذي يوجد كثيرون يعتقدون به الان - امر بتسلیم جميع
هذه الكتب اليه وقد نفذ الامر رغمماً عن احتجاج المصريين وتوكيلتهم
وتضرعاتهم فأخذ هذه المجلدات العديدة وحرقها هذا الامبراطور الغر
الفشوم باحتفال حافل وهي ولو اتها تحتوي على بعض امور وهمية
واغلاق غير جوهرية الا انها لو بقيت لكان أحسن ما يقتنيه العالم في علم
الكيمياء وفي علوم اخرى مهمة

وبعد هذا بقليل توفي بطريرك الاسكندرية الذي ربها قاتل كثيراً
من هذه المصائب التي مرت على ابناءه . وقد يصعب التثبت من معرفة
الذين رأسوا المدرسة اللاهوتية بالترتيب في ايام الاضطرابات هذه وقد
يمكن معرفة اسماء الذين اداروا حركة هذه المدرسة ولكن تعاقبهم الواحد

بعد الاخر لا تسهل معرفته الا انه يحتمل ان يكون اخيلاس قد خلف
بيونوس وانه تعيين باسر من البطريرك بيوناس وانه رفي كريسي
البطريركية بعد ذلك بعده طوله في اثنائه توالى بطرس وسيرايون على
رئاسة المدرسة اللاهوتية . ويقرب من الظن ان اخيلاس هذا فعل ما
فعله كليمنسس قبله في انه ترك الاسكندرية اوقات القلائل والحروب وحل
 محله بطرس الثناء غيابه وقد ورد ان البطريرك بيوناس مات سنة ٣٠٣ بـ . م
وخلفه بطرس هذا الذي كان حيئه شاباً بالنسبة الى بيوناس وكان
 ايضاً متزوجاً وذا بنات

وقد ظلت مصر ثلاثة سنوات هادئة مطمئنة (١) ومن ثم عصفت
 زوابع المصائب التي تركت الكنيسة على شفا جرف هار ثم قامت ريح صرصر
 امطرت على الامة المصرية بلا ودزايا لم تقم لها قاءة بهذه

الفصل الثامن عشر

طبع النهار . - سنة ٢٠٣ - بـ . م

لا ريب في اذلاضطهد الذي احدثه ديكليتوس وكاد يقضى على
 مصر قضاء مبرماً لم يكن محصوراً في هذه البلاد فقط اغا كان يده
 مشروع خطير يقصد به محوار آثار الديانة المسيحية من على وجه الديطة

(١) قال يوسف اليقاري في تاريخه ان الاضطهاد بدأ في مصر عقب اخراج
 نار عصباتها . وهذا القول قريب من الصواب كا انه ازاح ستار عن بعض المقد
 التاربخية فيما يتعلق بالشقاق الذي احدثه ميلتيوس في مصر . وقد من يلك ان الاعتماد
 الذي اثاره ديشيوس بدأ في مصر قبل صدور الامر الامبراطوري بشأنه بستة كاملاً

ولاز بطانة هذا الامبراطور العاتي و معه لم يكونوا يهتمون باضطرار الحقائق له فيما بعد - وجده موصوف في الذي مضى - ان القوة والمقاومة التي صادفها في الشمب في مصر وعدم رضوخهم له انما منشأ هذه العيادة للايمان الشديدة المراس التي تدعى التهذيب والمدينة كثرا من تهوى الملكة الرومانية بهما والتي تدين لا له قدر وتطمه وتقول انه أعلى من الامبراطور الروماني وارفع ونكر از هذ الامبراطور نائمه . وللذى زاد هذا الامبراطور ارتياً في امر الديانة المسيحية ما شاهده في فرنسا وبريطانيا وفي شمال افريقيا من -حي هذه الشوب احوال الاستقلال كانت من مصر ومن ان البابت لهذا السعي هو - بب واحد ومحرك واحد هي الديانة المسيحية . وما زاد هو وجنونه ان غاليريوس (١) وكيله جسم له امر وكرم كما ان المتجمين والمعارف الدين دعاهم ديوكتيانوس كثيراً ليتباهوا بما يكون في مستقبله قالوا انه يسر عليهم اغراء الاروام على مجاوبتهم و ظهار مكنونات الغيب مادام ان قصر الامبراطور مقم بجماعة الكفرة (يقصدون بذلك المسيحيين) الذين وجودهم من القصر يمنع تجلي الارواح و ظهورها

٤٢٧١

ولما امتلاً عقل ديوكتيانوس بخوف ناتج من خرافات عقيدة ولاعتبارات سياسية ايضاً امر باصدار منشور شديد اللهجة ضد المسيحيين وذلك في ٢٣ فبراير سنة ٣٠٣ ب.م (وهو يوم عيد عند الوثنيين) ولما صدر هذا المنشور كان ديوكتيانوس وغاليريوس في نيكوميديا يطلان من القصر لينظروا به، تلك الحادثة المشؤومة التي استمرت تسع سنوات كاملة . وعند بدأ هذا الاوضاع اعاد بان سار الوالي بمثابة حافل الى كنيسة نيكوميديا الكبير يصحبه جم غفير من الموظفين والكتاب وجماعه من حاملي الفؤوس فكروا الابواب واحرقوا جميع كتب الكنيسة وستورها ثم اخذ اعمال في هدم الكنيسة بالفؤوس والانتقال الى ان ساروها بالارض ولم يتركوا فيها حبراً على حجر الا ونقضوه . اما المنشور السابق ذكره فصدر في ثاني يوم لهذه الحادثة وعلق في الاسواق والاماكن العمومية وهذا نصه :-

- (١) يجب هدم جميع الكنائس وازالتها من الوجود
- (٢) يجب احراق كل الكتب المقدسة
- (٣) جميع المسيحيين الموظفين في خدمة الحكومة لا يتردون من وظائفهم فقط بل يحرمون من حقوقهم الوطنية ايضاً (وذلك لكي يتمنى لاعدائهم ان يذيقوهم انواع العذابات واشكال القسوة)
- (٤) كل المسيحيين الغير موظفين يصيرون عبيداً ارقاء وقد يمكن للقطن ان يتصور مقدار ازدحام الناس في الاسواق

(١) مما يتبين ذكره هنا انصافاً لديوكتيانوس ان الانطهاد المتّوب لم يصل درجة القطاء والقصوة الا وقت جنونه الذي اعقب تنازله قرآ وتركه غاليريوس يتعرف كيف شاء تانيا الفعل لديوكتيانوس . وقد صدر أمر في البداية كان صارماً شنقاً ثم تلاه ثالث في طرف بسبعين اساعي يتضمن سجن جماعة الاكريديوس أولئك ايجارهم على أن يذبحوا لا ونان بواسطة العذابات المريرة وكان ذلك نتيجة نار شب في قصر الامبراطور اتفق جمهور المؤرخين الماصرين أنها اضرمت بارس غاليريوس نفسه وعزماها الى المسيحيين وبذلك اقتضى ديوكتيانوس بالتخاذل اللازم ضدّهم . وقد صدر أمر داعم يبيان ان ديوكتيانوس متّوبها وبلغ الانطهاد جده بعد تنازله

لقراءة هذا المنشور . فكان المسيحيون عند سماعهم هذا الخبر الشوم ينسلون من وسط الجموع لكي يختبئوا او يغروا هاربين ولو ان املهم في هذا الهرب كان ضعيفاً . اما الوثنيون فلم يفرحوا لهذا الخبر بل بالعكس كانوا يربدون المدافعة عن اخوانهم لولا انهم خافوا الشبهة والريبة . قيل ان مسيحيآ جريء القلب شديد العارضة اقتحم الجمود المزدحم في الواقع وتقدم ليقرأ هذا المنشور فلما علم بما فيه مذده بسرعة البرق الحاطف واخذ هذا الامر الامبراطوري ومرقه شذر مذر وذرمه في الهواء وقد فعل ذلك بغاية الشجاعة والحزم بينما المتفرجون وقفوا متدهشين كأن على دووسهم الطير . أما هذا الباسل فقد القوا القبض عليه في الحال وذاق الوان العذاب الاره وحينئذ احرقوه حياً في نار ضعيفة اللحيف لكي يطول عذابه كثيراً

٤١٧٣

وجه الشبه بينهما الخصم الشديد الذي استحكمت حلقاته بين هذا الامبراطور وبين ذلك الشهيد الباسل الذي قاومه مقاومة شديدة واحيراً فاز عليه واحتضن سلطنة وقوة ارادته تحت موطيء قدميه . هذا كلما يتعاقب عَسْلَةُ التَّيْنِ الَّذِي اقْتَرَنَ ذَكْرُهُ بِتَارِيخِ مَارْ جَرجَسَ وَالَّذِي يَتَصْفَعُ الرَّوَايَاتُ الْقَدِيمَةُ عَلَى صَحِّهَا لَا يَجِدُ أَدْنَى خَبْرٍ عَنْ وُجُودِ تَيْنٍ حَرْفِيٍّ أَوْ عَنْ مَقَاوِمَةٍ جَرِتَ بَيْنَ هَذَا الْقَدِيسِ وَبَيْنَ أَيْ حَيْوَانٍ آخَرَ . اَمَا الرَّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي نَحْنُ فِي صَدَدِهَا فَتَقُولُ اَنَّ هَذَا الْامْبَرَاطُورَ كَانَ مَثْلًا فِي صُورَةِ كَانَهُ مَلِكَ الْمَسْكُونَةِ بِرَمَّهَا وَتَحْتَ يَدِهِ ثَمَانِيَّةُ مَلُوكٍ خَاصِّمَهُ لَهُ . وَقَدْ جَاءَ فِيهَا اِيْضًا اَنَّهُ بَعْدَ مَضِيِّ ثَلَاثَ سَنِينَ عَلَى مَنْشُورِ الْامْبَرَاطُورِ الَّذِي ذَكَرَ قَبْلًا لَمْ يَكُنْ اَحَدٌ يَجَسِّرُ وَيَقُولُ اَنَّهُ مَسِيْحٌ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِاتِ الْمَرَةُ الَّتِي كَانَ يَتَوَعَّدُ بِهَا دِيُوكْلِيتِيَانُوسَ . اَمَا عَنْ مَارْ جَرجَسِ فَقَدْ وَرَدَ فِيهَا اَنَّهُ وَهُوَ بَعْدَ ضَابِطٍ صَفِيرٍ فِي الْجَيْشِ طَلَبَ إِلَى مَدِينَةِ الْاسْكَنْدَرِيَّةِ لِيُرْقَى إِلَى درَجَةِ اَعْلَى فَلَمَّا مُتَّلَّ بَيْنَ يَدَيِ رَؤْسَائِهِ لَمْ يُسْهِمْ السَّكُوتُ بِلَ قَالَ جَهَارًا اَنَّهُ مَسِيْحٌ . فَعَنِدَ مَا سَمِعَ الْامْبَرَاطُورُ ذَكَرَ لَمْ يَثِأْ فَلَمْ حَالَ بَلْ مَدَلَّهُ فِي اَجْلِهِ حَرْصًا عَلَى حَيَاةِ ضَابِطٍ اَمِينٍ مُتَّلِّهِ وَكَانَ رَانِيَا يَجْدِدُ الْعَفْوَ عَنْهُ وَيَعْدُهُ بِالْتَّرْقِيِّ وَالتَّقْدِيمِ اِذَا هُوَ اطْلَاعُ الْامْرِ وَانَّكَ مَسِيْحٌ . وَلَمْ تَسْلِمْ حَكَايَةُ مَارْ جَرجَسِ الصَّحِيحَةُ مِنَ النَّسْخِ وَالابْدَالِ لَانَّهُ يَحْتَمِلُ اَنْ كَاتِبًا مِنَ الْمَذْهَبِ الْأَرْيُوسِيِّ (نَسْبَةٌ لِأَرْيُوسَ الْمَرْطُوقِ) وَقَعَتْ فِي يَدِهِ هَذِهِ الْقَصَّةَ بَعْدَ زَمْنٍ مَا فَادَخَلَ فِيهَا مَا قَلْبَ وَضَمِّنَهَا وَعَلَقَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّرْوَحِ

والمواثي ما وافق شرطه الذي قصد به نسبة فضائل وكرامات مار جرجس المصري إلى مار جرجس الاريوسي الروماني الذي جاء بعده كاسينجي، وقد صادف عمل هذا الكاتب بعض النجاح في أوائل الامر ولكن لم يلبث هذا النجاح ان انعكس من وقت ما تلاته الطائفية الاريوسية من مصر واضمه حل ذكرها واصبحت الكنيستار او الثلاث التي كانت تكررت باسم مار جرجس الاريوسي (١) تسب إلى مار جرجس المصري ونقول بسيادته عليهما وصارت هذه الكنائس ملائي بصور قتيل حكاية التنين القديمة العبد وهي حكاية لا علاقه لها مع هذالو ذلك كما أسلفنا . ففي هذه الصور ترى مار جرجس راكباً جواداً أصيلاً مطهياً وقد احمد سيفه في تنين (٢) وحشى كما يسميه اليونان والمصريون وخالص الاميرية من آنابه كقول برسوس المار ذكره ولكن الروايات المصرية القديمة لم يذكر فيه تنين او أميرة بل التنين كان لقباً للإمبراطور كما قلنا وكان مار جرجس يلقب به اما هذه الاميرة فكانت احدى محظيات الإمبراطور التي كانت

(١) قيل ان الكنيسة اليونانية المسماة باسم مار جرجس الموجودة في دارجة بايلون (بصرب القديمة) كانت مكررة قد يبدأ باسم مار جرجس الاريوسي وكان له كنيسة أخرى في جرجا

(٢) لا يعرف شيء عن صفة الحبة ان الذي صفت عنه قديعاً حكاية التنين . وقد ترجم في خفرا الكهنة من مار صوت ، ويشيرون عليه في مصر ثورة شمساً واجناناً بساح عجيج واحداناً بمحنة عظيمة هائلة

قد حبس ليلة كاملة مع هذا الشاب الباسل بعد ان رفض انكار المسيح يقصد ان يؤثر خداعها وكلامها اللain في عزيمته التي لم يزد بها العذاب الا ثباتاً ورسوخاً . فلما دخلوا هذه المحظية الى سجن مار جرجس ذهب الى احدى زوابا الغرفه التي كان مسجونة فيها وجثا على ركبتيه يصلي لله الى ان جاءت هذه الاميرة وطلبت منه بطف ان يقول لها بصوت جهوري ما كان يتم به في حالاته . فالخذ صاحبنا يشرح لها كل ما يختص بال المسيح وصلبه وموته وقيامه فأثر فيها كلامه تأثيراً عميقاً . فلما بدأت تباهي الصباح اقبل رجال الامبراطور لاخذها اليه فلم يكن من الفتاة الا ان أعلنت بصربيح فقط بأنها صارت مسيحية تماماً ولذلك صدر امر الامبراطور باعدامها في الحال فأعدمت (١) وقد يحسن هنا الرد بابسط عبارة على الذين ذهبوا مذهب العلامة رينولدس في القرن السابع عشر الذين اجهروا حيتند في التوفيق بين مار جرجس قاتل التنين وبين مار جرجس الاريوسي . فان مار جرجس الاريوسي لم يمت حتى سنة ٣٦١ ولم تبن كنائس باسمه الا بعد موته بزمن . اما مار جرجس المصري فقد كررت كنائس باسمه قبل ذلك بكثير اي سنة ٣٤٦ ب . م

(١) في واحة برقا وجدت في القرن الثالث عشر كنيسة مار جرجس قيل أنها أضم عظامه . وزعموا ان رأسه موجودة في ليدا ويقول أهل الواحات ان جسده أرسل اليهم بعد استشهاده عدة طوبيلة للاحتفاظ عاليه

كذا قد عمَّ الخلط في مصر الآن بين قديسين ولم يعد أحد يعترض على ذلك حتى يخيف كثيراً أن حدائق عهد الواحدة بالنسبة للثانية وعدم معرفة شخصيتها يمحى ذكر الأخرى . ذلك أن كل غربي سمع عن القديسة كاترينا التي من الأسكندرية بينما قليل من الفرنجية لا يعرفون عنها اسمها فقط وهي العذراء الشهيرة التي تكررها مصر وتحترمها ولذلك تجد صورتها مرئية في كل كنيسة ويندر من لا يعرف تاريخها تفصيلاً بين المسيحيين المصريين . فإذا سلمنا جدلاً أن القديسة كاترينا وجدت في مصر - وهو أمر مشكوك في صحته - فقد يكن أن تكون هي القديسة تاوضوراً بعينها وهي التي استشهدت في الأسكندرية في الزمن الذي يقولون أن القديسة كاترينا استشهدت فيه . ويوجد محل للنظر في أن تاوضوراً كانت تسمى هي كاترينا قبل اعتناقها الديانة المسيحية - وهو اسم مشتق من اسم الآلة هيكلات تم أبدلته باسمها الحالي وقت عمادها . كل هذا ظاهر فقط ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي أن الكنيسة المصرية لا تعرف القديسة كاترينا ولم تسمع عن أنها قط إلى أن جاء الروم الكاثوليك هذه الديار واداعوا خبرها فيها لتوهمهم بأنها مسقط رأسها وكان ذلك بعد الزمن الذي خيل لهم أنها استشهدت فيه بعدة قرون

وقد يحدث كثيراً أنه عند ما ينفذ السياح الأفرنج إلى هذه البلاد يذهبون لمشاهدة الكنائس المصرية ويسألون عن صورة القديسة

كاترينا فيضرع الترجمان أن يشير لهم إلى صورة السيدة ديميانة وهي أشهر عذراء استشهدت والتي لا يدرك القوس شيئاً عنها في راها السياح مرسومة وبيدها سعف التخل تحيط بها الأربعون راهبة من أربابها . (قالت المؤلفة) : وقد اتفق لي من مدة مضت أن زدت أحدي الكنائس الكبرى في القاهرة وسمعت القس يشير إلى صورة السيدة ديميانة كأنها صورة السيدة كاترينا . فلما رأيت منه ذلك ابتدأته بالسؤال قائلاً : كيف تقول هذا القول ؟ أليست هذه صورة السيدة ديميانة ؟ . فاجابني القس بوجه شاحب مقطب : « ماذا عانياً أقول غير هذا ؟ نعم إن جنابك النعيم تعلمون أنها السيدة ديميانة ولكن السائحين لا يردون شيئاً عنها فإذا قلت لهم أنها السيدة ديميانة لا يفهمون ، ن قولي ولا يفهمون وقد يقولون لي أنها السيدة كاترينا وأنا لا أعرف أكترم من هذا ولا يعني مجادلتهم وقد تكون كاترينا كلية انكليزية منهاها ديميانة !!! ولذلك فاني أقول لهم أنها كاترينا وهم راضون بقولي . ومن ذلك الوقت اتضحت لي أن تلك الصورة الموجدة في الكنيسة أئوماً إليها - وهي الكنيسة الوحيدة تكريماً التي يزورها السياح - يقولون عنها أنها التذكرة كاترينا وجدت هذا الاعتقاد شائعاً في الأسكندرية فيما بعد ذلك لأن الروم الكاثوليك بنوا كنيسة في هذه المدينة وكرهوا باسم الكندية كاترينا وشاركون في ذلك الاقباط الكاثوليك وأصبحوا يحجون إليها . قالت المؤلفة : وقد عرفت من زيارة الكنيسة القبطية الوحيدة في الأسكندرية وهي التي أعيد بناؤها

من عهد قريب فوجدت أن السيدة ديميانة قد وسمت فيها بشكل حديث تحيط بها الأربعون راهبة ولكنها ليست ماسكة سعف النخل في يدها بل هي في وسط مجلد مرسومة حولها . فلما رأيت اسم السيدة ديميانة منقوشاً على الصورة - أتهمت لماذا صوروها بمحاطة بمجلد كالقديمة كاترينا فكان جوابي لي « إن جماعة الفرنجية يقولون إنها القديسة كاترينا وقد تكون كاترينا كلاية افرنجية ترجمتها ديميانة فلذلك رسمنا السيدة ديميانة وحولها مجلد كاترين » !!!

وقد نصيّب الفرض إذا نحن أتينا بذكر شيء عن السيدة ديميانة فنقول : إن كلمة ديميانة مأخوذة من مذكرة هذا الاسم « ديمات » وإن هذه الكلمة كانت من ضحايا هذا الانحطاط الذي نحن في ح侃اته وكانت بارعة الجمال نذة الشباب خصت نفسها بالزهد والتنك وهي في الخامسة عشرة من عمرها . وكان أبوها مصرى المواطن تعيين مديرًا لأحدى مديريات مصر وأبنته ديرًا لابنه على مسيرة ساعتين من بلقاس شهلا (غربية) حيث اعتزلت فيه مع راهباتها وصارت رئيسة لهذا الدير رغمًا عن حداهه سنتها . وقد قدر بعضهم عدد الراهبات اللواتي كانن في الدير

(訳) هذا ما سمعته حضرة المؤلفة في مصر والاكاديمية عن السيدة ديميانة ومنه يستدل على أن الحطاء والجهنم يتشابهان بين القوم وبين سريان في عقول هذه الفئة المعلومة أكثر من سريان الحقائق الصحيحة بينهم . وهو عيب واضح يبرئناه الإفراج ويقولون إن المعرفة والعلم بعيدان عنا . بعد ساعتين مadam هذا مقدار علمنا بأحوال قداستينا وشهدائنا المشهورين من سلالة المصريين المسيحيين وارتدوا عن الإيمان في أوقات مختلفة -

لأزلوا يُؤذون الأكرام لاستدمانة كما وصل إليهم من أجدادهم فيقصدون مزارها مع مواطنهم المسيحيين سنوياً ويقدون زرافات ووحداناً إلى ديره الذي يبعد من الجبل الآثار منظراً في مصر

وقد ظلت نار الاضطهاد مستمرة في أنحاء المملكة الرومانية لمدة ثلاث سنوات حيث بلغت منتهى القوة والفظاعة . وأول أمر صدر باشارة الاضطهادات كان في سنة 303 ولم تأت سنة 304 حتى صدر الامر الرابع ذكره بذلك أصدره غاليريوس عندما كان دير كلية أنوس مصادباً بالعته والجنون . وهذا الامر الاخير زاد عن غيره في الصرامة والخشونة ولم يقتصر على فريق معلوم من المسيحيين بل عم جميعهم بغض النظر عن العمر وبدون تمييز بين الرجال والنساء ولم يستثن منه ذو حيبة وصاحب مرتكز رفيع . والذي يريد معرفة درجة ذلك الاضطهاد ومقدار ما قاساه المسيحيون من العذاب عليه بمراجعة الفقرة الآتية التي كتبها يوسيوس أسقف قيصرية وكان قد جاء الاسكندرية عندما خمدت نار الاضطهاد وعندما كان صدي بلايه لا يزال يرزق في آذان الدين شاهدوه وذاقوا مرارة . وما يذكر في هذا الصدد ان رسوم العريان الذي نال الشهادة بعدئذ وستائى حكايته معنا كان اكثرا الحكم غيره في تنفيذ اوامر الامبراطور القاضية بالاضطهاد ولكنها اهتدى واستشهد . ولا يؤخذ من كلام يوسيوس التالي انه كان في مصر عند حدوث هذا الاضطهاد ولكن يحتمل من كلامه الآتي بأنه شاهد الامر بعينه انه يقصد بذلك

ما نظره في فلسطين من استشهاد الكثرين وموتهم لاجل اسم المسيح مما جعله يقيس ما جرى في صعيد مصر به ويستخدم دليلاً على شدة الاضطهاد في هذه الديار وهو له . وهكذا ملخص ما كتبه :

« أنه يسر على الكاتب الماهر أن يصف مقدار ما تجرّه الشهداء في صعيد مصر من عذابات قاسية وآلامات تثبت من ذكرها التواصي فقد كانوا يأتون بهؤلاء الشهداء ويخذلون أجسامهم وينزعون عنها الجلد إلى أن ينكشف اللحم وهكذا يفعلون باقي أجزاء الجسم إلى أن يموتوا أما النساء منهم فكانت تربط أحداثهن في أحدي رجلها وترفع في الهواء بواسطة آلة مخصصة لذلك بعد أن يخلعوا عنها ملابسها ويكتشفوا كل جسمها وتظهر أمام جمورو المترجحين بعذر تفر منها الإنسانية وتأبه النفوس الآية . وكثيرون ماتوا بواسطة الأشجار بالطريقة الآتية وهي انهم كانوا يقرّبون غصين قويين من شجرين متقابلين باللة وضعت لهذا الغرض ثم يجيئون بالشيد ويربطونه بهذين الغصين ومن ثم يتراكما ما يعودا إلى أصلهما فهذا يعدل جهة اليمين مثلاً والآخر للشمال والشهيد بينهما تمزق أضلاعه وتتحقق عظامه سحقاً ويتطاير جسده في الفضاء . ولم يكف لهذه الفظائع أيامًا وشهرًا بل كانت تستمر سنتين طوالاً وهي في افعى حالاته وكثيراً ما كان يصدر حكم يقتل عشرة اشخاص في لحظة واحدة وأحياناً يقتلون عشرين رجالاً مرة واحدة وأحياناً ثلاثة وستين ومرة حكم على مائة رجل

بالملوت فاتوا في يوم واحد مع زوجاتهم وأولادهم الصغار وذلک بعد ان
ذاقوا من العذاب الوانا . قال المكاتب : وقد شاهدت يعني بينما كنت
واقفاً بقرب النطع جماً غيراً من المسيحيين جمعوا لتناولوا الشهادة ولكن
بطرق مختلفة وكان بعضهم تجز رؤوسهم وبعضهم يحرقون في آوت
النار المقددة حتى ان السيف الذي كانت تقطع به الرؤوس ثم وفل حده
وتحطم تحطمها لکثرة ما سحق من الرقاب وكذلك السيافون تبعوا او خارت
قوام من ذبح الادميين فكانوا يستريحون هنيهة ربما يتنفسون الصماء .
فما قدم يتضح ولا شك انا نحن شهود عدول على ما شاهدناه باعيننا
من الغيرة الخارقة والقوة الالهية الصحيحة والفرح في الروح القدس
الذي ملا قلوب هؤلاء الذين يؤمنون باليسوع ابن الله ايانا متيانا جعلهم
يقبلون الموت بتصور مبشرحة وتفور باسمة حتى انه عندما كان يصدر
الحكم على واحد منهم بالاعدام كان الاخرون يندفعون من كل صوب
من دجىءن في المحكمة امام القاضي معتبرين له باهتمم مسيحيون غير مبالين
بما يلحق بهم من عذابات مريرة واضطهادات شديدة بل كانوا يجاهرون
بكل جرأة وشجاعة بدعائهم الحقيقة التي تعلم بوجود الله واحد عظيم
خالق السماه والارض والبحر وكل ما فيها . ومن العجيب الغريب انه
عند ما كان يصدر الحكم النهائي بموتهم كانوا يقابلون هذا الحكم بفرح
وتليل حتى انهم كانوا يرددون ويرتلون اغاني الحمد والشكر لله الذي اهلهم
لان يموتو الا جله وكانوا يطلون يفرجون ويطردون الى آخر نسمة من

حياتهم عند ما تفارق ارواحهم اجسامهم - نعم ان هذا غريب ولكن
العجب من هذا كله ان الافراد الذين اشهروا بعنائهم وروتهم والذين
عرفوا بطيبة معتقدهم وشرف منسبيهم وذاع صيتهم في الافق خصوصا
لأنهم برعوا في الفلسفة والمعلم وبنوا في المعرفة والمرفان - هؤلاء كانوا
محسون كل هذه الاجداد والمزايا من سقط المذاع ويزدرؤن بها ازدراء
في جانب اهمية الدين الحقيقي والایمان الصحيح ربنا وخلصنا يسوع
المسيح .

ولنبدأ الان الى ذكر مشاهير الشهداء الذين استشهدوا على يد
ديوكلياتوس في مصر فنقول ان من اشهرهم مينا او مينا المر وف
هنا باسم «مارمينا» فقد ولد من عائلة عريقة في النسب في مدينة زيميوس
وكان ابوه مدیراً في احدى مديریات مصر امامينا نفسه فكان ضابطاً
في الجيش عدما دعي لانكار الديانة المسيحية فلما رفض قطعت رأسه
وأُدفن جسمه في اقاصي مصر يوط حيث بنيت كنيسة في المكان الذي دفن
فيه اكراماً له ثم هدمت وبنيت مكانها كنيسة اكبر منها في مدة حكم
اركاديوس ويحتمل لها كانت مكاناً يستريح فيه الحجاج والمسافرون
عند مرورهم من الاسكندرية الى وادي النطرون
ولو ان الموت والاضطهاد وقباشدة على الطلاقة المالية من المسيحيين
في مصر الا ان العمال وجماعة القراء معهم لم يعسرم السوء كما من
غيرهم وذلك لأن الحكومة كانت في حاجة اليهم لتشغيلهم في مقالع البرفير

ومناجم الزمرد في مصر التي كان يشغله فيها قبل المحررون ومن ثم سخروا فيما المسيحيين عدة سنين كذبنهم وذنبهم هو ذنبهم . وكان عندما يتدبى الاضطهاد يحكمون على بعض المسيحيين بالاشغال الشاقة مؤبداً خصوصاً عندما كانوا يحتاجونه للالشتغال في اخراج المعادن وبعضهم سما اساقفة الكنيسة كانوا يحكمون عليهم بان يستغلوا طول حياتهم في خدمة اجل الامبراطور واستبدلات خيوله . إلا انه يتحمل ان هؤلاء الاصاقفة اقتدوا انفسهم بشروط معلومة وذلك يظهر من قول يوسيوس عنهم بانهم لم يسوسوا رعيتهم سياسة الجلد والاسقامة ولذلك سقطوا الى حضيض المذلة والهوان لابتعادهم عن الحق والكمال فلو كانوا في الاسر وتحت رق العبودية لما قال عنهم يوسيوس هذا القول ولما كانت لهم ثمة علاقة بالشعب .

الوافر الذين ارتدوا عن اليمان والذين خباؤا انفسهم لكي ينجوا من الموت هؤلا لا يحسبون في عداد الذين ماتوا وفأتوا . وقد مر بذلك برسم العريان كان من أشد الناس مقاومة للديانة المسيحية واضطهاداً للمسيحيين وقد ذكر المؤرخ نبيل الظرف التي اعتنق فيها هذا الرجل الديانة المسيحية ولكنه لم يذكرها حسب اصلها بل جاءت محرفة ولذلك رأينا من الصواب ان نأتي على شرح الحقيقة نثلا عن اقدم المصادر المصرية واقتفاها فنقول :

ذكرنا آنفآنا العريان كان ضابطاً في الجيش المصري . وكان بين رجال فرقته عسكريان اسم أحدهما فيليمون والثاني ابولونيوس وكان أولهما مغنياً والثاني زماراً . وكان هذان العسكريان صديقين جميين بعضهما وكانت رغبتهما في الاستشهاد شديدة جداً وذلك لأنهما اختارا أن ينالا الشهادة حالاً من ان يظللا طويلاً في خدمة عدو لعدة دين ما وهو العريان وقد يتحمل ان يهارهما في فن الموسيقى وما كان لهما من الموهب السامية والصفات الجديدة جعلت العريان ان يغض النظر عن ديانهما فلم يضطهدتها حالاً بل تركهما آمنين . وحدث انه اتضحك لهما العريان يحب فيليمون المغني أكثر من زميله ولذلك اتفق الاثنان على تدبير الحيلة الآتية وهي ان فيليمون اخذ ازاراً ماراً والملابس التي لا يبولونيوس وترى بزيه تماماً ثم دخل على العريان بجرأة غريبة واعترف امامه صراحة بأنه مسيحي . فلما رأاه العريان بهذا الشكل ظنه ابولونيوس بعينيه وخطر

على باله انه من الضروري ان يمثل به تثليلا حتى يكون عبرة لزميله ليتنع من افتقاء اثره وعليه اصدر امره للحال برمهه بالسهام وقتلها وقد كان كذلك . فلما قتل فيليمون مثل ابولونيوس امام العريان كما قتل زميله من قبله فعرف العريان حينئذ بأنه قتل احد الصديقين الذي كان يحبه كثيراً وكان يتمني لو يعيش طويلا فخنق واستشاط غيظا وأمر بقتل ابولونيوس كما قتل رفيقه . فلما جاء رامي السهام لتنفيذ الحكم على ابولونيوس هذا طاش سهم من سهامه فاصاب عين العريان فادمهاه وظل مدة طوبلة وهو يقايس العذاب الايم من هذه الاصابة الى ان شفاه احد المسيحيين وأعاد اليه بصره كالاول . وقد جاء في الرواية التي نحن بصددها ان الدواء الذي استعمله هذا المسيحي لمعالجة عين العريان كان دم هذين العسكريين اللذين استشهدوا ولذلك لم يسع العريان الا ان اعترف بقوة المسيح وصدق الديانة المسيحية وبرهن على صحة ايمانه بأن اطلق سراح جميع الذين كانوا تحت طائلة العذاب والموت في السجون . ولما وصل هذا الخبر الى مسامع ديوكتيانوس ارسل للحال بطلب العريان وعند وصوله امر بموته فاما ما شهدناه

ومع انه يحتمل نعافظ الاسكندرية كان اكثر شفقة وأفل اهتماماً من العريان في تنفيذ الاوامر القاضية بالاضطهاد الا ان الاضطهاد في هذه المدة كان اقسى وأشنع من غيره وقد قيل ان البطريرك بطرس اختبأ في بادىء الامر كافعل بعض سلفاته

وعند ما أصيب ديوكتيانوس بالجنون اوعى ان يتنازل عن الملك وذلك في أول مايو سنة ٣٠٥ ولكن لما عاد صوابه اليه في هذا الشهر نفسه رفض هذا التنازل وسعى ان يقبض بيده على زمام الحكومة بأكملها الا ان خلف الوعد هذا لم يرق في عيني غاليريوس الذي بذل مافي وسعه ليفضطر ديوكتيانوس الى اصدار امر التنازل الذي وعد به الا ان (١) موت قسطنطينوس في سنة ٣٠٦ والاضطرابات التي حدثت في المملكة اشغلت بال غاليريوس عن كل شيء حتى ان نار الاضطهاد خدت في مصر مدة من الزمن . فلما اقترب عيد القيامة لسنة ٣٠٧ اشتغل البطريرك بطرس - زيادة عن شغله في اعداد منشور العيد الذي كان يصدر سنوياً - بتأليف « قانون التوبه » او هي الشروط التي يعفى بها

(١) قال يوحنا البيضاوي - وهو كاتب نشأ بصرى في القرن السابع - انه لما اضاع ديوكتيانوس رشه ففي الى جزيرة تكثر فيها الحراج والغابات اسمها وادوس في الغرب - نيل ، كان في هذه الجزيرة قبة من المسجدين التجأوا اليه فراراً من الاضطهاد ، فلما رأوا الامبراطور في حاله السيئة هذه اظهروا له خواجاً واتفقاً وكانت يقدموه له الحجز يومياً ويقوتونه الى ان يعاد اليه صوابه وحيثئذ كتب الى الجيش ولكلهم أبوا عليه ذلك ورفضوا قوله مرة أخرى فكانت النتيجة ان هذا الامبراطور أصيب بمرض السوداء (الماليخوايا) وظل وقتها يبكي ويستحب الى ان ازداد جنونه ثم أصيب بالعمى وبقي هكذا الى ان انتهى حياءه ومات ولم يكن احد يعترض به سوى جماعة المسيحيين الذين كان حكم عليهم بطرس اختباء في بادىء الامر كافعل بعض سلفاته

يصير قبول الذين سقطوا اثناء الاخطباد الى حضن الكنيسة ثانية .
وقد أثينا عليها هنا بالايحاج تاركين باقي البراهين والشواهد التي اقتنصها
بطرس من الكتب المقدسة ليثبت بها مذهبه في كل بند منها وهالك
الشروط المذكورة - :

(١) جميع الذين زلوا في بدأه الاضطهاد الشدة ما قاسوه من العذاب المرير ثم أظهروا توبة وندامة في أيام الثلاث سنوات الماضية يجوز قبولهم في الكنيسة يوم العيد الآتي وذلك بعد ان يصوموا (١) اربعين يوماً صوماً عنفماً

(٢) جميع الذين عثروا في إيمانهم لداعي سجنهم فقط دون ان

(١) ان صوم الاربعين يوماً هذا لم يكن في ذلك الحين قانونياً في الكنيسة ابداً واضع لاجل الذين يرغبون في التوبة اما الصيام الذي كان دارجاً في الكنيسة الى ذلك العهد فكان او اربعين ساعة فقط . وقد كتب ايرنيوس مكتوبآ في هذا الصدد بعثت به الى فكتور ينذر عليه في سعيه في ادخال هذا الفرض القاسي الثقيل الى الكنيسة قائلاً « ان جدالنا لا يقتصر الان على تحديد يوم الاربعين فقط بل يتعداه الى كيفية الصوم وحدوده . ذلك ان البعض يذهب الى ان يتحرم عليهم صوم يوم واحد وقال غيرهم يومين وآخرين أكثر وبضمهم يحسبون ان اليوم المفروض عليهم انتا هو اربعين ساعة نهاراً وليلة . وهذا الاختلاف الذي تراه بين الكثيرين لم يقع في أيامنا هذه بل نشاء هيمن الدين سبقونا الذين اذا لم يكن عندهم قانون صحيح يسيرون عليه لابدعوا هذا الصوم الذي منشأوه سذاجتهم وعدم اختيارهم وعلى اي حال خلصت انهم كانوا مسلمين للجميع فوجب علينا ايماناً ان تكون على رثام وسلام »

يَعْذِبُوا عَذَابًا شَدِيدًا يَجِبُ أَنْ تَعْطَى لَهُمْ سَنَةٌ كَامِلَةٌ فِيهَا يَظْهَرُونَ التَّوْبَةُ

(٣) كل الذين ارتدوا عن الاعان مجرد الخوف والوهم فقط ولم
المقيقة قبل قبولهم في حضن الكنيسة

يذوقوا عذاباً تعطى لهم أربع سنوات ليبرهنوا فيها على التوبة والندامة

(٤) جميع الذين ارتدوا ولم يعودوا يطلبون التوبة والانضمام الى الكنيسة فلا يوجد قانون لهم بل حري بالكنيسة ان تبكيهم وترثي

لِطَهْرٍ مُّكَفَّلٍ كَلِمَةٌ مُّكَفَّلٌ

(٥) الذين نجوا من العذاب او الموت لظهورهم بالبله او الصراع
او أي حالة أخرى تمنع لهم مرحلة ستة شهور فيها يكفرون عن سيئاتهم

(٦) العيد الذين اجبرهم موالיהם للتقدم للمحاكمة عوضاً عنهم

ثم سقطوا في هذه التجربة ينبغي ان يبرهنو على توبتهم باعمالهم في بحر
سنة

(٧) الموالي الذين فعلوا ما نقدم تفرض عليهم ثلاثة سنين توبيه

(٨) جميع الذين عثروا ثم عادوا فاصلحو خطاهم حالاً بـان قدّموا

انفسم للسجن وللعقابات يجب قبولهم في عضوية الكنيسة بذوق

فُصُّ أو قصاص

(٩) كل الذين قدموا أنفسهم للأخطار طوعاً و اختياراً دون ان

يُنْتَرِّوا لِفَاءَ الْعَبْدِ عَلَيْهِمْ أَوْ يَصْبِرُوا حَتَّىٰ يُرَى مَا يَحْلِّ بِهِمْ وَلَا يَصْحِحُ
عِدَّا كُنْتُمْ وَمِقْاتِتُهُمْ بِلْ يَكْتُفِي بِنَذْكِرِهِمْ بِأَنَّ الْمَسِيحَ وَرَسُولَهُ لَمْ يَعْمَلُوا

هكذا ولم يلقو بالفهم في الملكة . اما الذين سقطوا من هذه الفئة المشار اليها فاذا كانوا من الاكليروس الذين طلبو المغودة الى حضن الكنيسة فلا يجب قيولهم في الوخالق الكنسية ثانية بل يقبلون كاعضاً في الكنيسة فقط .
 (١٠) او ثلاث الذين انكرروا حياتهم واشخاصهم لاجل تشجيع الاخرين ونقوية ايمانهم في اوقات الاضطهاد فهم قد اتوا عمالاً حسنة فلا لوم عليهم ولا ترثب
 (١١) جميع الذين افتقدوا انفسهم بدرهم دفعوها فداء عنهم فلا يلامون فقط

(١٢) لاشيء على الذين نجوا بواسطة هربهم من الموت ولا قصاصهم عليهم .
 (١٣) جميع الذين اجبروا اجياراتكي يذبحوا لا اولادان والذين افتقدهم العذاب شعورهم واحساسهم فاصبحوا لا يدركون يجب اعتبارهم في درجة الذين اعترفوا بالمسح عاماً ماداموا فعلوا ما فعلوه بدون ارادتهم . فاذا كانوا من الاكليروس يعادون الى وظائفهم كما كانوا . انتهى
 وبعد ان انفصلت الكنيسة المصرية عن الكنائس الاروبية صادق مجمع طرسولو سنة ٦٦٢ على هذه القوانين المار ذكرها وقد ظل هذا القانون الذي دعاه الاجانب قانون الكنيسة المطرطوقية معمولاً به في جميع الكنائس الارثوذكسيه في كل العالم التي افتتح آثار كنيسة

مصر ونسجت على منوالها وقد يغلب على القلن انه في أثناء هذه الاضطهاد هذه استفحل أمر الانشقاق الذي كان منشؤه ميلتيوس حتى استلفت امره الانظار واشغل الافكار وقد اختلف المؤرخون في تجديد مدة وقوعه فقدموها واخرها فيه نحو ستين او ثلاث . اما ميلتيوس هذا فكان أسعفاً لمدينة ليكوبوليس (اسيوط) وقد وردت عنه روايتان متفاوتتان - اولاً هارواها اتباعه وصريده و الثانية اوردها اثناسيوس الذي كتب عن هذا الشفاق بعد حدوثه بخمسين سنة . ولا ريب في ان الروايتين المذكورتين تقربان من الحقيقة ولو كانتا مختلفتين

اما اثناسيوس فقال ان ميلتيوس قد نجى نفسه في وقت الاضطهاد بان ذبح للاوئنان فلم يسع البطريرك بطرس الا أن شكل مجلساً بعد ذلك في الاسكندرية فحكم هذا المجلس على ميلتيوس بالادانة والابتعاد عن الوظيفة فوضاناً عن ان يخضع ميلتيوس للحكم انشق من الكنيسة وسار على غير طريقها ولم يكتف برسمة القوس فقط بل تطرف حتى صار يسم اساقفة وكانت النتيجة ازلا الدين من هؤلاء الاساقفة الذين سامهم ميلتيوس صرحو باستقلالهم عن كرسى الاسكندرية وقالوا بعدم وجود علاقه لهم به . وقد اشتبه في هؤلاء الاساقفة بادخالهم الى الكنيسه تعاليم مهدية وفرائض طقية من المهد القديم بطريقة غير محسوبة وقد ظهر في الاسكندرية بعد ذلك صديق وظير ميلتيوس هو آريوس المطرطوق

الشهر واصله من ليبيا كاز قد سامه بطرس شما - في الكنيسة
 أما اتباع ميليتوس وأصدقاؤه فانحروا له عذراً على ما فعله وقالوا ان
 هروب البطريرك بطرس في أبان الاضطهاد وسجن كثيرون من أساقفة
 الوجه البحري اضطره إلى ذمدين الذبائح للإصنام ليرأ بنفسه. أما البراهين
 التي قدمها أنصار ميليتوس والمعارضات القائل بها أصدقائه فتحصر في
 الأوجه الآتية وهي : إن ميليتوس فر من السجن ولم يتحمل عذاباً في
 سبيل الإيمان المسيحي وهو عمل لم يأنه أحد من الأساقفة رصمانه ثم إن
 ميليتوس رسم قوساً وساماً أساقفة لا بروشيات أخرى غير بروشيه
 وقد عمل هذا رغمَ عن الاحتجاج الشديد والاعتراض القوي الذي أرسله
 له أربعة من الأساقفة بينما كانوا في السجن ثم ذافوا كأس الحمام وتلوا
 أكليل الشهادة مع من ناله . وانه بعد موت هؤلاء الأساقفة الأربعة
 سار ميليتوس إلى الإسكندرية واغتصب وظيفة البطريرك الذي كان
 لا يزال غائباً وأخذ يتدخل في أعمال البطريركية ثم انه لم يعبأ بمحاب
 التعنيف الذي أرسله بطرس كما انه عند عودة هذا البطريرك وصدر
 الحكم عليه من المجلس لم يرضخ للحكم بل اظهر زدراء به وتحقيراً . بينما
 تم صار يقاوم البطريرك ويضاده في كل قول وعمل . وبعد هذا كله ذهب
 ميليتوس إلى بلده حيث اعتزل فيها عن كل عمل أما آريوس فساعده
 البطريرك ورده ثانية إلى وظيفته
 ولم تكن هذه المناظرات والمنازعات لتنهي لو لا ان اضطهاد

جديد وضع حدأً لها وجعل الكنيسة تنظر إلى هذه المعيشة الحديدة . أما
 الأمة القبطية فلم تكن حيئاً قد عرفت الذي تم لميليتوس واريوس
 ومر ذكره بذلك
 فهذا الاضطهاد الجديـد بدأ في خريف سنة ٨٠٨ مـ اذ أصدر
 غاليريـوس اـمرـاً صارـماً شـديـداً يـقـضـي باـعـادـه من جـديـدـ وـذـكـرـ باـتفـاـتهـ معـ
 ابنـ اـخـيهـ مـكـسيـمـينـ . وـغـرـبـ في اـمـرـ حـكـامـ الـاقـالـيمـ الـدـينـ بـعـدـ انـ كـانـواـ
 في الـاضـطـهـادـاتـ السـالـفـةـ يـكـنـفـونـ بـتـعـذـيبـ الـمـسـيـحـيـ باـتـلـافـ اـحـدـ عـيـنـهـ مـثـلاـ
 اوـ بـوـضـهـ تـحـتـ رـقـ الـعـبـودـيـةـ وـالـذـلـ اـذـ يـشـتـغلـ فيـ المـنـاجـمـ الـمـصـرـيـةـ كـاسـيرـ
 - تـجاـوزـ هـؤـلـاءـ الـحـكـامـ الـخـدـيـعـيـهـ فيـ هـذـهـ الـمـارـةـ وـجـرـيـ دـمـ الـفـيـرـهـ وـالـحـسـدـ فيـ
 عـرـوـقـهـمـ منـ فـعـلـ الـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـهـ وـزـادـ حـنـقـهمـ كـثـيرـاـ ضـدـ الـسـيـحـيـنـ الـدـينـ
 كـانـواـ يـابـونـ انـكـارـ دـيـنـهـمـ وـالـاعـتـرـافـ بـغـيرـهـ . فـعـظـمـ الـخـوفـ وـالـرـعـبـ مـنـ
 جـراءـ هـذـاـ الـاضـطـهـادـ وـمـصـابـهـ وـعـمـ الـقـلـقـ وـالـاضـطـرـابـ وـاستـولـياـ عـلـىـ
 مـصـرـ مـدـةـ سـتـيـنـ كـامـلـيـنـ فـكـانـتـ تـشـبـهـ فـرـانـسـاـعـنـدـ ثـورـهاـ الـمـظـيـعـةـ الـتـيـ
 حدـثـتـ سـنـةـ ١٧٨٩ـ الـتـيـ دـكـتـ بـهـ مـعـالـمـ الـاسـتـبـادـ وـمحـتـ آـمـارـ الـظـلـمـ
 وـلـكـنـ بـعـدـ انـ جـرـتـ الدـمـاءـ انـهـرـاـ . وـلـنـاـ فيـ حـاجـةـ الـآنـ لـوـصـفـ طـوـيلـ
 لـتـلـكـ الـخـاـوفـ وـالـشـدـائـدـ بلـ يـكـنـيـ انـ نـقـولـ انـهـ قـاـفتـ كـلـ الـبـلـاـيـاـ الـتـيـ سـبـقـهاـ
 وـقـرـأتـ وـصـفـهاـ فـيـ مـرـاـنـ وـانـ الـذـيـ زـادـ النـارـ اـشـتـهـالـاـ وـالـدـاءـ اـسـتـهـالـاـ هوـ
 مـكـسيـمـينـ دـاـزاـ ذـلـكـ الشـكـسـ الشـرـسـ وـالـفـظـ الـمـتوـحـشـ الـذـيـ اـضـرـ بـعـرـ
 كـثـيرـاـ كـاـ انـ مـكـسيـنـتـيـوسـ اـبـنـ الـامـبرـاطـورـ مـكـسيـمـيـانـ اـشـعـلـ مـيـلـ هـذـهـ

النيراف في أوروبا وافق فيها اضطهاداً يوم

وحدث في سنة ٣٦١ أن الله ابلى غاليريوس بعرض عذاب عز وعمر شفاؤه . فلما ازداد به الألم ولم يجد طبيعاً يريحه من عذابه أو مما يشفيه من أوصابه وينقذه مما أصابه سعى الياس القانط في إيجاد سلام وصلح بينه وبين الله المسيحيين الذي صرف غاليريوس لهذا كل ما في وسعه وقضى العمر في مقاومته ومحاربته واضطهاد شعبه فاصدر أمراً يقضي بعقد هدنة مع المسيحيين وكف الاضطهاد عنهم للسب المار ذكره وقد ورد نص هذا الأمر في تاريخ بوسيبوس وهو مطول مسبب إلا أن خصم غاليريوس وتوبيه التي جاءت مدوانها لم تفده شيئاً لأن الله لا تجوز عليه الحيل ولا يخني عليه الفش والخداع . فان خبر ارتداد غاليريوس إلى الديانة المسيحية عرفه الناس في آخر يوم من شهر ابريل سنة ٣٦١ وفي اول آخر شهر مايو ذاع خبر موته في جميع أنحاء الملك ولا بد ان يكون مات قبل اذاعة الخبر في الملك ب ايام كا هو معلوم فتكون توبه غاليريوس وندامته جاءت وهو على حافة القبر فلم تفعه شيئاً فلنا ان غاليريوس اصدر أمراً يقضي باتفاق الاضطهاد وقد ذيل هذا الأمر بامضاء قسطنطين وليسينيوس الثاني عنه ولكن لم يفع ولم يوقف سير الاضطهاد فان مكسيميان دازا ابن أخيه لم يكف عن بغيه وعناده بل بقي يحمي وطيس الاضطهاد حتى ان اهم شهداء مصر وكثيرين من اماجدهم نالوا الشهادة في آخر سنة من سنه وكانت في

مقدمة هؤلا، الشهداء البطريرك نفسه الذي قطعت رأسه بغاوة وعلى غرة من شعبه خوفاً من ان يقوم هذا الشعب الذي كان يحب البطريرك جياً مفرطاً ويعلم على خلاصه من يد الحكومة بالقوة والقسر . وما بذلك على تفاقم الخطب في هذا الاضطهاد ان انطونيوس اب الرهينة شعر به وحس بشق وطأته بينما كان منكمشاً في ديره في الصعيد مدة عشرين عاماً او تزيد تخرج من مكمنه كأنه من أهل الكهف المزعومين وسار بحث الخلقى الى الاسكندرية لكي يعزى الشعب الذي حزت واكتتاب لموت البطريرك وقيل بل ان غرضه كان ان يتألم الشهادة في الاسكندرية ما دام لم ينلها في الصعيد حيث كان بعيداً عن الاضطهاد في ديره الا ان هذه الامنية لم تتحقق له ولم يستشهد لا يقاف حركة او اضطهاد وذلك لأن قسطنطين وليسينيوس كانوا قد ظاهرا بالعدوان ضد مكسيميان الخامن عدیم الشهرة فتحولت انظار هذا من اضطهاد الآخرين الى الدفاع عن نفسه ولكن خانه حظه فحزم في سنة ٣٦٢ شر هزيمة امام عدوه وبعد ان قضى بضعة أيام في حالة النوبة شرب كأس الجام يان تجرع شيئاً من السم الزعاف فالي هنا انتهت مدة العشر سنين التي كانت ملائى بمصاب وبلاء لم تذق مثلها كنيسة مسيحية في العالم . صحيح ان كل امة مسيحية في الارض يمكنها ان تردد لك حكايات مؤلمة عن اضطهاد وقع عليها قد يكون قاسياً صارماً مثل هذا الاضطهاد الذي وصفناه لك في ما سبق

وصحح ايضاً ان بعد هذه الحوادث بنحو اثني عشر قرنا قام ملك مسيحي (هو فيليب الثاني ملك اسبانيا) وحكم على جمع سكان مملكة أخرى مسيحية (هولاندا) بالموت لاجل دينهم ولم يستثن رجالاً او امرأة صغيراً أو كبيراً حتى انه انفذ حيناً لتنفيذ حكمه هذا - نعم كل هذا حدث وصحح ولكن منذ ما ظهرت الديانة المسيحية في عالم الوجود لم تر عين ولم تسمع اذن باضطهاد شنيع فظيع مثل ذلك الاضطهاد الذي وصفناه لك وهو الاضطهاد الذي من وقته واليسوعيون المقربون يورخون تاريخهم الخاص به وهم يذكرونه الان واللقب معهم بـ موامل الاسف والتفيجع على تلك الازمة القاسية . وهذا التاريخ هو تاريخ الشهداء (١)المعروف عند القاصي والداني

الفصل الثالث عشر

جدال اريوس سنة ٣٢٣ للمسيح و٢٨٠ للشهداء

بعد موت مكسيمين بستين وبعد استشهاد البطريرك بطرس بستة تقرباً شرع المقربون في انتخاب بطريرك جديد لهم فوق اختيارهم على أخيلاس الذي كان قبله رئيساً للمدرسة اللاهوتية . أما انطونيوس الذي قلنا انه جاء الاسكندرية لبيان الشهادة كفирه ولم يتمكن من نوالها فقد برح الاسكندرية في هذا الوقت ولكنه لم يذهب توا

(١) ان تاريخ الشهداء او هو التاريخ القبطي - لا يتدنى من سنة ٣٠٣ كما يزعم البعض بل من سنة ٤٨٤ م وهي اول سنة من ملك ديوكتيانوس

الى الصعيد حينما كان قبلاً سار الى الانحاء الجبلية الواقعة بين البحر الاحمر والنيل حيث بني بعد موته ديراً مار انطونيوس وماربولص ولايزالاً موجودين الى الان في المكان المشار اليه . ولما حط انطونيوس رحاله في هذه البقعة غرس يده زرعاً في الاراضي البراح الواقعة هناك لكي يقتات منها وكان يشتغل في عمل الحصر وذلك ليكتفي تلامذته وأتباعه مؤونة احضار الطعام له وهم على مسافة بعيدة منه . ويظهر ان العناية زاد عليه بعدئذ وكثرت اشغاله كثيراً لانه فضلاً عن تعليمه التلاميذ الذين التفوا حوله في مدة قصيرة فإنه لم يدع فرصة تمر دون أن يفيد أهالي الريف ويتحفهم بما آثره كل آونة وأخرى مع عدم وجود رابطة متنية بينه وبينهم وقد كان يبعث برسائل ارشاد ونصح الى الامبراطرة والولاة لعلمه انهم في حاجة شديدة الى نصائحه . ومع انه لم يكن لديه كتب او اسفار كما أنه لم يكن عارفاً بلغة غير لغته كما صر القول ولكنه كان رجلاً يفكر كثيراً ويعلم تعليمًا حسانًا شأن أهل الفيرة الذين يعرفون انهم خاقوا ليفيدوا العالم وينفعوا بني جنسهم . أما تاريخ حياة انطونيوس الذي كتبه انطونيوس فقد دخلت عليه زيادات واضافات كثيرة قلبت معناه حتى ظن البعض ان انطونيوس براء منه وانه لم يكتب كلية واحدة فيه . وقد ظهر كثيرون في هذا القرن التاسع عشر من المتقدين المدققين الذين زعم بعضهم ان انطونيوس لم يكن له في عالم الوجود وجود وان حياته محض خرافه لا أصل لها وقد تعمق بعض

الباحثين وقال ان ما كتب عنه إنما هو رواية تاريخية خلق الرواى
مار انطونيوس بطلًا لها وليس هي ترجمة حال شخص حقيقي . ولكن
المنصف الذي ينظر الى الحفائق بفكرو ثاقب ويطرح ظهريًّا ما علق بذلك
هذا الرجل العظيم من الحرفات والحكايات الغربية التي تقترب عادة
بتواتريخ نوعي العالم — ان الذي يفتقر هكذا لا يوجد ندحة لافكار هذا
الرجل او عدم الاقرار باعماله العظيمة التي أثارها في حياته
أما اخيلاس الذي قتله انتخب بطريركا في الاسكندرية فلم يستمر
منقبه سوى سنة واحدة حدثت في اثناءها حادثة تستحق الذكر هي
قوله آديوس المهر طوقي الذي كان قد حرمه بطرس سلفه مرة ثانية
وظل تحت طائلة هذا الحكم الى ان توفي بطرس فرده اخيلاس الى
عضو الكنيسة بناء على طلبه وزادات عمده عليه دعوية كنيسة بوكاليس
وهي أقدم كنيسة في الاسكندرية قيل أنها بنيت على مقبرة مار مرقس .
ولما توفي اخيلاس دشح آديوس نفسه لمركز البطريركية ولكن
الاكليلوس والشعب اتفقا معا على انتخاب اسكندر صديق اخيلاس
وكان اسكندر هذا قد بلغ من الكبر عتيًا عند ماسم بطريركا وكان
اثنasioس تلميذه المحبوب في الرابعة عشرة من عمره . أما الحكاية التي
اوردها روبيروس المؤرخ عن كيفية تعلق اسكندر باثنasioس وسبب
ميله له فلا يمكن تصدقها على علاتها الا انه يقرب من العقل ان
حادثاً حدث قبل ارتقاء اسكندر اوجد علاقة بينه وبين صديقه

اثنasioس نلخصه لك فيما يلي :
قيل ان اسكندر كان مرة يتذكر مجيء بعض رجال الاكليلوس
لتناول الطعام وكان جالساً في شرفة نطل على البحر الذي كان يجري
تحت منزله وهو يتفرج على جماعة من الغلمان يسبون هناك . وقد
احدق بنظره فيهم طويلاً فانقض له انهم في لمبهم يعارضون الطقوس
الكنائسية على اتم اشكالها . وقد ظن انهم ربما يطبلون لمبهم ولا
ينتهون منها حالاً ولذلك استدعهم من على الشاطئ ، فتلوا بين يديه
بحضور جماعة الاكليلوس الذين كانوا قد جاؤا في هذه الاشلاء . فلما
استقصى البطريرك حقيقة أمرهم زاد استغرابه كثيراً عند ما ظهر له انهم
أتوا عملاً فوق ما كان يخمن ذلك لأن واحداً من هؤلاء الصبية اسمه
اثنasioس عمد بعض الاولاد رفقاء الدين لم يسبق لهم عماد حسب
الطريقة القانونية المستعملة في الكنيسة . وبعد ان تناقض القوس مع
بعضهم في أمر هذا العياد قرر رأيهم اخيراً على الاعتراف بصحته ثم صموا
على ترشيح اثنasioس واحد أو اثنين من الصبيان الذين ساعدوه في
اتمام هذه الفريضة لرتبة الكهنوت
وسواء صدقت هذه القصة أو لم تصدق فلا مشاحة في ان
اثنasioس كان منذ ذومته اظفاره صديقاً لاسكندر وأنه تعيين سكريتيراً
له عند ماسار بطريركا . ولم يمض على ارتقاء اسكندر السدة البطريركية
خمس سنين حتى عم السلام كل الكنيسة في ارض مصر برمته بعد هاتيك

البلايا والمعاصي التي افتخمتها. أما ميليتوس أسقف أسيوط فقد يتدل من الحوادث التالية انه ظل مدة في شفاعة وعناده ولكن لما كانت أسيوط في ذلك الحين بعيدة عن الإسكندرية بسفر أيام كثيرة فكان يخال للناس انه ساكن في إبروبيته لا يعمل شيئاً يدل على الشفاعة . وقد عاد الناس إلى منازلهم بعد الفرار وأخذ الشعب يهتم في ترميم الكنائس المنهمة مع انه لم تكن توجد عائلة واحدة في مصر إلا وكانت ندب عزيزاً أو قريباً لها ذهب فرصة الاضطهاد فتكلمت القلوب لفقدة وكثيرون كانوا يعذون في عدد الاموات اما لأن ظامنهم سحقت لكثرة ما قاسوه من الامات الاضطهاد فاصبحوا كالعدم أو لأن عيونهم فقئت تعذيباً لهم ولكن الديانة المسيحية امتدت اغصانها كثيراً في البلاد زيادة عن ذي قبل حتى ان عدداً يذكر من الوثنين دخلوا الى حظيرة المسيح لما شاهدوه في الديانة المسيحية من الحق الذي لا ينفع والقوه الروحية التي لا تغلب . ومع كل هذا التقدم كان الشفاعة قد بدأ يستفحى حتى صار صفة ملزمة للمصريين على توالي الايام واصبح تعريفاً لهم دون غيرهم الى الان وما سبب هذا الا لأن الدم النقي الذي كان يجري في عروق الامة اهرق وكاد ان يستتصل وذلك عند ما قامت تطلب الاستقلال في مدة حكم اخيلوس وعند ما كانت تجاهد لحفظ كيان الديانة المسيحية أثناء المئتين الاخيرتين قام اعداؤها يطابون اضمحلالها ولذلك لم يبق من المصريين الاحرار الا النذر البسيط لأن الدين عاشوا

بعد تلك الحزن والاحزان وعمروا البلاد انا نجت امن الموت بالذكر والخداع او بالجلد والخوف وهي صفات تلك على حقيقة هذا الشعب ولم يعش من الكرام سوى جماعة ثوشت اجسامهم ظلوا مطروحين بين اهليهم لا منفعة منهم او فرق من العمال الذين استعبدوا ليشتغلوا في الناجم الفاسدية وقد كانوا يمليون للحصول على مغفرة من الكنيسة لاجل هفوة تصور البعض انهم ارتكبواها ضد الدين الذي بذلو الاجله دماءهم ولكنهم قضوا حياتهم يقاومون من الاسر والذل - أما الشفاعة الذي اشرنا اليه فقد مضت عليه عشر سنوات اخرى قبل انتصاف اقطال المسلمين ان يتداخل لحسمه وفض الخلاف الذي كان قائماً بين اساقفة الكنائس بعد ان اشتدت بينهم الشحناء والبغضاء وذلك لأن هذا الامبراطور لم يكن قد صار مسيحيّاً بعد ولم يكن قد تعمد لانه كان سادس الستة امبراطورة الذين اقسموا الملكة بينهم بعد تنازل ديوكتيليانوس عن سرير الملك اما الحوادث التي أوجبت انعقاد مجمع يقية وما تأمّل في هذا المجمع فمروفة عند الكثيرين اذ اتى على ذكرها جماعة من علماء الالاهوت وشرحوها بالاسباب فلا حاجة لسردها الان . ولم تأت سنة ٣٩٣ حتى زاد تدمير الاسكندريين وكثير لقطعهم ضد البدعة التي كان آريوس يسعى في نشرها وتعليمها الآخرين مما دعى البطريرك اسكندر ان يهتم لأخذ الاحتياط اللازم لصدّها . وكان لما شعر بهذا البطريرك بتفاقم الشفاعة واتساع حلقة الخلاف في الكنيسة صرف كل عنائه بغایة

ما يكون من الصبر والحكمة لينتمي إلى تلك الجماعة التي انشئت
ويعمل على افقاءها بخطائها وضمهما إلى الكنيسة وذلك بعد ان ينزع من
العقل ما علق بها من الاوهام والاضلال كما فعل البطريرك ديونيسيوس
قبله في مسألة الفيوم فعقد اجتماعين حافلين للمناقشة في هذا الموضوع
وفض الخلاف بالحسنى ولكن لم يفلح ولم يأت عمله ثمرة وأخيراً كتب
البطريرك رسالة رعوية الى آريوس وتباعه يندرهم بترك طريق الضلال
التي ساروا فيها والرجوع الى الطريق السوى ولكن عثياً حاول إقناعهم
ولا بد ان بعض الباحثين يعرفون ان نقطة الخلاف هذه كانت فيما
يختص بالوهية المسيح وهي مسألة لم يسبق لها مثيل في الجدل واللدد
وما تكن الكنيسة تعرفها ولا تهتم بها قبل الآن حتى أنها اشغلت
الادهان واووجدت احزاناً انحصاراً إليها الكثيرون وبينهم أولئك الذين
كانوا يجنحون إلى السلام ويميلون إلى الابتعاد عن كل شقاق وخصام .
والذى درس بدعة آريوس هذه درساً مدققاً ووقف على كنهها لا يجزم
بان هذا الرجل انكر الوهية المسيح انكاراً حقيقياً صريحاً ولو انه كان
يحاول كثيراً في أزمنة مختلفة ان يدخل معتقده في العقول بكلمات
وعبارات كان يمكن ان تصادف قبولاً عند اعضاء الكنيسة . اذا
فالذنب ليس على آريوس بل على فئات اخرى سبقته في ايجاد هذه
البدع فأخذ هو عنها ولكن تأثير تلك الثنات لم يكن شديداً كما كان
تأثير آريوس الذي جعل الكثيرين ينكرون سر الالوهية حتى انتشر

هذا التعليم وعمّا ولعل سبب هذا هو رد الفعل الناجم من شدة تمكّن
القوم بالامور الروحية واحتفاظهم على معانيها وقوتها احتفاظاً لم يدعهم
يسقطون في أزمنة الاضطهادات المرارة بل كانوا يضخون انفسهم لاجل
هذا المعتقد الذي أصبحوا الآن يرفضونه لا لسبب سوء اثبات قاعدة
الافراط والتزييف
وكانت نتيجة لهذا كله ان البطريرك اسكندر شكل بمحاماً في سنة
٣٢٠ حكم فيه على آريوس بالحرمان من عضوية الكنيسة وهو ثالث
حكم صدر ضده في حياته . اما آريوس فلم يرضخ لهذا الحكم ولم يعأبه
ليل خادر الا-اسكندرية فاصدأ فلسطين خيمها جمع إليه اصدقاؤه ففهم
تأثيراً شديداً اذا تم لهم اليه بكلتهم حتى ان يوساب اتفق نيكوميديا
الذى كان زفيراً لآريوس في المدرسة اعتنق مذهب زميله كما هو ومن
ثم سعى بعد ذلك في اسمالة الامبراطور قسطنطين إلى هذا المذهب
وقد كان الامبراطور المذكور صديقاً ليوساب يميل إليه كثيراً
ولما ترس آريوس غرسه هذا في يوساب اتفق نيكوميديا آب
الي فلسطين حيث سمح له يوسيوس اتفق قيصرية وآفاقه آخرون
بان يعقد جمعيات دينية في ابروشيات مختلفة ليعظ فيها . فلما احسن
البطريرك اسكندر بذلك ساءه كثيراً فسعي في اتخاذ طريقة فعالة
لا يقاومه عند حدّه ومنع سريان بدعته وهرطقته وعليه كتب رسالة
انجليية محضة الى اساقفة كل الكنائس اوضح فيها الباب التي حلّت

على حرماني آريوس وقطعه من عضوية الكنيسة وكيف انه يأبى قبوله مرة أخرى في حضن الكنيسة مادام هو لا يزال يتعادى في غيه وضلاله . ولم تستمر هذه المعاشرة طويلاً لأن اذهان المتأذرين كانت قد انصرفت إلى رعب جديد وأضطهد حديث بدأ حالاً بواسطة ليسينوس النائب الامبراطوري الذي امات دوناتوس اسقف ثميوس في مصر مع اثنين من قسوته كأن فيلاس سلف دوناتوس كان قد استشهد قبل هذا الوقت ببعض سنوات . فلسبب هذا الاضطهاد الجديد ولاسباب أخرى حل قسطنطين على ليسينوس حلة مرارة وعزم في واقعتين عظيمتين حدثتا في يونيو وسبتمبر سنة ٣٢٣ وحيثذ خلا الجو لقسطنطين فنادى بأنه أصبح الملك الوحيد لامسكونة كلها وجعل مقر مملكته بيزانطيوم (وهي اسطنبول او القسطنطينية) وفي هذا الوقت رفع إليه يوساب اسقف نيكوميديا مسألة آريوس فاغتنم هذا الامبراطور فرصة في وسط مشاعله الكثيرة بتدبير مهم الملك كتب فيها مكتوبًا أرسله إلى البطريرك اسكندر وآريوس معاً وهذا المكتوب اشتهر بما تضمنه من قول سادة الحجۃ المسيحیة الحقيقة ولحمة الاخلاق والولا ، ولكن رغمًا عما حواه هذا الخطاب من اللهجة المتبدلة والكلام المؤثر فان الامبراطور لم يفلح قط في إيقاف هذا الشفاق عند حده لعدم معرفته حقيقة أمره . وكان الامبراطور قد أرسل رجلاً اسمه هوسيوس

٢٠٥

من كردوفا يحمل ذلك الجواب إلى اسكندر فلما آت هذا الرسول من مصر قص على مولاه حقيقة الخبر وأوقفه على جالية هذه المضلة وعليه أصدر قسطنطين أوامرها باجتماع جميع الاساقفة في نيقية ليفحصوا هذا المشكل وبيتوا فيه حكماً قاطعاً بكل تبصر وامعان . وبناه على ذلك النام هذا المجمع الشهير سنة ٣٢٥ وفيه كتب أول نسخة من قانون الاعياد النقاوى (١) اعضاءها جمع الاساقفة الحاضرين الاختمة منهم رفضوا التوقيع عليها . وقد ختم هذا القانون بالحرمان الآتي الذي يدرنا أنه امتحى من زمن طويل : - « ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زون لم يكن ابن الله موجوداً فيه وأنه لم يوجد قبل انت يولد وأنه وجد من لاشيء او من يقول ان الابن وجد من مادة او جوهر غير جوهر الله الآب وكل من يؤمن أنه خلق أو من يقول أنه قابل للتغير ويمتريه ظل دوران »

وعلى ذلك حرم المجمع آريوس حرماً باتفاقه وأصدر قراراً بنفيه ونفي الاساقفة الذين ابوا التوقيع على هذا القانون . ثم أخذ هؤلاء الاساقفة يبحثون في أمر الشفاق الذي أحدهم ميليتيوس وفي مسألة تحديد يوم عيد القيامة فقررت عليهم على ما يأتي في النبذة التالية التي بعث بها المجمع إلى المقربين وهكذا هي :

« إنما إذا رأيناها الحقيقة نجد أن ميليتيوس لا يستحق أكراماً أو صفاتـاً

(١) إن القانون الذي صادق عليه الجميع البيقاوى ينتهي بهذه العبارات « تؤمن بالروح القدس » أما العبارات الأخرى التي تليو هذه الجملة فقد أضيف إليها في زمن بعد هذا

على ما اقترفه من أمر الشفاق الذي احدثه الا ان الشفقة والحنان يحيطان علينا أن نعامله بالرأفة والاطف ولذلك أذن له الجميع بالاقامة في بلدته مسقط رأسه وأمره ان لا يعارض أى وظيفة كهنوية سواء كانت رسامة أحد او ترشيح أحد للرسامة ويحتم عليه عدم الظهور في أى افلام او مدينة بهذا المظاهر ولا ان يدعى شيئاً حرمه عليه الجميع بل تبقى له صفتة الشخصية فقط . اما الذين عينهم هو في وظائف ، تثبتوا فيها بواسطة رسامة قانونية فيجب قبولهم في عضوية الكنيسة بالشروط الآتية وهي : ان تبقى لهم وظائفهم ورتبهم ولكل منهم يعتد بمن اقل درجة في كل شيء من الاخرين الذين عينهم رئيسنا لمحترم البطريرك اسكندر واقتصرتهم الكنائس الأخرى . كما لاسلطنة لهم على تعين أو ترشيح من يشاون ولا ان يعلوا عملاً ما بدون تصديق أحد أئفة الكنيسة الجامدة الذين يعذبون من أنصار اسكندر وماعديه . وعند موته أحد هؤلاء القسوس الذين سامهم ميلتيوس سابقاً يعني تمرين واحد بدلهم من الذين تنطبق حالتهم على النظائرات الحديثة على شرط ان يكون ذا أهلية واستحقاق فيختاره الشعب ويصدق انتخابه . فهذا الامتياز يمتع الجميع الاساقفة على السواء الاميلتيوس فلا يعطى هذه السلطة نظراً لسلوكه السابق المغير للصواب والتعقل بل مجرد من كل سلطة وسلطة لا جل طباسته وخيانه ولأنه رجل لا يجد عليه ان يحدث شفاقاً جديداً مثل الذي آتاه قبله . وهذه المسائل هم مصر وكنيستها الرقيقة الشائكة على

الخصوص وعليه فإذا سن قانون آخر غير هذا أو حدث رسامه كاهن ليست قانونية فيكون لفبطة الخبر المفضال البطريرك اسكندر حق التداخل في هذا الامر وان يفحصه خصاً دقيقاً ويتحكم فيه لانه ليس بصاحب صوت فقط في الذي يحدث ولكن له لرثاء العليا والسلطة النامية في تنفيذ أي عمل يريد . ولقد يسرنا أيضاً في هذا المقام ان نخبركم بما قر عليه الرأي في مسألة تحديد يوم عيد القيامة المبارك فان هذه المسألة انتهت بمساعدة صلواتكم وأصبح جميع الاخوة المسيحيين في الشرق الذين كانوا يعيدون هذا العيد مع اليهود تماماً يسيرون من الآباء فصاعداً على الطريقة التي تسير فيها الكنيسة الرومانية وهي التي نجحنا نحن أيضاً ومن جرى مجراناً من قدم الزمان (١) . وقد يظن البعض ان شفاعة آريوس قد انتهت عند هذا الحد والحقيقة انه بدأ يستفحـل الان

وحدث ان البطريرك اسكندر تأيـج بعد عودته من نيقية الى مصر باشهر تلـائل وخلفه انسايوس الشاب التي المعلومـة غيرـة ونـمة وكان آريوس يـده خصـماً لـودـأـله ولـذـكـاستـحـكـمـتـ عـوـافـلـ الشـحـنـاءـ بينـمـاـمـدةـ عشرـسـنـواتـ متـواـلـيةـ بـسـبـبـ بـدـعـةـ آـرـيـوسـ وبـعـدـ وـفـةـ هـذـاـ صـارـ العـدـاءـ

(١) قد سمي بعض اعضاً المجتمع النيقاوـيـ بـانـ يـفـرـنـواـ الرـهـبةـ عـلـىـ كـلـ الـاـكـيـرـوسـ وـلـكـنـ طـلـبـهـ هـدـاـسـافـ استـخـفـافـاـ وـلـمـ يـحـزـ القـبـولـ مـطـلـقاـ حتـىـ انـ بـاـنـوـتـيـوسـ الرـاهـبـ وـهـوـ اـسـفـتـ مـعـرـىـ دـاعـ دـفـاعـاـ مـفـحـماـ مـنـهـ هـذـاـ الـاقـتـارـ وـاقـامـ المـجـعـ القـوـيـ عـلـىـ كـلـ مـنـ يـعـملـ للـتـدـاخـلـ فـيـ مـسـحـيـةـ الـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـةـ خـصـوصـاـ فـيـماـ يـتـعـقـ بـالـزـوـاجـ وـالـرـهـبةـ

شديداً للسبب عينه بين الامبراطور وهذا البطريرك الاسكندرى
كما سترى (١)

الفصل الرابع عشر

البدعة والانشقاق . سنة ٣٢٦ لاسبوع و٢٢ لـ الميلاد

لـ رأى الامبراطور قسطنطين ان السلام قد مـد روافقه على
الكنيسة والملـكة صرف هـمه الى اصلاح الشرائع الرومانية وبناء عاصمة
جديدة له . وحيث ان اصلاح هذه الشرائع لم يكن له تأثير في مصر
 فهو لا يهمـنا ولا حاجة بـنا لـ الكلام عنه اما نقل عاصمة الملـكة الى
يـزانـتـيـوـم (القـسـطـنـطـيـنـيـة) فقد احدث تـغيـراً في حالة الـاـمـةـ المـصـرـيـةـ
وقد سـبقـ القـولـ انـ المـصـرـيـنـ كانواـ دـائـيـاـ يـخـفـرـونـ السـلـطـةـ الرـوـمـانـيـةـ
ويـنـفـرـونـ مـنـهـ كـمـاـ كـانـهـ كـانـواـ يـهـاؤـنـ بالـجـنـسـ الـلـاتـيـنيـ وـيـعـدـونـ شـعـبـاـ
جاـهـلاـ وـثـيـ الاـصـلـ غـيـارـاـ وـلـكـنـ المـصـرـيـنـ كانواـ يـرـضـخـونـ لـهـؤـلـاءـ
وـاـوـلـكـ لـسـبـ القـوـةـ السـعـكـرـيـةـ المـتـحـكـمـةـ فـيـهـمـ .ـ وـالـذـيـ زـادـ كـرـهـ المـصـرـيـنـ

للـروـمـانـيـنـ حتـىـ صـارـ هـذـاـ الـكـرـهـ ضـرـباـ منـ الجـنـونـ (١)ـ هوـ اـعـمالـ بعضـ
الـامـبـرـاطـورـ الـتـيـ كـانـتـ وـحـشـيـةـ تـفـرـ مـنـهـ النـفـسـ وـتـسـحلـ الموـتـ عنـ
الـبـقـاءـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الذـلـ وـهـذـاـ مـاـ حـدـىـ بـالـمـصـرـيـنـ إـلـىـ التـزـوـعـ لـلـثـورـاتـ
وـطـلـبـ اـخـرـيـةـ وـالـاـنـقـلـالـ فـيـ مـدـدـةـ حـكـمـ دـيـوكـاتـيـاـنـوـسـ اـمـاـ قـسـطـنـطـيـنـ
فـعـ اـنـهـ كـانـ مـنـ عـاـئـلـةـ مـلـوـكـيـةـ اـلـاـ اـنـهـ لـمـ يـكـنـ رـوـمـانـيـاـ وـلـاـ مـيـالـاـ رـوـمـيـةـ
بـلـ كـانـ مـنـ بـلـادـ السـرـبـ الـتـيـ هـيـ مـسـقطـ رـأـهـ .ـ اـمـاـ اـمـيـالـهـ فـكـانـتـ
يـونـانـيـةـ صـرـفـةـ يـدـدـلـكـ ذـلـكـ اـلـىـ اـنـ المـدـيـنـيـنـ الـوـاقـعـتـيـنـ عـلـىـ جـانـبـ قـنـطـرـةـ
هـلـاسـ وـهـاـ يـزـانـتـيـوـمـ وـخـلـكـدـوـنـيـةـ كـانـتـ قـبـلاـ مـأـهـوـلـيـنـ بـالـيـونـانـ .ـ
وـلـاـ عـزـمـ قـسـطـنـطـيـنـ عـلـىـ بـنـاءـ مـدـيـنـةـ جـدـيـدـةـ اـخـتـارـ المـكـانـ الـذـيـ اـعـمـهـ
«ـ يـزـانـتـيـوـمـ »ـ قـاعـدـةـ لـهـ فـعـنـدـ مـاـ تـمـ بـنـاؤـهـ اـحـتـفـلـ بـتـدـشـيـنـ اـحـتـفـالـاـ باـعـرـاـ
وـذـلـكـ فـيـ ١١ـ ماـيـوـ سـنةـ ٣٣٠ـ مـ نـمـ اـمـرـ اـمـرـاـ جـائـراـ هـوـ اـنـ جـمـيعـ الـذـينـ
يـقـصـدـوـنـ اـسـتـيـطـانـ هـذـهـ الـعـاصـمـةـ جـدـيـدـةـ يـجـبـ اـنـ يـكـونـوـنـ مـنـ اـصـلـ
يـونـانـيـ اوـ مـكـدوـنـيـ وـكـانـ ذـلـكـ بـتـحـرـيـضـ وـاـغـرـاءـ مـنـ الـآـخـرـينـ الـذـينـ
اسـتـهـالـوـهـ لـىـ حـبـ الـيـونـانـ وـالـاـنـعـافـ نـحـوـهـ كـمـ اـسـرـ القـوـلـ .ـ وـمـعـلـومـ اـنـ
مـصـرـ كـانـ تـؤـدـيـ جـزـيـةـ مـنـ الـخـطـةـ سـنـوـيـاـ اـلـىـ رـوـمـيـةـ فـلـاـ بـنـيـتـ

(١) في مـدـدـةـ حـكـمـ لـهـ مـاـنـ كـانـ مـنـ اـعـمـالـ عـلـىـ الـمـصـرـيـنـ اـنـ يـؤـدـيـ اـلـجـزـيـةـ الـاـعـدـ
انـ يـدـمـيـ جـمـعـهـ مـنـ الـحـلـمـ يـاـ اـمـاطـ وـبـحـرـ جـلدـهـ مـنـ شـدـةـ الضـمـ .ـ وـقـدـ سـارـ
الـمـصـرـيـنـ عـلـىـ هـذـهـ الـخـطـةـ فـيـ عـصـرـنـاـ هـذـاـ حـيـنـ كـانـوـنـ يـصـوـنـ الـاـرـثـ وـيـهـ وـمـوـنـ
اـعـمـالـهـمـ وـلـاـ بـرـضـخـوـنـ الـاـلـكـرـبـاجـ الـذـيـ لـمـ بـرـفـعـ عـبـثـهـ التـقـيـلـ عـنـمـ ١٨٨٠ـ فـيـ سـنةـ ١٨٨٠ـ
كـمـ هـوـ مـلـوـمـ

جـاءـ فـيـ الـهـوـنـ الـذـيـ وـضـعـهـ الـجـمـعـ اـنـيـقاـوـيـ هـذـهـ الـجـمـعـ وـحـيـثـ اـنـ الـبـعـضـ
بـصـلـوـنـ وـهـمـ رـأـيـنـ فـيـ اـيـامـ الـآـحـادـ .ـ فـيـ الـاعـيـادـ الـكـبـرـيـ قـدـ فـرـ هـذـاـ الـجـمـعـ
الـفـدـسـ ضـرـوـرـةـ الـوـقـوـفـ عـلـىـ الـاـفـقـامـ حـيـنـ تـأـدـيـةـ الصـلـادـةـ لـكـيـ بـكـونـ كـلـ تـيـ
بـلـيـافـةـ وـتـرـيـبـ *

القسطنطينية صارت هذه الاتادة تر-يل إليها لا إلى رومية . وبالجملة
نقول إنهم لم يبق في مصر ما يدل على وجود أثر لتلك السادة الرومانية
التي استمرت مدة طويلة مستحکمة في رقاب أهلها - وی طلل واحد
خرب وكلة واحدة بقیت من آثار الكلام الروماني . اما هذا الطلل
البالي فهو القلعة الرومانية السامقة التي كانت لاتزال دمنها قائمة في بابلون
ومع ذلك فلم يكن المصريون يعتقدون بأن هذه القلعة رومانية بل كانوا
يصدقون بأنها الحصن القوي الخاص بالسيحيين في أرض مصر وظلوا
على اعتقادهم هذا اجيالاً كثيرة . اما الكلمة التي كانت تدل على وجود
الرومانين في مصر فلم تكن الا اسم روماني فقط لا يعرف المصريون
 شيئاً عنه ولا يظنو أنه روماني . ومعنى ذلك أنه لما بنى قسطنطين
الحاضرة الجديدة مزج اسمها باسم رومية فدعى العاصمتين رومية الجديدة
ورومية القديمة ولم يتخذ لمدينته اسماً خاصاً بها ولكن لم يقتضي أحد أئمه
في ذلك واطلاق الناس على يزانتيوم كلة القسطنطينية واستانبول وهو
تصحيف في اللفظ اوجده الإنجاب الا ان اسم رومية ظل دارجاً
في الجزء الشرقي من المملكة ولم يكن يستعمل للدلالة على الرومانين
بل على اليونان والبيزنطيين وزال اسم اليونان القديم من الكلام الدارج
وصاروا يلقبون بالأروام ولكن الأمة اليونانية حفظت وحدتها
وسلطتها في علمها ولغتها فلم ينتورها نقص ثم تدرجت إلى أن عادت
إليها عظمتها التي كانت لها قبل التاريخ المسيحي فدت ظل سلطتها على

المشرق لا سيما مصر ولكن باسم « الروم » او الرومانين وهم أولئك
القوم العتاة الوثائون الذين كان المصريون يحتقر وهم لتوحشهم وهمجيتهم
ويختلفون قوتهم العسكرية وبطشهم الحربي لأن هذه القوة لم ير العالم
مثيلاً لها قبل الرومان في إبان مجدهم وعظمتهم . ولا يزال المصريون
في وقتنا الحاضر ومن قبله يطلقون كلمة (روم واروم) على اليونان
لا على الرومان فهم يقولون (حارة الروم) في القاهرة يقصدون بها
الشارع الذي أكثر سكانه من اليونان وكذلك يسمون بطريرك اليونان
(البطريرك الرومی) (١)

ويعده تاريخ المجمع النيقاوی بقليل حدث أمر محزن صريح لهذا
الإمبراطور الروماني اوجد فيه نوعاً من الوساوس جعلته متقلب الطبع
شارداً الفكر طول حياته وهذا الحادث هو قتل ابنه كريسبوس وزوجته
فوستاً ولها حكاية بذلة شنية نرض عن سردها أدباً ولكننا نأتي على
النتيجة فقط وهي أن فوستاً اتهمت ابن زوجها زوراً بهمة تفر منها
النفس الآية ثم رفعت أمره إلى أبيه فاحتقد وحنق وتولاه من
الجنون حتى أنه أصدر أمره في الحال بإعدام ابنه فاعدم . فلما عاد الإمبراطور
قام ضميره يبكيه على هذا التروع في قتل ابنه ثم ما لبث حتى وقف على

(١) إن هذا الخلط بين اليونان والروم لم يقتصر على مصر فقط بل تعداه
إلى كل القسم الشرقي من المملكة الرومانية بذات الأسباب التي شاع بها في مدن .
وقد أصبح هذا الخلط عاماً الآن بين جميع الناطقين بالصاد كما أسلفاً

جالية الخبر وظهر له امر الحيانة التي ارتكبها زوجته طوعاً للداعي الميل
الحيواني فامر بقتلها حالاً لتنال جزاء ماجنته يداها فاما منها مع انها كانت
زوجة له من سنتين طويلة . اما اولادها فصاروا ورثة للمرش الملوكي
بعد موت صنوفهم (اخوه من ايمه)

والذى يتبع سيرة قسطنطين فيما بقى من حياته يرى وجود ميل
عنه لاضعاف الضمير وتحطاط في المبادىء . قيل انه التمس حلاً ومغفرة
من الكنيسة ولمل كثرة زيارة هيلانة امه للاماكن المقدسة سرت عديدة وبناءها
كنائس متعددة وتأجيلها اعمادها هذا الامبراطور كلها عوامل للتوبه واللاح
في طلب المغفرة مما افترقه من الذنوب التي كانت نفحة سوداء في تاريخ حياته
ومما يجدر ذكره هنا انه لم يرد في النواريخ التي كتبت في ذلك العهد
شيء عن العجائب التي قال مؤدحه هذا الزمان انها حدثت عند ما كانت
هيلانة بحث وتنقب في المدينة المقدسة (اورشليم) فقد ذهب جماعة
الكتاب الى ان قسطنطين بنى كنيسة ضمن كنائس اخرى في اورشليم
في المكان الذي دفن فيه المسيح وان موضعها معلوم عند كل باحث ولكن
لا يوجد برهان على انهم وجدوا صليباً في ذلك المكان . وند عزى بمضيم
الى هيلانة بناء عدة كنائس في الفطر المصري اخصها كنائس الدير الاحمر
والدير الايض الواقعين على مقربة من سوهاج ولا ريب في ان اكثر
هذه الكنائس التي شادتها هيلانة بني على اطلال كنائس قديمة المهد أودى
بها الدهر انتهاء الانحطاط الاخير

وفي نحو هذا الزمن نأتت الكنيسة الجبانية وهي تعد ربيبة
للكنيسة المصرية وما زالت خاضعة لها خضوعاً دينياً لحد الآن . وقبل
هذا العصر لم يكن للديانة المسيحية أثر في بلاد الجبنة ولو ان الجبشان
يقولون بوجود صلة قديمة بينهم وبين اليهود حتى انهم كانوا يمارسون
كثيراً من الطقوس والفرائض الموسوية (١) وحدث انه بينما كان
البطريرك اثناسيوس غالاً في مجمع مع زمرة من الاساقفة قيل له ان
رجالاً غرباً وفد حالاً من بلاد الجبنة يرغب في مقابلتهم فأذنوا للرجل
بالدخول وما استقر به المقام أخبره بان اسمه فرومتيوس ومن ثم اخذ
بسرد حكايته على جماعة الاراخنة الموجودين قائلاً :-

منذ بعض سنوات مضت شرع ولی اسری - وهو فیلسوف من
پسور اسمه میرولیوس - في رحلة رياضية لبلاد الهند مستصحباً معه شابين
من اقاربه هما فرومتيوس (التكلم) واحاه الاصغر واسمہ ایدیسیوس .
وتنند أربينا من هذه السياحة الفينا عصا الترحال في احدى الموانئ الجبانية
اکي تزود ماء فلم نشعر الا وهم علينا هالي تلك البلاد ليتلقوا الانفسهم

(١) توجد رواية قبطية غريبة جداً ورد فيها تفصيل الظروف التي فهر
ملكة سبا (أي الجبنة) زارت سليمان الحكم ، ماتلاتها من زيارة ابها الذي جلت
به منه لابه سليمان . قبل انه في انتهاء الزيارة انهز ابن ملكة - اتفاقي سليمان
واختلس تابوت المهد يتسلد ارباما من الكهنة كان قد رش لهم ثم اخذته منه
إلى بلاد الجبنة . قال روی هذا الخبر على هذه الكيفية اخذ تابوت المهد إلى بلاد
الجبنة وبقي فيها الى وقت ميلاد ربنا يسوع المسيح

من بحارة في احدى السفن كان قد اساءاً اليهم فاقضوا علينا كالصواعق
وذبحوا جميع الاجانب ولم ينج من يدهم الا أنا و أخي باعونا عبيداً للملك
فلا صرنا في حوزته عين أخي نديعاً له وجعلني أنا كاتم سره ولبثنا عنده
على هذه الحالة الى ان اعتئنا ساعة احتضاره وهو على فراش الموت .
فاللذت من ارمدة الملك ان نعكت في يادها لساعدتها على تربة اولادها
الصغار فرضينا واقنا عندهم الى ان أصبحت كل حكومة الحبشة في قبضة
يدنا على توالى الايام ولذلك استعملنا كل ثروتنا في رفع شأن الديانة
المسيحية في هذه البلاد . ولما جاء الزمن الذي صار فيه ولی المهد راشداً
وقدراً على ادارة حكومة بلاده بنفسه فلم يبق لنا حيثذا وجه للإقامة
هذا ذلك فرحتنا من عندهم فاصدقين وطننا وسقط رأسنا اما أخي ايدبيوس
فسبقني الى صور وانا عرجت على مصر لاسرد هذا الخبر على مسامع
جناب البابا (لان بطريرك الاسكندرية كان يلقب في ذلك الحين ببابا
الشرق ولم يكن ببابا رومية معروفاً بهذا اللقب حيثذا) ثم التس
فرومتيوس من البطريرك ارسال اسقف اليهم ليؤسس الارسالية في
هاتيك البلاد (١)

بعد ان استشار انسيوس الاساقفة في هذا الامر قر رأيهم على

(١) جاء في الرواية المصرية المشار إليها ان مار مرقس زادى بالديانة المسيحية
في الحبشة كما في مصر . ويظهر من حكاية فرومتيوس هذه انه وجد اثر للديانة
المسيحية في هاتيك البلاد عند ذهابه إليها مع الفيلسوف الصوري و أخيه

تحريض فرومتيوس بالرجوع الى الحبشة وأخذ هذا العمل على عاته
وعليه أعطيت له رتبة كهنوية وأعيد الى بلاد الحبشة حينما امضى بقيمة
حياته فيها . ولا يزال الحبشان يحترمونه ويكرمونه وهم يسمونه « ابو
سلامه » او اب السلام (١)

كذلك البطريرك اثنا - يوس انتز فرصة السلام والحمدو هذه بخل
يفتقد رعاياه ويسأل عنهم الى ان وصل في سياحته هذه لحد اصوان
وكان في اصوان راهب مشهور اسمه بالخوميوس هو مؤلف كتاب
« قانون الوبنة » القديم كان ضابطاً في الجيش فترك وظيفته ليصير
مسيحياً بناء على الغيرة والحبة التي فيه . ففي هذه البلدة اجتمع
بالخوميوس هذا على راهب أقدم منه اسمه بلاطون اشتهر بالقوى
والورع في البلاد المجاورة لاصوان . وكان عذان الراهبان يحصلان
على قوتهمما الضروري بواسطة صنع ملابس من الشعر كان لبسها عاماً
في مصر . ولم يمض زمن طويل حتى التفت حولها جم眾 من العزاب
وكاري الزواج حتى صاروا فئة كبيرة جاءت لمقابلة اثنا - يوس عند زيارته
لاصوان واحتفلت بانعقاده احتفالاً باهراً وتلوا فيه ترانيمات من مزمير داود
اما ميلتيوس وآريوس فلم يكونا يرضاخان لحكم الجمع النيقاوي

ولذلك بدأت اضطرابات جديدة تقع في الكنيسة المصرية . وقام

(١) قال روبيوس المؤلف انه لم يأخذ هذا الخبر بساع بدل تلقائه من فم
ايدبيوس شقيق فرومتيوس الذي كان قاتلاً في سور بعد عودته من الحبشة

ميليوس الاسقف المنشق وآريوس الكاهن المبتدع بناصبان البطريرك العداء ويقاومانه بكل جهدهما حتى صار لقب ميليتى وآريوس وصمة عار في مصر يتضم بها كل من سار على رأي هذين العاصبين . والذى ساعدهما على التمادي في غيابهما ميل قسطنطين الملك لمذهب آريوس وهذا الميل نشاء فيه من تأثير اتباع آريوس على ذهنه واسماته اليهم حتى انهم اغروه ان يكتب مكتوبًا لاثنا-يوس يطلب فيه اعادة آريوس إلى الكنيسة كما كان فرفض اثناسيوس هذا الطلب بتاتاً بمحاجة ان آريوس لا يزال منسكاً ببدعته ولم يرجع عنها . فلأخذ اتباع آريوس هذا الرفض الذي كانوا يتوقعونه حجة ضد اثناسيوس واهاجوا سخط الامراطور نحوه حتى مال لسماع الهم التي -ى يو-اب اسقف يكوميديا واصاره لاثبها عليه . اما التهمات التي اتهموا بها اثناسيوس فكانت تحصر في امرتين : او لها ان هذا البطريرك شرع في ضرب ضريبة على مصر يحصل منها على حلال يضاهى من الكتان (تواني) للاكليروس . والثانية انه مد احد ارباب الفتن والمحرضين على الثورات بدرائهم . فباتان التهتان نقضهما اثنا-يوس نفضاً وبرهن كذبهما فلم يؤثر اقط في سمعته الا ان التهمة الثالثة التي سيجيء ذكرها قد ضاقت به كثيراً اذ كان يظهر عليها مسحة من الحقيقة فلم يكن من السهل دحضها حتى بالبرهان العقلي

ومبدأ هذه التهمة الثالثة هو ان قاماً من الاسكندرية اسمه

كولوئش انشق من الكنيسة قبل هذه الحوادث ببضع سنوات . وسبب انشقاقه غير معروف تماماً . ثم أخذ يعين تسوساً من العمالقين وحيث انه لم يكن هو سوى قس بسيط لاحق له في رسامة قسيسين نظيره تحاكم امام مجمع الاسكندرية فحكم عليه بالحرمان وعلى الذين رسمهم بتجريدهم من وظائفهم وصيروتهم عمالقين كما كانوا . فقام احد هؤلاء الرجال واسمه اسخيراس واستخف بحكم الجميع ولكنه لم يمكث في الاسكندرية ليمارس وظيفته الموهومة بل سار الى قريته في اقليم سريوط وصار يجتمع جمعية صغيرة في غرفة حيث لم تكن توجد كنيسة هناك . وقد هاجم اثناسيوس لانه لم يرسم هذا الرجل كاهناً رسمياً ولم يمضده في بناء كنيسة مع عامله باحواله وأعماله عند زيارته لتلك الجهة في سنة ٣٢٩ ترباساً

ومع ان اثناسيوس كان عظيماً كبيراً الا انه لم يعرف باتساع المدارك ورقعة الاحساس كما عرف بهما البطريرك ديونيشيوس . ومتى يذكر في هذا السياق أن بعض الباحثين ذهب الى ان اسخيراس المذكور كان رديء السمعة فاذا صرحت بهذا القول كان اللوم على اثناسيوس شديداً لانه تركه وشأنه في باديء الامر ولكنه ارسل بعدئذ قسًا اسمه مكاريوس يدعي اسخيراس للعنوان بين يديه ويتوب اباه على الجرم الذي اقترفه اباه فلما وصل مكاريوس وجد اسخيراس طريح الفراش فلم يعمل معه شيئاً ولكن اباه وعده بصدره عن فعله الناشذ وایقاقه عند حده . فلما تمايل

اسخيراس للصحة اتبع مذهب ميليتيوس وصار آلة صماء يدبرونه كيف شاؤا .
فالتهمة التي اتهموا بها اثناسيوس في هذا الشأن هي انه بذاته او بايعازه
الى مكاريوس هدم كنيسة اسخيراس عنوة واحرق كتبها وحطط كأس
الثاء الرباني . اما اثناسيوس فبرهن على عدم وجود كنيسة هناك وانه
لم يتلف شيئاً من الاشياء التي نسبوا اليه اتلافها وان ما قبل من ان اسخيراس
كان يؤدي خدمة دينية عند ذهاب مكاريوس اليه فوهم باطل لان
اسخيراس هذا كان صريضاً في ذلك الوقت . وبعد مجيء وقت على هذه
المسألة مثل اسخيراس امام مجمع حيث أقرَ في محضر امضاء ثلاثة عشر
قائماً من الاسكندرية ومر暹ط بان التهمة التي اتهم بها البطريرك لا
اساس لها وان المدين التي حلف بها اثباتها كاذبة وهكذا نص اعترافه في المحضر
المذكور : (يشهد الله أن لا علم لي بما تقولون عن هذه التهمة التي لفتها
بعضهم بل اني صرّح جهاراً بعدم وجود كأس كسره احدها وأن
شخصاً ما مدعده بسوء نحوي شيء من ممتلكات كنيسة لا معرفة لي بوجودها
ولكتني أقول الحق وهو ان بعضهم اضطرني اضطراراً للاقرار بذلك
التهمة الملفقة) ولما رفض اثناسيوس مسامحة اسخيراس وحله انكر
هذا الاعتراف المسطر ولم يعد يعترف به ثانية

ولم يخلص اثناسيوس من التهمات الموجهة اليه حتى قامت ضدهم
شبة جديدة هي انهم اتهموه باستعمال السحر والتجمیم وهي تهمة خطيرة
يتم لامرها عامة الشعب منذ القرن الرابع لحد يومنا هذا . وقد شاع

بين الناس ان اثناسيوس دس السم لاسقف من اتباع ميليتيوس اسمه
ارسنیوس قاماته واستخدم جنته لفرض سحري دني . فانتشار مثل
هذه الخرافات وسلوک تصديقها عند الناس دليل على انتهاك الاخلاق
وفساد الآداب في الامة من بعد ان كف عنها الاضطهاد . أما الذين ادعوا
هذه الدعوى فجاؤا بداعياً على اثباتها وهو يد مبتورة من جنته قالوا انها
يد ارسنیوس التي فصلها اثناسيوس من جسمه . فذهب اثناسيوس عند
سماعه لهذا القول ورأى ان عدم دحضه هذه التهمة بالبينة القاطعة يوجد
برهان في النقوص من نحوه ولذلك انفذ شهادته الى الصعيد للبحث عن
ارسنیوس وكشف جلاء الحقيقة
وقد ثبت لهذا الشهاد ان الاسقف الذي قيل انه قتل لا يزال حياً
يرزق وهو مقيم في احد الاديرة هناك وقبل وصول الشهاد الى المكان
الذي كان ارسنیوس يقيم فيه اسرع بنس رئيس الدير وارسل ارسنیوس
الى صور حتى لا يعلم مقره احد الا ان الشهاد ترصن في طريق الدير
والقى القبض على بنس وراهب آخر اسمه هلياس كان قد ذهب ليشيعا
ارسنیوس ويهدىاه الى الطريق التي يسير فيها ثم احضرها هذا الشهاد
امام حاكم الاقليم حيث اعترفا بما فعلاه (١)

(١) ان بنس هذا كتب الى يوحنا اركاف كتاباً غريباً في بابه بنته فيه باب
هذه التهمة لا يمكن اثباتها ضد اثناسيوس لانه معروف في كل القطر المصري ان ارسنیوس
لم يزل حياً ولم يصبه مكره من احد

أما الشهاد المذكور فسار تواً إلى صور للبحث عن ارسنيوس ولم يستطع العثور عليه في بادي، الامر واخيراً التقى ب أحد خدام حاكم الولاية وأخبره بأنه سمع بطريق الصدفة في احد النوادي ان ارسنيوس مختبئ في احد منازل هذه المدينة فاقتفي الشهاد آثار مخبره الذي تذكر من ارشاده الى المكان الذي كان ارسنيوس مختبئاً فيه فانكر هذا نفسه عند مدار آه الشمس ولكن بولس اسقف صور عرف به وقال انه ارسنيوس يلقبه فيه (بالبلايا المحترم) ويظهر اسفه من الذي حدث وسئلته أن يصف عنه ويقبله في عضوية الكنيسة

و مع أن براءة اثناسيوس ظهرت كشمس الظبرة الا ان يواس و وبحه على ما بدا منه من الحدة في الكلام ثم اخذ القوم في محاكمة اثناسيوس ولكنهم كانوا متفقين قبلًا على الحكم عليه وكانت أول تهمة أمام جمجم كنائسي وعلى رؤوس الاشهاد . وعليه تشكل جمجم في قيصرية تحت رئاسة يوسيبيوس المؤرخ اسقف هذه المدينة وطلب اثناسيوس مراراً للحضور أمام الجمجم فلم يعبأ بهذا الطلب ولم يذهب فقط بل ظل يشتغل في تدبير مهام البلاد التي يرأسها أملاً بتسوية هذه المسائل طبيعياً بدون بحث أو جدل من شاء الحق والعناد ولكن في سنة ٣٣٥ التام جمجم آخر في صور وارسل الامبراطور امراً مشدداً الى اثناسيوس يدعوه للحضور فاذعن لحاله وسار في موكب حافل يحيط به ثمانية واربعين من اساقفته . أما اساقفة الجمجم

لأنة لها

٤٢٢

فلا قال اثناسيوس هذا هاج الجم وجاج فانهز يوحنا اركان هذه الفرصة وسعى للهرب لامه كان المسؤول رأساً عن صحة هذه التهمة وكذبها ولكن عدل عن الغرار والتفت نحو أعضاء الجميع وفهم أن ما عمله اثناسيوس الآن إنما هو دليل جديد على كونه ساحراً ماكراً ولذلك اشتد سخط القوم وزاد حنقهم على هذا البطريرك البائس الذي كان قد برهن لهم على جرأته وكادوا يفكرون به لولانا الامير دينيسيوس الذي كان قد أفسد الامبراطور لمراقبة هذه المضحكات البكيرات خاصة من إندיהם وانقضت حياته من العذاب

أما مسألة اخرين فلم تزل على ما كانت عليه ولذلك تجدد البحث فيها بفاء مصر ستة من أعضاء الجميع ليعملوا تحقيقاً في هذه الحكاية الثانية وكانوا من اتباع آريوس المتطرفين وبالتالي اعداء الداء للبطريرك اثناسيوس . وكانت مكاريوس قد طرح في سجن صور ولذلك عول اثناسيوس على رقم دعوه إلى الامبراطور شخصياً فاستصحب منه خمسة من اساقفته وسافروا في أول سفينة أقلعت من صور قاصدين القسطنطينية والتقو فيها بالامبراطور بجاه عندما كان خارجاً للزهوة في موكيه الحافل أما الامبراطور قسطنطين فلم يعرف اثناسيوس في أول الامر فلما عرفه هذا بنفسه رفض الامبراطور سماع دعواه متذرعاً بمحنة واهية هي ان هذه المسائل كانت موضوع البحث في مجمع نظرها وحكم فيها . ولكن

٤٢٣

اثناسيوس لم تقنع هذه الحجة بل اعترض الامبراطور في طريقه قائلاً :
إما أن تأمر بتشكيل مجمع مسكوني شرعياً أو أن تسمح لي بالاجتماع مع
خصومي أمامك وتناقش معـاً) فاقتصر الامبراطور أخيراً وكتب رسالة
يدعو بها المجمع للالتمام في القسطنطينية . فلما علم الأصداد هذا اهتروا
وانزعجوا وعادوا إلى إروشياتهم خائفين وجلين ولم يلبوا دعوة الامبراطور
الا يوسباب اسقف نيكوميديا ورهط من الأساقفة اتباع آريوس الذين
جاؤوا إلى الامبراطور فلم يذكروا أكلة واحدة من مسائل ارسنيوس
واسخراً بل ابتدعوا تهمة جديدة زادت في حيرة اثناسيوس وأذهلتـه
أما هذه التهمة الجديدة فقادها أن اثناسيوس كان يقصد منع سفر
المراكب التي تأتي القسطنطينية حاملة ضريبة الخطة وهو عمل يشبه
أشعار حرب عوان ضد الامبراطور
فأنكر اثناسيوس هذه التهمة انكاراً قطعياً ولكنـها كانت ملقة
ضده تلقيناً يلبـها مسحة الحقيقة وملـوم أن هذا الامبراطور كان
شديد الفيرة على سلطـته لا يطيق ما يحيطـ بها أو يقاومـها ولذلك قاطع
اثناسيوس بينما كان يدافع عن نفسه ولم يتركه يتمـ كلامـه واتـهى الامر
بانـ نفـاه نـفـاً موـقـتاً إلى المـكانـ الـذـي يـقـيمـ فـيهـ ابنـهـ الاـكـبرـ قـسطـنـطـينـ
فيـ تـرـيفـسـ شـمـاليـ جـرـمانـياـ . فـظـلـ اـثـنـاسـيـوـسـ سـتـيـئـ وـنـصـفـاًـ فـيـ بـلـادـ لـمـ
تـكـتـحـلـ عـيـنـهـ بـرـآـهـاـ مـنـ ذـيـ قـبـلـ وـلـمـ يـكـنـ يـنـهـاـ وـيـنـ مـصـرـ وـجـهـ شـبـهـ
قـطـ بـلـ اـنـهـ كـانـ يـنـصـورـ جـرـمانـياـ الشـمـالـيـةـ كـانـاـ مـتـهـيـ الـأـرـضـ وـآـخـرـهـاـ

وأنها أقصى الاقتاصي . وكان يصحبه في منفاه هذا واحد أو اثنان من رفاقه المصريين فلم يصرف وقته عبئاً في هذا المكان بل كاف يولي كتابة الرسائل المفيدة إلى رعيته التي لعبت بها أيدي الدهر من بعده لاز مدة نفيه لم يكن للسلام أثر في مصر ولم تكن مصر تعرف الراحة والولئام وسبب ذلك آريوس وحكايته الذي انكر ما عزي إليه في المجتمع الاورشليمي المقدس وعاد لايمنه الاول فضم الى الكنيسة ثانية وأمر بالبقاء في الاسكندرية ولكن لم يكف عن سعيه المتاد من ايجاد انقسام وشقاق في هذه المدينة التي لم يهدأ لها بال فأعيد منها ولم يسمح له بالبقاء طويلاً . ومن الاسباب التي أوجدت الكدر والقلق في مصر هو هجج المصريين وتحرك عواطفهم الوطنية لاجل نقل عادياتهم القديمة العديدة المثال الى مدينة قسطنطين الجديدة (القسطنطينية) واخذ مسلاتهم السامية لتزيين هذه العاصمة وتجملية رونقاها وزيادة عظمتها بواسطة الآثار المصرية . كما العنصر الثاني من سكان مصر غضب وسخط عند نقل مقىاس النيل من هيكل سيرابيس إلى احدى الكنائس المسيحية ومن عهد نقله صار القوس المسيحيون يؤدون خدمة عيد وفاء النيل بدلاً من كهنة الوثنين . وكان من بين الذين التساوا من الامبراطور التداخل في مسألة اثانياوس وحسم مشكلته مار انطونيوس الذي ترك ديره بناء على طلب اثانياوس له وقدم إلى الاسكندرية ليكرز فيها ضد بدعة آريوس ويحذر الناس من اقتداء أثره فلما توسل إلى الامبراطور ليفرض الخلاف

فعلى هذه الكيفية المريعة قضى آريوس نحبه وهو زعيم تلك الفتنة التي كانت تلقب نفسها آريوسية وكان الآخرى بها أن يقول إنها ناكرة الوهبة المسيح مقاومة لمن يؤمن به كالم - مات هذا الرجل ميتة لا يشاد مع أنه كان متخصصاً باحسن الصفات الادبية إلا أنه بالنسبة لظروف ذلك الزمان واهو الله كان قادرآ أن يلحق بالديانة المسيحية ضرراً عظيماً لا يستطيع اثنانه اكتئانه اكتئان الناس شرآ وخباً . وقد امتاز اتباعه بعزية ممقوته هي انهم كانوا أول مسيحيين اضطهدوا المسيحيين اخوانهم وفي سنة ٣٣٧ تم قسطنطين بناء الكنيسة الكبرى في القسطنطينية التي دعاها كنيسة الرسل الاطهار ودشنها وكان يقصد أن يلحد فيها بعد موته . وكانت شعر بدنه أجمل فاته كاد يتم بناء هذه الكنيسة حتى خارت قواه وأخذت صحته تتحطم اخطاطاً ظاهراً فعمد إلى العمار من يوسف اسقف نيكميديا ثم فاضت روحه في يوم أحد المنصرة من سنة ٣٣٧ . وكان قبل موته اقام خمسة قياصرة تحت امرته وهم أولاده الثلاثة وابني أخيه وقسم الملكة بينهم كما يأتي : قسطنطين ابنه الاكبر اخذ بريطانيا واسبانيا وفرنسا وقسطنطينوس اسيا وسورية ومصر وقسطنطين ايطاليا وببلاد المغرب (افريقيا) ودلطيوس ايبريكوم (بلاد اليونان) وهنريبال ارمينا وبيطس الآلت هنريبال هذا لم يتل لقب قيصر بل لقب ملك فقط

وبعد موته الامبراطور قسطنطين هرع قسطنطينوس ابنه الثاني

وجاء القسطنطينية سراعاً وكانت له يد قوية في جمع الحوادث التي وقعت فيما بعد . وكانت الجيوش قد أعلنت صراحةً بعدم قبول ملك عليهم من غير ابناء قسطنطين ولذلك حدثت مذبحة عظيمة ذبح فيها كثيرون من ذرية قسطنطينوس الاول الذين ولدوا له من امرأته الثانية تپوضورا . وكان بين الدين اكلاهم السيف دلاتيوس وهنريبال وخمسة آخرين من ابناء اخوة قسطنطين وحنواه (ابن ابيه) ووزير الخاص ايلاقيوس وواحد او اثنان من المقربين اليه ولم يبق من العائلة المالكة سوى ابناء الامبراطور وابني حنواه يوليوس قسطنطينوس وها غالوس الذي قيل وقتل انه مشرف على الموت والصبي يوليان الذي نجا من العطب اسقف مسيحي وقاد هذه الحوادث المريعة النقي ابنها قسطنطين الثاني في سيريوم واعداداً تقسيم الملكة فيما بينهم فاستولى قسطنطين الثاني على الجزء الغربي من الملكة أو هو شمالي اوروبا واخذ قسطنطس الاجزاء المتوسطة وهي جنوبي اوروبا اما قسطنطينوس الثاني فصار امبراطور مصر وباقى الشرق برمته فلما استتب الامر لقسطنطين الثاني طلب الى اثناسيوس البطريرك ان يعود الى كرسيه وكان قد اخذته معه الى فiminashiom وهو مكان حدهم ثلاثة امبراطرة ليجتمعوا فيه فقرر رأيهم على ارجاعه الى بلاده فعاد هذا البطريرك الى الاسكندرية في شهر نوفمبر سنة ٣٣٨ حينما قابله الشعب بالحفال حافل ابدى فيه من السرور والشكر مالا يوصف

ولما رأى الاساقفة الذين من شيعة آريوس ان اثناسيوس قد عاد واستقر في مكانه كما كان لم يهدأ بالهم بل قاموا يدبرون طريقة أخرى ينزعونه بها من على كرسيه ما دام ان التهمات السابقة لم تؤثر فيه إلا كما يفعل الماء في الصخر المtiny . وقد ساعدتهم على ذلك ميل الامبراطور قسطنطينوس اليهم لانه كان آريوسياً حقاً حتى انه عين يوساب اسقف نيكوميديا (١) بطريركاً في القسطنطينية رغمما عن هياج الشعب وعدم رضاه بهذا البطريرك . وكان اعتراض جماعة آريوس على رجوع اثناسيوس هو ان في عودته خدشاً لقوانين الكنائسية واحتضانها للمباديء الكهنوتية لانه عاد الى كرسيه بدون تصديق قانوني يصدر من مجمع كنائي عام يشكل لهذا الفرض وقالوا ان الكرسي الاسكندري يعتبر بدون بطريرك طبقاً لهذا المبدأ ثم اخذوا يثنون الدسائس لينتخبو رجلاً اسمه بسطس بطريركاً للاسكندرية مع انه كان من ضمن القسوس الذين حرمهم البطريرك اسكندر عند ما حرم آريوس لاجل بدعاته وقد ارتئى هذا الحزب الآريوسي رأياً هو انهم اذا انغروا اسقف رومية الذي لا يعرف شيئاً عن بسطس على التداخل في هذا الامر والسير خلف غرضهم قد يقوى جانبهم ويشتدا ازدهم به وعليه انفذوا

ثلاثة قوس الى رومية كبعثة للغاية السالفة الذكر . فلما وصل الخبر الى توليوس اسقف رومية كتب خطاباً سلس العبارة الى اثناسيوس ينطره فيه بهذا الامر فارسل اثناسيوس رسلاً من قبله الى يوليوس مزودين بادلة تثبت ان سعي القوم في ترشيح بسطس للبطريركية لم يصادف نجاحاً ولم يلق قبولاً حتى عند اصدقائه الاخقاء . وكان رسول اثناسيوس قد حملوا معهم الى رومية قراراً جمعياً من كنيسة مصر امضاه اكثر من مائة اسقف مصري برهموا فيه على براءة اثناسيوس وطبارة ذيله وقالوا في رسالتهم هذه ان الغرض الوحيد الذي يرمي اليه اتباع يوساب هو تعيم بدعة آريوس ونشرها في مصر .

وبناء على ذلك اقترح يوليوس اسقف رومية تشكيل مجلس للنظر في هذه المشكلة فصادق الطرفان على هذا الاقتراح وقبلوا به . ولكن حدث في سنة ٣٤٠ ان قسطنطين الثاني الذي كان نصيراً لاثناسيوس وظاهراً قويأً له قتل في مناوشة حربية وبعد موته اصدر الوالي فيلاغريوس امراً رسمياً اوضح فيه لكنيسة الاسكندرية خبراً ساءها وهو ان بسطس لا يعين بطريركاً بل ان رجلاً اسمه غريفوريوس من معية الملك قسطنطين اختير ليكون بطريركاً للاسكندرية بدل اثناسيوس اما غريفوريوس هذا فسقط رأسه مدينة كبدوكية ولكن رفع البان العلوم في كلية الاسكندرية ولاقي من اثناسيوس كل عناء وآلام وقت تلمذته . ولم يكن هذا الرجل قد حرم كفирه لاجل بدعة

(١) ان يوساب هذا نقل من مركبه مرتين - الاولى من بيروت الى نيكوميديا والثانية من نيكوميديا الى القسطنطينية مع ان نقل الاساقفة في ذلك الوقت كان ضد القانون الكنائسي

آريوس ولكن كاتم سره آمون كان قد حرم البطريرك أسكندر لذاته
السبب الذي حرم لاجله بسطس . فلما تعين غريغوريوس بطريركاً بدأ
الاضطرابات ترسي في الإسكندرية وقامت المذاكل والزارع وكثُرت
جمعيات التحرير و كان منها جمعية كبيرة نادت لتحتج على هذه
المعاملة التي عولج بها ثناسيوس وكان النايماني كنيسة القديس قورينوس (١)
فلما رأى فيلا غريغوريوس الوالي هذا وكان صديقاً لغريغوريوس
ومواطناً له حرض قوماً من سفلة الوثنين وحرافيشهم - وقيل انه
قادهم بنفسه - لكي يهجموا على الكنيسة التي اجتمعوا فيها هذه
الجمعية . فاندفع هؤلاء الزعاف إلى أقدس الأماكن وأجلها وأحرقوها
الكنيسة وطردوا منها تلك الجمعية بعد أن أوسعوها بها وشتموا تأبي
الآذان سماعه ثم نهبوا خزانة الكنيسة وامتهنوا وقتلو بعض الرهبان
بينما كانوا يذودون عن حوض الكنيسة ويدافعون عن اشياءها
اما ثناسيوس فكان في ذلك الحين يأوي إلى صومعة في كنيسة
القديس يوناس فلما علم أنه هو المقصود بالذات خاف على الكنيسة من
وجوده داخلها للا يلحق بها ضرر من الأعداء فانسحب من الإسكندرية
وخلال الجو لغريغوريوس فدخلها بعد أربعة أيام من سفر ثناسيوس دون
أن يلق مقاومة من أحد كل هذه الحوادث وقعت في الصوم الكبير

(١) يحتمل أن يكون هذا القديس هو قورينوس أسقف سيدني التابعة لمقاطعة
إييربكوم وكان قد ناد الشهادة في أيام ديوكتينوس

وفيه أصاب أهالي الإسكندرية المساكين اضطهاد شديد من هذا
الأسقف الذي اهتم حق غيره قسراً
أما قسوس الإسكندرية فجر عليهم تعويذ أحد أو زيارة مريض
أو ممارسة أي عمل من وظائفهم . ولم يأت يوم الجمعة الكبيرة حتى
حدث هياج جديد وذلك عند دخول غريغوريوس الكنيسة بوكبه الخافل
إذ تصدى له هذا الشعب المحترم غيطاً وابتدره بعبارات السب والاهانة
غرفع غريغوريوس دعوه إلى صديقه الوالي الذي اهتم بالامر كثيراً
والقى القبض على نحو اربعة وثلاثين وجيهاً من الذين كانوا حاضرين في
الكنيسة وجدهم بالسياط جلاً عنيفاً وكانت منهم أصحاب الحبيبات
والاعتبار وأكثرهم نساء مكسورات الجناح بلا عضد ولا سندوفي هذه
الائنة برع محضر آخر امضاء الوثنين واتباع آريوس فقط وفيه يتهمون
ثناسيوس تهمات تمسه لا هميتها فضم هذا البطريرك الأسيف على
الذهب إلى رومية آملاً بانعقاد ذلك الجمع الكنائسي الذي اقترب
يوليوس . فلما وصل ثناسيوس رومية تلقاه يوليروس بكل تجلة وكرم
وانفذ كاهتين من قبله يدعوان الجميع للالئام وحدد له شهر ديسمبر من
تلك السنة . وكان يوليروس في ذلك الوقت يلطف ثناسيوس ويرجوه
البقاء عنده فقبل ثناسيوس ذلك لعلمه بأن وجوده بالإسكندرية في
هذه الظروف لا ينبع عنه خير واحد يبذل قواه في ابعاد الأفكار الشريرة
عنه التي كانت تساوره وتقلقه وقد قال عن نفسه في ذلك الوقت « لما

عرضت مسألة على الكنيسة وهي بفتحي التي كنت ابتغىها لم اترك في ذهني شيئاً يشغلني عن خدمة هذه الكنيسة التي هي جلّ صرادي» وكان بمعيته في رومية كاهن من مصر وهو آمونيوس أحد رهبان دير النطرون وايسداروس . وقد أثرت اقامة آمونيوس في رومية تأثيراً سلباً في احساساته الاصلية فقد قيل انه لم يعجبه بناء في ابنيه رومية الذايئة الصيت سوى بناء كنيستي مار بطرس وبولس (١) الذي شرح صدره كثيراً وحول نظره من مصر الى رومية . ولكن بقاء اثناسيوس - بابا الاسكندرية في رومية اوجد مبدأ في الكنيسة اللاطينية (الكاثوليكية) لا يزال فيها الى الآن

وبيان ذلك ان القوم هناك كانوا يصنفون بكل ارتياح الى كلام اثناسيوس عن الرهبنة ونظمها في مصر فصادف هذا القول منزعاً في نفوس الغربيين فزاد شوقيهم الى الرهبنة ورغبتهم في العزوبيّة . قال جيرون المؤرخ «ان اثناسيوس ادخل الى رومية مبدأ الرهبنة ونظمها ولكن يصعب على العقل ان يتصور صحة هذا القول حرفيًا او ان يصدق عدم وجود رهبان في رومية قبل مجيء اثناسيوس اليها اما اثناسيوس فقد ظلل في رومية ثانية عشر شهراً وهو يتظاهر الفرج القريب من الله ويترقب وجود مخرج له من كربته التي كان فيها

(١) ان آمونيوس هذا هو اكبر الاخوة الذين اشتمروا باطول قائمتهم وسيأتي الكلام عنهم عند ذكر ما جرى في مدة حكم تاوفيلوس

الفصل الخامس عشر

غريغوريوس وجود حيوس من كبدوكية

سنة ٣٤٠ للمسيح و٦٥ للشهداء

في نحو الزمن الذي قتل فيه قسطنطين الثاني - وربما قبله ببضعة شهور - مات اشهر رجال ذلك العصر واحد المؤرخين العظام وهو يوسيوس اسقف قصريه الذي اخذنا عنه كلما نعرفه الان عن الثلاثة قرون الاولى للكنيسة المسيحية . وكان الرجل في بادئ امره ميلاً للانحياز الى جانب آريوس عند استفحال ذلك الانشقاق المحزن الذي اتينا لك على شرحه في ما مسر . ولكنه عاد فاقتنع بحكم الجميع النيقاوي وسار على جادة الصواب التي قررها هذا المجتمع سيراً من ضيقاً . وقد كان يوسيوس هذا صديقاً حمياً لقسطنطين الكبير ومحبوباً عند حبّه يقرب من العبادة فكان يشق بعلمه وفضله وعهد اليه في آخر سنته بعمل تأليف اديبة ذات شأن . وما يستحق الذكر من اعمال هذا العلامة ان النساخ الاسكندريين كتبوا تحت مرافقته خمسين نسخة من الكتاب المقدس اخذها قسطنطين وزعها على الكنائس الكبرى التي كان قد بناها وكرسها كما عرفت . ولم تبق ولا نسخة واحدة من هذه الكتب الثانية لحد الآن ولكتنا لا نأس فقد يأتي يوم فيه تظهر ولو واحدة منها في أحد القبور المصرية او في كهف او جحر نسج عليه العنكبوت خيوطه فترليها ايدي الباحثين المجهدين

كذلك علماء الوثنيين في مصر كانوا في ذلك العهد من أكثر الناس
اجهاداً في تحصيل العلوم واحتفلوا بالتأليف والتصنيف ولم يزل بين
يدي علماء هذا العصر كتاب من تأليف عالم وهي مشهور هو البيوس
الذي وضع مصنفاً في فن الموسيقى تداوله الأيدي إلى الآن ولا تزال
تُطرب من نعاته الآذان وكذلك زميله إيمبابيكوس الذي عدَّ مع
البيوس من أشهر النصار الفلسفة الإلاطونية وناشرٍ لعلها
في الإسكندرية . وقد وضع أخيليوس طاطيروس كتاباً نفياً في علم
الفلك وهو عام كان يعشّقه المصريون ويرغبون فيه كثيراً هذا عدا عن
روايات أخرى خيالية صنفها هذا الرجل تلذ قراءتها جداً وقد صار
أخيليوس مسيحيّاً فيما بعد وزعم كثيرون أنه تعيّن أسقفًا . ومن الكتاب
الذين نُهوا في علم الهيئة (الترجم) هيافشن من طيبة (الاقصر)
كتب بذلة اظهر فيها تأثير عده كواكب في منطقة البروج على امرمة
الناس . ونقسيمه لمنطقة البروج يطابق التقسيم المرسوم على سقف
هيكل دندرة (قنا)

وقد مُنْجى شهر دسبر الذي حددته يوليوس أسقف رومية لاثام
الجمع ولم يتّم وفي شهر يناير عاد الكاهن إلى لدن أرسالها الأسقف المذكور
ليدعياً أعضاء الجمع ويدهما مكتوب من الأسقف الآريوسين فيه كل
عبارات الائمة والطعن فطلب الكاهن من أسقف رومية بروح الحبّة
المسيحية التي تأمر بالتحمّل الائمة حباً في صالح الآخرين - إن لا يقرأه ولا
يعلم بما حواه فرضي الرجل وظل ينتظّر حضور بعض الأساقفة إليه والأمل

مل نؤاده بفضل هذا المشكك . ولكن جماعة آريوس عكسوا الفرض فانهم
بدل ان يذهبوا الى رومية لمقد المجمع هناك عقدوه في انتاكية عندما ذهبوا
ليها لحضور الاحتفال بتدعين كنيسة كبرى بنيت فيها وكان عددهم نحو
سبعين اسقفاً التأموا في هذه المدينة وقرروا بعض امور منها تأييد الحكم
بهرمان اثناسيوس وتجريده من وظيفته . فلم يكتفي يوليوس بحكم هذا المجمع
لا اقتصر ببل شكل بحثاً آخر في شهر نوفمبر من السنة ذاتها ولهما من
يف وخمسين اسقفاً ففحص التهمات الموجهة ضد اثناسيوس فصادقاً دقيقاً
راخيراً حكم بيراءه جهاراً عندما اتضحت له تماماً . ولكن هذين المجمعين
ختلفا في وجهة نظرهما فلم يتم احدهما بما قرره الآخر وعليه مكت اثناسيوس
يا رومية ولم يؤثر الرجوع الى الاسكندرية خوفاً من حدوث فلائق
جديدة تتشامن عودته اليها مادام غريغوريوس موجوداً فيها . وفي سنة ٣٤٤
نشرح صدر اثناسيوس عندما بلغه ان لا مير اطورقة طنطين عزم على تشكيل
مجتمع كبير يجمع اليه اساقفة الشرق والغرب مع افذهب اثناسيوس الى ميلان
بإيطاليا) حيث تقابل مع قسطنطين مقابلة خصوصية وحيث ذهب سار ليري
لاب الجليل هوسيوس اسقف كردوفا . أما المجمع فانتظم عقده في جزيرة
سرديكا في او اخر سنة ٣٤٣ وبعد حجاج وجلاح طالا واستطالا انسحب منه
الاساقفة الآريوسيون منضدين دون ان يبدوا رأيهم في هذه المسألة . وكان
اهم مبدأ قرره هذا المجمع هو ذلك القانون المشهور القاضي برفع المثال
المضلة الى كرسى رومية للنظر فيها ومن ذلك الحين ورومية تدعى الاسيقية

والاولوية على باقي الكراسي الاخرى وهي دعوى لم يقر بها البطاركة ولا
قبتها لأهم الكنائس في القدسية والاسكندرية
اما قسطنطينوس فهاج غضبه وحقق كثيراً لسب الفشل الذي لحق
بحزبه ولم يرضخ لحكم المجمع قط ولذلك عول على ايجاد مصائب جديدة
في ارض مصر فاصدر اوامره الى حكام الاسكندرية بقطع رأس اثناسيوس
اذا هو تجاوز وعاد الى كرسيه ثم نفى خمسة من القوس الذين ينتسبون
الىه وكثيرون منهم اختبأوا في البراري والقفار فراراً من اضطهاد اتابا
آريوس لهم . اخيراً في سنة ٣٤٤ ظهرت دسينة دينية دبرها البطريرك
الاريوسي الانطاكي ضد احد القوس الابرية، فساء اعتماد قسطنطينوس
في هؤلاء المبتدعين وشاج بوجهه اعراضائهم بل بدأ يميل نحو اثناسيوس
ويغافل عليه . وفي شهر فبراير سنة ٣٤٥ مات غريغوريوس في الاسكندرية
فتهدى السبيل امام اثناسيوس للمعوده الى مكانه ولكن لعدم ثقته في
قسطنطينوس تمهل اكثراً من اللازم وبقي الى شهر اكتوبر سنة ٣٤٦ حتى
عاد الى وطنه بعد كل هذا الفياب الطويل . وقد اسهب غريغوريوس
الزیني في وصف الاحتفال الذي اقامه الشعب عند استقبال بطريقه
المحبوب وكيف ان القوم توافدوا من جميع أنحاء المدينة على اختلاف نزعاتهم
العقائد وكانوا يتلقون الجدران ليتمعا بالنظارهم برؤيته وقد عبق الهواء برائحة
البخور المعطرية الذي كان يتصاعد من الجامس فيزوري بنشر الخزام . وعند
جن الظلام صارت المدينة شعلة من نار اكرااماً لتشريفه وفرحاً بعودته الـ

وقد استهل هذا الظرف رسالته التي نشرها في عيد القيمة لسنة ٣٤٧ بـ تقديم الشكر لله والحمد لله تعالى لأنه من عليه بالرجوع من هاتيك البلاد القاسية ثم ختمها ببيان عن الأساقفة الذين رسمهم حديثاً والأماكن التي عينوا فيها

مررت على إثيوس ومصر ثلاث سنوات ذاقوا فيها طعم الراحة والسلام وكان لدى هذا الخبر عمل كثير لرعيته التي لعبت بها يدي الشتات من بعده فعين ديدعوس رئيساً للمدرسة اللاهوتية بعد أن رسم عدة أساقفة كانت رسامتهم أول عمل بيده . وكان ديدعوس هذا كيف البصر وذلك لأنه أصيب برض في عينه - رب مار مقدس ديدعوس حاد - وهو في الرابعة من عمره ويستنتج من ذلك أنه لم يتعلم كغيره من الأطفال حتى ولا مباديء القراءة البسيطة إلا أن رغبته في الحصول على العلم كانت شديدة جداً أزالت من كل حائل في هذا السبيل فلم يثن عزمه الفقر والموذ ولا صدقة أبغضه الغير عنه وأهله لهم أمر تربيته بل أخذ يهدب عقله ويفوي ذاكرته إلى أن تسمى مداركه وصارت قريحته وقاده تغيير الآلباب . وكانت عنده الحروف الأبجدية محفورة على الواح من الخشب وب بواسطتها تعلم القراءة بواسطة اللامس والفلسفة والمنطق والرياضيات وفن الموسيقى - استوعب كل هذه العلوم استيعاباً كاملاً متناسحاً حتى أنه كان يستظهر على مناظريه الذين درسو بهذه العلوم نفسها من الكتب الخاصة بها وكأن يفهمها بالدللة القاطمة ويظهرهم اذاجي

وطيس الجبال بينهم في أمر غامض . فطار صيته في الافق وبلغت شهرته السبع الطباقي قبل أيام اثنان - يووس بكثير حتى ان مار انطونيوس النائب بحث عليه كثيراً عند مازار الاسكندرية عقب الاضطهاد وقيل انه خاطبه بالعبارة الآتية : (اسمع يا ديدعوس . لا تكون خسارة بصرك الجسي - سبياً في اخراج صدرك . فانك ولو حرم من حاسة البصر التي منحت حتى للبعوض والذباب كواسطة للشلل بهاما داما لاش . ورعندها غير البصر خري بل ان تفرح لأن لك عينين كأعين الملائكة تبصر بهما الروحيات بل بواسطتها ادركت الله نفسه وسطع نوره امامك فازاح دياجير الظلام عن عيني قلبك فاستترت) . قال سترات ايضاً ان ديدعوس كان يعتبره الناس حصنآً تيأسنداً قوياً نذريانة المسيحية حتى قبل ان يتولى رئاسة المدرسة اللاهوتية وهو يمسد خصماً عنيداً كسر شوكه اتباع آريوس وذلمهم في مناظراته معهم . ولله مصنفات عديدة لم يبق منها في علم الوجود سوى اربعة فقط . وقد قلنا في الذي سبق ان اخلق الامة المختل وآدابها تغيرت من بعد اضطهاد ديوكتينيانوس وذلك دليلاً جديداً على ذلك هو اعتقاد الكنيسة في اوريجانوس العظيم بأنه كان منحرفاً عن جادة الحق لا يمتاز عن اهل البدع والمطرفة إلا قليلاً وهذا برهان على سوء الفهم وضعف الادراك لا برهان بعده . فلما رأى العلامة ديدعوس ان هذا الاعتقاد شاع بين الكنيسة نشر شرحاً ضافياً لكتاب اوريجانوس المسمى « المبادي المهمة » ابان فيه خطأ الذين يعتقدون هذا الاعتقاد في اوريجانوس وان ظنونهم هذه إنما هي تجرفات

اوهم لا طائل تحيطها ثم قال . «ان الذين يتموت اوريجانوس بالابداع
هم عديوا الفهم لامقدرة لهم على ادراك الافكار العالية والحكمة الفائضة
التي امتاز بها ذلك الرجل العظيم الذي يعد من الوازع المشهورين » .
اما هذا الكتاب الذي وضعه ديدميوس فلم يبق له اثر . ولما رأى من ديدميوس
المدرسة اللاهوتية تقاطر طلاب العلم الى الاسكندرية من جميع الحجاء
العلم المتدين وبعد رئاسته بقليل جاء روفينوس وجيرروم الشهيران وكانا
جيبلنڈ في شرح الشباب ليتقىا المعلوم والمعرف في الاسكندرية على يد
هذا النايف الخطير الذي كان يلقب «الاعمى البصير» .

ونغرب في مصر أم العجائب ان الرحمة والسلام لا يدومان طويلا
فيها وهذا شأنها من قديم الزمان . وفي فبراير سنة ٣٥٠ قتل قسطنطس
في ثورة بدء بها مغيطيوس وبقي قسطنطينوس الامبراطور الوحيد في المملكة
كلها بعد أخيه . وعملاً قسطنطينوس هذَا كارث ينفر من اثناسيوس
ويعرض بانفه عنه ولذلك داخل اثناسيوس خوف ورعب من تصرفات
هذا خصوصاً وان الواثقين ضده اخذوا انفسهم عليه ويدعون له الدسائس
بعزم جديد . وفي شهر مايو سنة ٣٥٣ استحسن ارسال خمسة اساقفة وثلاثة
قسوس الى قسطنطينوس لاثبات براءته امامه معاذى اليه سابقاً . وكان
معه ولاساقفة سيرابيون اسقف ثيوس (١) وهي مدينة شهيرة في الوجه البحري

(١) لا يقرب عن الاذهان وجود مدحبي قدح بهذا الاسم في مصر ويؤخذ ن
بعض استدلالات ان هاتين المدينتين كانتا اسقفيتين في وقت واحد

الاعاز الا ان قسطنطينوس شوء جمالها بخرافات عجائبية وارجع فيهم شيئاً بواسطة احزاب متعددة وجدت ابحث ابحاث غريبة لا طائل تحتها وقوى عزمه هذا الامبراطور على الاختلاف بدلاً من التوفيق بينها عالم من السلطة والنفوذ فعمت هذه الاختلافات جميع الاصقان وزاد انتشارها تلك الجولات الشفاهية التي كانوا يتناقشون فيها ياغرا الامبراطور نفسه حتى انه ابطل البريد واعطى خيوله جماعة الاساقفة يذهبون بها الى الجامع ويجهرون بناء على دعوته اليهم ليصادقو له على توحيد السلطة ووضعها تحت يده»

وفي مدة الصوم الكبير لسنة ٣٥٤ كانت كنائس الاسكندرية تردم بجمهوه المعلمين ازدحاماً شديداً ضجر منه الشعب وعليه الترس اهالي الاسكندرية من اثناسيوس ان يؤدي خدمات العيد الكبير في كنيسة سيزاريوم الكبرى (اي كنيسة القىصر) وكان قد تم بناءها فقط ولم تدشن فتردد اثناسيوس في الامر لعله انه اذا عمل هكذا يفتح لا عدائه باباً جديداً للاعتراض عليه لان كنيسة سيزاريوم هذه كانت مبنية على اطلال القصر المسيحي سيزاريوم (اي قصر القىصر) وهو قصر قديم للامبراطرة الرومانين وكان لم ينزل ملكاً خاصاً بالامبراطور ما لم يسلم نهايآ الى الكنيسة ويصير تحت تصرفها فاذا صل اثناسيوس في هذه الكنيسة فيكون قد اهان ملكه واحقره اذا هو وضع يده على الكنيسة قبلما تعطى له زد على ذلك ان تأدبة

خدمة العيد الكبير في بناء غير مكرس يعدّ مغاراً للقوانين الكنائية واخيراً قبل اثناسيوس على غير رضى منه وضد ضميرة وصل في هذه الكنيسة فأعتبر هذا ذنبًا جديداً له . وفي سنة ٣٥٥ أعيدت محاكمة اثناسيوس في مجمع شكل في ميلان وذلك بعد لدد وخصام شديد بين اربعة اساقفة قاموا للدفاع عنه وبين الامبراطور الذي اشتد غضبه لان القوم انكروا عليه سلطته الشخصية ومقدراته على معاقبة اسقف رأى ان يعاقبه بنفسه بدون قانون . وقد رد عليه الاساقفة واغلظوا له في المقال حتى قالوا له انهم لم يكونوا هناك ليدرأوا له غلطاته التي ارتكبها ثم اخبروه بصریح المفظ قائلين « ان اثناسيوس بصفته بطير كلاماً لا يحتمل الامبراطور بل الاساقفة فلا تخلط جنابك بين القوانين الكنائية والاوامر الامبراطورية » فاجابهم الامبراطور وهو متباً ، غيضاً (ان ارادتي هي القانون) وفي شهر اغسطس من هذه السنة جاء احد كتابة الامبراطور الى الاسكندرية وحاول ان يخرج اثناسيوس منها بصفة غير رسمية ولكنه لم يفلح . وفي يناير سنة ٣٥٦ وفد سريانوس وهو قائد اسطمبولي ومعه احد رجال الامبراطور المسمى هيلاريوس وطلبوا من اثناسيوس شفاهياً ان يرافقهما فرفض الطلب لعدم وجود امر رسمي من الامبراطور يدها وقد ساعده على ذلك تعضيد جميع الاكابر وشعب له تعضيداً تاماً ولذلك اقسم سيرنافس برأس الامبراطور امام والي مصر ومحافظ

الاسكندرية باز لا يعمل شيئاً ضد اثناسيوس مالم يصله امر من مولاه وبعد مضي ثلاثة اسابيع بينما كان البطريرك اثناسيوس في كنيسة مارتيوناس يؤدي صلاة نصف الليل وهي صلاة تتحم على المصريين آداوها دائماً - حدث هرج وسرج خارج الكنيسة عندما سمع وقع اقدام عساكر احتاطت بها تحت قيادة الجنرال سيرنانوس وهيلاريوس وغورغونيوس رئيس الشرطة . فلما علم اثناسيوس هذا خاطب جماعة الحاضرين ورجاهم ان لا يهربوا هرباً يوجب الخجل ولريمة ولا ان يقاموا بهذه القوة بالقوة

وقد كتب اثناسيوس بعد ذلك يصف هذه الحادثة قائلاً (اما انا بخاست على الكرسي (١) الخاص لي واعزت الى الشمام ان يتلو المزمور ١٣٦ وكان الشعب يردون عليه قاتلين (لان رحمته تدوم للabad) وحيثند حان وقت الانصراف وكنا على وشك الذهاب الى منازلنا ولما كان الظلام خارج الكنيسة حالكا جداً طرق العساكر جميع

(١) كان كرسى البطريرك يوضع دائماً خلف المذبح متوجهاً نحو الشعب وذلك في المكائن المصرية وهذا الكرسي عبارة عن قبة في الحائط - مثل القبة في الجامع - وفي هذه القبة حجر مرتفع يجلس الشعب قادرآ ان ينظر الجالس عليه بسهولة

الابواب (١) طرقاً عنيناً عند ما كان الشمام يرتل من مورالحمد والشكر هذا حتى ان دق الابواب كان يعرف في آذن الشعب الذين كانوا مشغلين بالصلوة والعبادة وكانوا يجيرون لهذا الطارق ليلاً . ولما كان الشعب يرد على الشمام بهذه العبارة (لان رحمته تدوم للabad) ففتح الابواب قبراً ووجهاً الجيش الروماني وهو يصبح صياح النصرة والفوذ كمن افتتح مدينة قوية وكانت سبوفهم مشهورة في ايدهم تلمع في شماع سرج الكنيسة المنكحة عليها . فاندفع العساكر في الكنيسة كالسيل الجارف وهرعوا فاصدين البطريرك الذي وقف وامر الشعب بالفرار بقدر الامكان ولكن بعضهم اجتهد ان يعترض العساكر في طريقهم فدبّحهم العساكر وداروا بهم تحت اقدامهم عند ما كانوا يركضون نحو ردهة الكنيسة لاقبض على القارين . وقد الح القسوس على اثناسيوس بالفرار ولكنه أبي ذلك لعلمه الاكيد بأنه ما دام موجوداً امام أولئك الذين يسعون خلفه ليقتلوه فهم يكتفون به ولا يبحثون عن الآخرين بل يتركونهم وشأنهم حيث ان لا علاقه لهم معهم . وقد كتب اثناسيوس فقرة في هذا الصدد يقول فيها : (قلت في نفسي اني لا اهرب حتى ينجو جميع الشعب ثم وقفت وطلبت من الحضور ان يصلوا الصلاة الاخيرة وحيثند اشرت اليهم بالانصراف حالاً . ولما انصرف اكثر الشعب جاء

(١) كانت جميع الكنائس المصرية في ذلك الحين كلها حصون ومعاقل وفيها كلما يحتاج اليه في وقت الشقيق

الرهبان مع الذين مختلفو امن القوس وحملوني خارجاً)

وينما كان جماعة الا كليروس محملون اثاسيوس هجم العاكر هجنة
قوية على الكنيسة حتى أغمى على اثناء وس من شدة الخوف ولكن
القوس تمكنوا من اخراجهم خلسة لأن الوركان قد ضعف وكاد يطفي
وكان الجندي يضيق ويرغى ثم حاصر كرسي البطريرك الواقع بالهيكل
ولكنه كان خالياً لأن البطريرك هرب والتوجه إلى مكان امين اختباً فيه
قبل ان يعرف اعداؤه بفراره من ايديهم . ففاز اثاسيوس بالنجاة في
الظلام الحالك ولطالما كان الظلام ستراً تجاري خلفه خير الاعمال
وشرها

وقد ظل اثاسيوس في كنيته مدة ست سنوات وهو ينتقل من
مكان إلى آخر لأن رجال الامبراطور كانوا يبحثون عنه ويبشرون العيون
والارصاد عليه في أنحاء القطر المصري . والذي يتصور حاليه وقت فراره
حين اكتافه وجهه وأغبر لونه واسترسل شعره منسدلاً على ظهره يتجدد
شيئاً ببطال الروايات الخيالية التي نقرأها إلا أن اثاسيوس هذا كان
بطريركاً ورعاً شرد من وجه اعدائه وليس محباً واماً هام يبحث عن من
يحبه . وكان يقتات بمخبيه الفلاحين التائف الغير مختمر وإذا عطش اغترف
من ماء النيل براحتيه وإذا أنهكه التعب واختاه السفر جلس على قطعة حصيرة
درة أو افترش الثرى وتوضد التراب

وكانت أحسن الأيام عنده ان يجاس مع جماعة النساء البسطاء

في دير وادي النطرون او في طيبة (الاقصر) حيث يمتنع قليلاً بضوء
الشمس لانه كان يصرف أكثر اوقاته مختبئاً في نفق مظلم في الارض او
منزوياً في احد القبور القديمة المهجورة ولم يترك مغاردة او وهدة الا
وانكش فيها ولم يدع غاراً او ديراً او قرية الا وشرفها بزيارةه وصرف
فيها وقتاً ثميناً من اوقاته هارباً من اعدائه وبغضبه . ولا يوجد برهان
يدل على عظمة هذا الرجل وحسن نواياه مثل جبه في افاده الآخرين
اثناء هذه السنوات الست التي ذاق فيها من الصعوبات مالا يحده العقل
وقاسى فيها من الاتماب والمصائب ما تنوء تحته اعنق الرجال ولكنه مع
كل ذلك لم يقطع علاقته مع الكنيسة يوماً واحداً ولا اقل امرها

ظرفة عين . ولو انه لم يظهر لأحد كل هذه المدة الطويلة الا للذين
كانوا ينتون به الا انه ما فتئ يكتب الاساقفة ويبعث بالرسائل
والاوامر الى كنيسة التي كانت تعتبر اوامره نافذة المفعول كما لو
كانت صادرته منه وهو جالس على السدة البطريركية في الاسكندرية
وقد كتب عدة خطابات اما المؤمن حزين يحتاج الى التعزية او لحاذر
مرتبك تعوزه النصيحة والارشاد عدا عن تأليف ادبية في اهم المباحث
افاد بها ابناء ذلك العصر الذين كانوا في حاجة شديدة الى مثل هذه
الابحاث المفيدة . وكان عمره في ذلك الحين ستين سنة ولذلك لم يكن
له رجاء في العودة الى حالة الراحة والامان كما ان الاخبار التي تصله من
البلاد كانت مما تنقبض منها الصدور وتنقص لسماعها الظروor ولكنه

كان دائمًا يظهر علام الفرج والسرور . ومن المؤكد انه في مدة فراره هذه كتب دفاعاً (١) عن نفسه بعث به الى قسطنطينوس وكتب ايضاً يعتذر عن هروبه والاسباب التي الجاء اليه . ثم انه وضع منشوراً ارسله للرهبان في مبادىء هامة وسطر خطاباً لصديقه الحميم سيرابيون اسقف سيوس واعظم عمل أتاه في هذه المدة كان ذلك الكتاب المهم المتضمن مقالات سابقة الديوك ضد آريوس واتباعه ولما صارت الحيل باثناسيوس خطر على باله ان يرفع دعوه بنفسه الى الامبراطور قسطنطينوس ولكنه عاد فرأى ان هذا الرأي سقيم لا ينتفع فائدة . فانه بعد ان شرع القوم في قتل اثناسيوس داخل أسوار كنيسة ماريوناس ولما لم يفزوا بفرضهم اشاعوا في الاسكندرية بأن اسقفاً من المتمذهبين بذهب آريوس كبدوكي المولد قادم ليتولى منه الرئاسة على كنيسة مصر بدل اثناسيوس وكانت اسم هذا الاسقف جورجيوس (٢) وقد قيل عنه انه قبل تعيينه في الوظائف الكهنوتية

(١) لعلم القاريء الكريم ان كلمة «دفاع» هذه لا تؤخذ حسب معناها المدرج الان في انها خطابات تتضمن المدافعة او الاعتذار عن الخطأ . بل ان هذه الكلمة يعني آخر هو انها كانت تستعمل للدلالة على تبذات محكمة الوضع محبوبة على حكم وامثال ومواعظ شرق

(٢) ان تشابه اسمي غريغوريوس وجورجيوس ولاهم ما من كبدوكيه اوجده خلطًا بينهما حتى لم يقدر البعض على تمييز هذا من ذلك . اما الاخبار المسطورة عن جورجيوس في هذا المتن فلم تكتب هنا الا بعد فحص دقيق في مؤلفات كثيرة اثبتت صحتها تماماً

كان سواراً خادعاً ومقاولاً محتالاً في القسطنطينية ولكن كان أيضًا عالمًا معدوداً . وقد جرت عادة رجال الكنيسة المصرية ان يجعلوا تعين البطريرك في الصوم الكبير فقط ولذلك عينوا هذا الصوم المقدس لوسامة هذا الرجل الذي جاء ليغتصب الكرسي البطريركي انتصاراً حتى انه بعد وصوله للاسكندرية بقليل بدأت نار الاضطهاد تختدم فيها لترق كل من يسير على غير رأي هؤلاء العتاة وكان بين الذين ذاقوا مرارة هذا الاضطهاد سبعة عشر اسقفاً قال عنهم اثنا - يوس انهم نفوا نفياً وعوّلوا معاملة قاسية شديدة حتى ان بعضهم مات في الطريق قبل ان يصل الى منفاه وبعضهم مات بعد وصوله بقليل وبالاجمال فان أكثر من ثلاثة اسقفاً مصرى صار طردهم ونفيهم من البلاد حتى اختفت آثارهم بالمرة ولم يقف لهم أحد على خبر . وقد لاح اثناسيوس على الاعمال التي اتتها جورجيوس فقال : —

« لم ينته اسبوع العيد حتى كنت ترى العذارى العتيقات يطحرن في السجون اضطهاداً وتعذيباً وكان العسكر يربطون الاساقفة بسلال واغلال ويجررونهم في الشوارع وكان اعواز جورجيوس يدخلون مساكن الاتام والارامل عنوة واقتداراً ويسليون ما فيها . وكانوا يدفنون المسيحيين احياء تحت جنح الظلام ثم يضعون علامات على منازلهم ليعرفوها حتى اذا اصبح الصباح نهباً ما فيها بدون مقاوم . ولم يقتصر هذا الشر على الاكليركون فقط بل ان اقاربهم كانوا في خطر لا لذنب بل لا لهم

لهوله الفرائص وذلك بان مزق ظهورهم بعض خضراء قطعت من النخل
بشكها حتى ان بعضهم عملت له عملية جراحية لاخراج الشوك من
لحمه وبعضهم لم يتحمل العذاب والام فات من شدة الضرب اما الذين
عاشوا بعد هذه المصائب فتفىوا الى الواحات الكبرى البعيرية بما فيهم
واحدة من أولئك العذارى ولم يكن هذا العائق يسمح لاقارب الموتى
باخذ جثث موتاهم ولكن لما تعدد له هؤلاء الاقارب بعدم الاحتفال
بموتاهم والامتناع عن تأدية الفرائض الدينية المتادة لهم اذن لهم
أولئك القساة بدهفهم كما وافق اغراضهم حتى يخفوا عن أعين العالم دلائل
قسوتهم وغلاظتهم التي لم تخف بل ظلت ظاهرة في بطون التواريخ الى
الآن . وعلى خطة الجهل والجهل هذه سار أولئك الجانين سيراماً لم يؤثر في
أهل الاعان الصحيح تأثيراً يذكر لأن أصدقاء وأقارب الذين ماتوا في هذا
الاضطهاد كانوا يفرجون ويطربون لأن اخوانهم بقوا محافظين على
إيمانهم الى ساعة موتهم ولو انهم أنسوا واستأوا العدم النصربي لهم بدفع
جثثهم وهو عمل يدل على متنهي الفظاظة والخشونة في صدور المغار
الذين تجردوا من الانسانية فاصبحت أعمالهم واضحة عند جميع الناس
وكان السرون تمر سراعاً وهذا البطريرك اثناسيوس هائماً على
وجهه لا يتر له قرار وهو كل يوم يتقدع خاطره بسماع الاخبار الحزينة
منها ان هوسيوس أسقف كردوغاً صديقه الحبيب صادق في سنة ٣٥٧
على مذهب آريوس وافر على سنته وذلك لانه كان قد اضنه اضعفاء

اقرباؤهم . ولم يقتصر هؤلاء المغضوبون على هذه الفظائع بل تتجاوز زوايا
كثيراً وتدروا في غيهم وتعوهم لدرجة اوجبت نفور الشعب واشمئزازه
من هذه الحالة حتى ان أعضاء الكنيسة لم يطيفوا تأدبة الصلاة فيها بعد
شيء الفصح بل كانوا يذهبون الى المقابر ويصلون فيها لأنهم كرهوا
الصلاوة مع جورجيوس فلما علم هذا الظالم اغاثهم بكره الشعب له حرص
خدمهم ضابطاً من الشيمه المانوية اسمه سباسيان فسار نحوهم ثم نفر من
الجند ملائج بسيوف قاطعة وسهام لامعة وحراب نافذة وهجم على هذا
الشعب المفيف في يوم الرب المبارك الذي قدّمه لعبادته لا لقتل
الانفس البريئة . فلما وصل الى المقبرة لم يجد الا رجالاً يعدون على
الاصابع لأن اكثر الناس كانوا قد عادوا الى منازلهم عند ما مال النهار
فلم يرحم هؤلاء البائسين الابرياء بل أعمل فيهم الصارم البثار وبرهن
بعمله هذا على قسوة وعتو وجداً في مثل هذا التوحش اللئيم . وبعد
ان أودى بالرجال حول نظره نحو اولئك العذارى الطاهرات فاخرم
ناراً تأجج سعيرها وادناهن منها وهددهن بالاعتراف بمذهب آريوس
والانحياز اليه اما هن فلم يعلن عن اعتقادهن ورفضن طلبه هذا كما
انهن احتقرن النار وحسبهم اما زلالاً فلذلك اشتد حنق هذا الوحش الضارى
عليهن بفردهن من ثيابهن وظل يضربن على الوجوه حتى تغيرت
سخينهن ولم يكن أحد يعرفهن فيما بعد . فلقد اتقى هذا الضابط البعض
على نحو أربعين رجلاً وجلدهم بالسياط جلداً تشعر منه الابدان وترتعد

تُقْبَلُ أَضْعَفُ عِقْلَهُ وَكَادَ يَفْقَدُهُ الْأَدْرَاكُ وَالشَّمُورُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَلْبِسْهُ حَتَّى عَادَ
إِلَيْهِ رِشْدَهُ وَسَطَعَ نُجُومُ حَذْفَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ فَأَسْتَرَدَ مَا عَمِلَ وَتَابَ عَنْ هَذِهِ
الْمَهْفُوَةِ الَّتِي ارْتَكَبَهَا فِي ظَرُوفَ صَبَبَهُ إِلَّا أَنْ أَثْنَاسِيوسَ تَأَثَّرَ وَانْفَعَلَ مِنْ
هَذَا الْفَعْلِ حَتَّى كَانَ كَأْنَ سَهَا حَادَّا فَنَذَكَرَهُ خَصْوَصَّاً إِذْ تَلَاهُ فَرَارُ
لِيُوسُوسُ اسْقُفُ رُومَيْهُ فِي سَنَةِ ٣٥٨ وَكَانَ هَذَا صَدِيقَهُ أَيْضًا . وَفِي سَنَةِ
٣٥٨ وَ٣٦٠ وَ٣٥٩ انْعَدَتْ تَلَاهُ مُجَالَسُ آرِيُوسِيَّةُ اسْبَبَ أَثْنَاسِيوسَ
فِي كَيْفِيَّتِهَا وَأَعْمَالِهَا اسْبَابًا مُفَضِّلًا وَذَلِكَ فِي نِبْذَةِ لَهُ عَنْ مُجَامِعِ ارْمِينِيَا
وَسَلُوشِيَا أَظْهَرَهُ فِي كِتَابِهِ مَا عَهِدَ فِيهِ مِنَ الصَّبَرِ عَنْ دَاشْتَدَادِ الْأَذْمَةِ وَاحْتِمَالِ
الضَّيقِ بِنَفْسِ رَاضِيَّةِ وَسَلَاسَةِ الطَّبَعِ وَرَقَّةِ الْجَانِبِ الَّتِي فَاقَ بِهَا الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ وَمِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي احْزَنَتْ قَلْبَ أَثْنَاسِيوسَ وَأَحْرَجَتْ صَدَرَهُ
وَصَوْلَبَهُ إِلَيْهِ يَنْعِي مَارِانْطُونِيُوسَ النَّاسِكَ الَّذِي كَانَ مِنْ أَحْسَنِ الْأَصْدِقَاءِ
لَهُ وَأَقْوَى سَبِيلٍ يَشْتَدِدُ بِهِ أَزْرُهُ . وَالَّذِي زَادَ غَمَهُ وَكَدْرَهُ أَنَّهُ فِي سَنَةِ ٣٦١
بَلْغَهُ اَنْ وَثَنَّا أَصْبَحَ حَالَمًا لِلْعَالَمِ الْمُتَمَدِّنِ بَعْدَ إِنْ اخْتَفَتْ آثارُ هُولَاءِ
الْمُتَوَحِشِينَ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ قَسْطَنْطِينِيُوسَ مَاتَ وَعَقْبَهُ يُولِيَانُوسُ
الْكَافِرُ الْمُلْعُودُ

أَمَا يُولِيَانُوسُ هَذَا فَلَمْ يَكُنْ مُسِيْحِيًّا مَعَ اَنْهُ تَرَبَّى تَرَبِّيَةَ مُسِيْحِيَّةٍ وَالذَّنْبُ
فِي ذَلِكَ كَلِهِ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا مَسْؤُلِينَ عَنِ الْكَنِيْسَةِ الَّتِي صَارَتْ بِوَاسِطَةِ
اَهْلِهِمْ وَشَفَاعَتْهُمْ حَتَّى كَادَتْ تَبْعَدُ عَنِ الصَّيْغَةِ الْمُسِيْحِيَّةِ كَثِيرًا
وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَسْطَنْطِينِيُوسَ اَبْنُ عَمِّ يُولِيَانُوسِ هَذَا كَانَ اَمْبَراطُورًا مُسِيْحِيًّا

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ بَدَأَ حَكْمَهُ بَانَ ذِبْحُ جَمِيعِ أَقْارِبِهِ كَلْهُمْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا
يُولِيَانُوسُ نَجَى مِنَ الْمَوْتِ رَغْمًا عَنِ ارْأَدَةِ قَسْطَنْطِينِيُوسَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ
يَعْرِفُ أَنَّهُ سَيَخْلُفُهُ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكَةِ . وَمَعَ أَنَّ يُولِيَانُوسَ هَذَا كَانَ قَدْ
لَمَعَ قِصْرًا فِي سَنَةِ ٣٥٥ وَهُوَ فِي الرَّابِعَةِ وَالْعَشِرِ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ
تَكُنْ لَهُ سُلْطَةٌ قُطْعَنَى فِي هَذِهِ الْأَنْتَاهِ بَلْ كَانَ كَسْجِينَ تَحْتَ تَصْرِيفِ الْحُكُومَةِ
وَسَبِيلُ ذَلِكَ أَنَّ أُوغُسْطُسَ زَمِيلُهُ كَانَ ذَا نَفوْذًا وَسُلْطَةً بِوَاسِطَةِ تَحْرِيْضِهِ
الْجَيْشِ عَلَى تَعْضِيْدِهِ وَالْبَرِّ خَلْفَهُ وَهَذَا عَمَلٌ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ قَسْطَنْطِينِيُوسُ
فِي حَيَاتِهِ وَلَذِكَ ظَلَ يُولِيَانُوسُ يَنْكِرُ الدِّيَانَةِ الْمُسِيْحِيَّةِ مَدَةً مِنَ الزَّمِنِ
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجَاهِرْ بِأَرَائِهِ هَذِهِ إِلَّا قَبْلَ وَتْ اَبْنِ عَمِّهِ قَسْطَنْطِينِيُوسِ حِينَما
أَطْرَحَ بِرْقَ الْحَيَاةِ وَادْعَ بِأَنَّهُ وَثَيِّقٌ وَأَنْشَرَ ذَلِكَ جَهَارًا حَتَّى أَنَّهُ اَدْعَى
رَسُومَ الْدِيَانَةِ الْوَثِينِيَّةِ مِنْ ذِبْحِ الدَّبَابِعِ الْاَصْنَامِ وَاجْرَاءَ بَاقِيِّ فَرَائِصِهِ وَتَقْلِيَدِهِ
وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ الَّتِي يَهُوَاهَا قَبْلَهُ وَيَجْنَحُ إِسْكَانَهَا مِدِينَةً بَارِيسَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ
مَعْرُوفَةً قَبْلَ اِيَّاهُ بَلْ هَذَا أَوْلَى عِدَهَا بِالْأَدَارِيْخِ . وَهُوَ رَجُلٌ عَزِيزٌ مَاتَ
اَمْرَهُ بَدْوَنَ عَقْبٍ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَنْوَنٌ أَيْضًا . وَقَدْ رَقَ يُولِيَانُوسُ عَرْشَ
الْامْبَراطُوريِّ فِي شَهْرِ نُوْفَمْبِرِ سَنَةِ ٣٦١ وَصَرَفَ أَوْلَى اِيَّاهُ فِي اِقْتَامِ بَعْضِ
نَظَامَاتِ ضَرُورَيَّةٍ فِي الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ . وَفِي عَشِيرَةِ عِيدِ الْمَيَادِ حدَثَ شَفَقٌ
عَثِيفٌ فِي مَدِينَةِ الْاِسْكَنْدَرِيَّةِ أَوْجَدَهُ الْوَثِينِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا فِي ذَلِكَ الْحَينِ
مُعْتَزِّينَ بِقُوَّتِهِمْ مُغْتَرِّينَ بِجَاهِهِمْ وَكَانَ قَصْدُهُمْ مِنْ هَذَا الشَّفَقِ الْإِيقَاعُ
بِشَلَاثَةِ رَجَالٍ تَكَرَّرُهُمْ الْأَمَمَةُ وَتَنَفَّرُ مِنْهُمْ الْخَاصَّةُ وَهُمْ جُورِجِيُّونَ

وديودورس ودرا كونتيوس وذلك لأن جماعة الوثنيين ظلوا مدة طویلة
وهم حاقدين ومتغطرفين من هؤلاء الثلاثة . أما ديودورس هذا فكان
سيحيياً ذاته طالما ومر كخطير في الاسكندرية وحائزًا لرتبة (كونت)
من لدن الملكة الرومانية ويحمل انة يوناني النزعة ولو انه مصرى
الموطن وكانت وظيفته في ذلك الحين مراقبة البناء في كنيسة سizar يوم
الكبرى التي لم تكن قد تمت بعد ولكنه كان قد جرح احساسات
المصريين واغاظهم في انه قطع خصلة الشعر الطويلة المدللة على جوانبها
اما شخصه او ربما استعمل سلطته ونفوذه في اجبار تلامذة الاسكندرية
على هذا العمل . اما غديره الشعر هذه فكانت تستعمل في أيام حكم الفراعنة
وعند ابان صولتهم ومحدهم للدلالة على ابن الملك او ابنته واستعملها
البطالمة اشارة الى ان حاملها من أصحاب المراتب العالية والرتب الرفيعة
وفي ذلك العهد كان يلبسها كل من يفاخر ببنسبته الى المصريين ويقول بأنه

اما درا كونتيوس فاغاظ الوثنيين عند ما كانت مديرآ للضربيخانة
المصرية وذلك لانه نقل مذبحاً وثنياً وجده في دار صك النقود . وقد
زادت التهارات ضد البطريق جورجيوس اكثير من كل الذين سبقوه
كما أنها كانت غربة في مبناتها ومعناها فقضلا عن كونه شدد النكير
على جميع المسيحيين الذين يؤمنون بالإيمان الصحيح ويتبعون عن كل
بدعة حتى انه ضيقاً شديداً . كذلك بعد عنه قلوب الأحزاب

الآخرى بواسطة طمعه الشعبي وجوره الذى لا يطاق . من ذلك انه
اسخط جماعة الاسكندريين في انه اغرى الامبراطور بفرض عوائد
املاك على جميع منازل المدينة كما انه احتكر لنفسه استخراج النطرون
والملح وسعى في نفي زينو وهو طبيب وثني طائر الصيت في الاسكندرية
ثم انه اغوى ارمطيوس^(١) والي مصر على مهاجمة هيكل سيرايس العظيم
وهو اقوى حصن وثني بواسطة ثلاثة من الجندي شاكى السلاح ثم جرد
هذا الهيكل من التمايل الموحدة فيه ونزع عنه كل حلية وزينة ازдан
بها . واخيراً فكر في احتكار وظيفة «الحانوتية» حتى انه لم يكن
يسمح بدفع جثة مالم يحملها رجال عينهم هو لحمل الموتى لغرض الرحى
في القبيح . وكان قبيل ذلك في شهر اغسطس سنة ٣٥٨ ان عامة الناس
في الاسكندرية هجووا على كنيسة مار ديونشيوس حينما كان يسكن
جورجيوس في احدى قبابها وكانوا يقصدون اغتياله فاسرع الحراس
الامبراطوري لانقاذه من ايديهم وبعد معركة شهادة بين الطرفين
انقذوه وهو لا يكاد يصدق بالنجاة ولذلك اضطر ان يترك الاسكندرية
في شهر اكتوبر من السنة نفسها لان خطر الموت كان يهدد حياته
فيها ولم يجد الى هذه المدينة الا بعد ارفض ضمجمعي ريني وسلوشيا^(٢)

(١) لاجل هذا السبب ولأسباب أخرى مهمة قطع بوليانوس رئيس ارمطيوس هذا
(٢) قرر بجمع سلوشيا باغلبية الاراء بعد جورجيوس وكثيرين من الاساقفة
إلى أماكن بعيدة عن مراكزهم ولكن هذا الحكم لم ينفذ ولم يعبأ أولئك به

في نحو شهر نوفمبر سنة ٣٥٩ . وقد ذكر اميانيوس المؤرخ الوثني ان جورجيوس هذا كان يهدى الناس بقوله لهم انه قادر ان يؤذن لهم بالنشي والابعاد عن الوطن وبعد مضي سنة أخرى من عودته الى الاسكندرية بلغ هذا البطريرك الجبار متهى السطوة والقوة ووصل بهم الفطرسة والخلاء اى اهانة الحزب الوثني اهانة قاسية تلخصها لك فيما يأتي :-
ذلك انه كان يوجد مكان في الاسكندرية أهل أمره وتقاضى القوم عنه مرة من الزمن حتى أصبح بوردة اقدار مع انه كان قبل هيكلة لاوتنين حيث قدمت فيه الديانة البشرية ونحر ابن آدم على مذبحه اكراماً للاله متراس أحد آلهة المصريين القدماء وكان الامبراطور قسطنطينيوس قد وهب هذا المكان الحرب الى كنيسة الاسكندرية ولذلك صمم اوديوس حينئذ على بناء كنيسة فيه فكان لا بد له من ازالة ما فيه من الاوساخ والاربة المتراكمة في ساحته فلما شرع في ذلك اكتشف العمال هوة عميقه جداً ملأى بمجاميع البشر وردفات الادميين مما اظهر للناس خطأة الطقوس الوثنية وشناعة هذه الديانة التي كان المتدينون بها يؤدون فرائضها في هذا الموضع . وقد اغتنم جورجيوس هذه الفرصة لتشهيد الوثنية وتقبیح أعمال الوتنين وعليه رتب موكيتا حافلاً بالمسيحيين طاف به كل المدينة وهو رافع الجمام و الرموز الوثنية التي وجدتها في ذلك المكان . فزاد ضجيج القوم وعلا صياحهم سما وهم من ثلاثة المورد وزعاف الشعب الذين كانوا يهربون الى الشوارع للتفرج على هذا الموكب

ومنما زاد الخطب تفاصلاً ان عقلاً الوثنيين استأواً جداً من هذا العمل ولذلك لم يوقفوا او تلك الرعاع عند حدهم او يعنوهم عن الاعتداء والهياج . وقد خاق الخناق عند مبالغ القوم بفؤاد ان سفينه قدمت من القسطنطينية تبني الامبراطور قسطنطينيوس وتبنيه بتبوء يوليانوس الكافر كرسى الملك . فانتشرت هذه الاخبار في الاسكندرية انتشار النار في الهشيم فانفجرت حدة الوثنين كالبركان الهائج وجعلوا يرغون ويزبدون كمن بهم مسة من الجنون ثم هجموا على موكب المسيحيين بسرعة البرق الماطف وجعلوا يصيحون بصوت واحد قائلاً « تبا لك يا حورجيوس » ثم امسكوه هو وديودورس ودراكونتيوس وكادوا يعدمو نفسمهم الحياة في تلك النقطة لو لا ان بعض متشرعى الوطنين تدخل في الامر فنفهم من قتلهم واكتفوا فقط بطرح ذلك البطريرك الشقي في السجن مع رفيقيه وتاخر انفاذ الحكم عليهم بضعة أيام . وكان خبر ارتقاء يوليانوس قد عرفه الناس في نحو ٣٠ نوفمبر سنة ٣٦١ ولذلك بقي البطريرك والاثنان اللذان معه في السجن مدة أسبوع او أسبوعين دون ان يحاكموا لان القضية لم تكن قد رفعت عليهم ولأن جلوس امبراطور جديد قد يُؤخر سير القضايا ويوجلها اكثر ولكن هياج الوثنين وازدياد سخطهم لم يعرف له اول من آخر . فلما جاءت عيادة عيد الميلاد المار ذكرها عظام هذا السخط وصار شغبًا يسر انحداره فهجم على السجن جماعة من سفلة القوم وهي يهرون كالكلاب وجزروا ثلاثة رجال واخرجوهم خارجاً وهم

دصر بونهم بالعصى ويرفونهم بارجلهم فسأعنيناً . وقد وصف يوليانيوس نفسه لهذا العمل بقوله « إن الشعب منزق أحد الرجال الثلاثة أرباً أرباً في أقل من لمح البصر ففعلوا في هذا فعل الكلاب في الجثث » . وقد خلطوا لهم جورجيوس بعذبه ثم وضعوه على جمل وربطوا جثتي رفيقيه بحبل وطافوا بهم في أنحاء المدينة ليعكسوا الاحتفل الذي عمله المسيحيون ضدهم ويحقرون نتيجته واخيراً احرقوها الجثث على شاطئ النهر وذرروا رمادها في الماء وهذا العمل يمدنهاته الا هانه التي يهين بها المصري جثة الميت وعلى هذه الصورة المعكوسه انتهت حياة جورجيوس بطريرك الاسكندرية وهو الذي خلطه جيوب المؤرخ بعد أربعين عشر قرناً مع مار جرجس زعيم الكنيسة الانكليزية واعظم شهيد في الشرق . وقد اتفتح في فصل سبق ان هذا اخطأه بعيد عن التصور لا يحتمله العقل ولا يقام عليه دليل بل ان الصحيح هو الذي ذكرناه المك دون غيره . ومع ذلك يتحمل ان تكون شيعة آريوس قد اكرمت جورجيوس هذا بعد موته وشادت له كنائس كرسها باسمه ولكن هذا لا يثبت كونه مار جرجس بطل الشهداء وعميد القديسين

الفصل السادس عشر

أوبة أناسيوس ووفاته . سنة ٣٦١ للمسيح و٧٧ للشهداء .
ما بلغ يوليانيوس خبر قتل جورجيوس أرسل هذا الامبراطور جواباً

غريب المعنى الى الجمعية الونية في الاسكندرية بدل ظاهره على انه يؤبهم ويلوهم لاجل الجرم الذي ارتكبواه بقتل جورجيوس ورفاقه ولكن يفهم من باطنها أنه يشجعهم على هذا العمل بدل أن يفرض قصاصاً عليهم يكون رادعاً لهم عن غيهم والدليل على ذلك المبارزة الآتية التي ختم بها يوليانيوس جوابه هذا حيث قال : -

« لعدكم من حسن حظكم أنها الاسكندريون ان ارتكبتم هذا الذنب القبيح و مدة حكمنا فعاملناكم معاملة ودية أخوية حتى ما علينا حبنا واحترامنا لجماعة الآلهة و اكراماها واجلالنا لاسي جدنا وعمنا اللذين دعى بهما علينا وها اللذان كما مصر بما فيها مدینتكم الظاهرة . ولكن لا يقرب عن افهمكم ان سلطتنا لا تحتمل الضيم لنفسها وان حكومتنا هذه التي لها ملها من الحول والطول لا يمكنها أن تغاضى عن مثل هذه الدعارة الفائقة الحد ولا تسمح بسريانها بين رعایتها الآمنين ولكنها تداوي سوء الخلق هذا بكل طرق العنف والقسوة بواسطة أدوية ناجمة فعالة . ولكننا بناء على الاسباب التي ذكرناها آنفاً نصرف في مسائلكم الحاضرة تصرف الطيب العاقل الدمت الطباع بان نكتفي بتوجيهكم على ما ارتكبتموه وتحذيركم من المودة لثله مرة أخرى كما اتنا نستعمل معكم أنواع العلاج التي نعرف انها ملائمة لطبعكم لعلمنا انكم لستم فقط ابناء أولئك اليونانيين العظام بل انه ما زال يمثل امامكم ما كان لاسلافكم من صفات الجد وآثار المؤود . وعليه ارجو اذاعة هذه المبادئ .

أن تتوالى عليه المصائب والنكسات . وقد قرر هذا الجمجم أن يقبل في عضوية الكنيسة كل الذين يقبلون قانون الإيمان الذي قرره الجمجم النقاوبي وذكرناه قبل ذلك منعًا لما عساه أن يحدث من شفاعة قديم مصر وانقضى وأيقافاً لسير شحنة تولد من مباحثات ومحاكبات فارغة لاطائل تحتها . أما هذا البطريرك فلم يكدد يتنفس الصعداء من هول النبي والاضطهاد حتى عادت الاهوال تترى عليه وتنصب المصائب تباعًا فوق ألم رأسه فان يوليانيوس الذي أعاده من منفاه عاد فغير رأيه من نحوه ونوى الشر لأنثسيوس (١) لعلمه بـان الـديـانـة الوـثـنية كـادـت تـطـمس آثارـها وـتـغـفو روـسـها ما دام هذا البـطـرـيرـك موجودـاً فـي الـاسـكـنـدـرـية . وقد بلـغـ من حـقـتهـ يـوليـانـيوـس اللهـ لمـ يـعـتـبرـ اـنـثـسيـوسـ نـذـالـهـ يـنـاصـبـهـ العـدـوـانـ بلـ أنهـ اـحـقـرـهـ وـازـدرـىـ بهـ ولـكـنهـ ماـ لـبـثـ حـتـىـ حـنـقـ وـسـخـطـ سـخـطاـ شـدـيدـاـ لـماـ عـلـمـ انـ الـبـطـرـيرـكـ المـذـكـورـ لمـ يـكـدـ يـلـقـيـ عـصـاـ التـرـحالـ فـي الـاسـكـنـدـرـيةـ حـتـىـ أـقـدـمـ عـلـىـ تـعمـيدـ بـعـضـ السـيـدـاتـ اليـونـانـيـاتـ الـلـائـيـ كـنـ وـثـنـيـاتـ وـاعـتـنـقـنـ الـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـةـ وـعـلـيـهـ أـصـدـرـ أـمـرـاـ قـاطـعاـ بـنـيـ اـنـثـسيـوسـ مـنـ الـاسـكـنـدـرـيةـ حـالـاـ بـحـجـةـ انـ

(١) كتب يوليانيوس مـرـةـ إـلـىـ الـاسـكـنـدـرـيةـ قـوـلـ : معـ إـنـكـ بـهـ مـهـمـ كـثـيرـاـ فـيـ انـ نـكـتـ لـيـ عـنـ مـسـائـلـ مـتـعـدـدـ وـاـنـ اـغـنـيـ عـنـ هـذـاـ الـاـهـمـالـ إـلـاـ إـنـ كـانـ بـتـحـتـمـ عـلـيـكـ انـ نـعـبـرـ عـنـ تـعـرـفـاتـكـ مـعـ اـنـثـسيـوسـ عـدـوـاـهـ وـكـارـهـ الـاـوـزـنـ وـانتـ تـلـمـ حـقـقـةـ مـقـاصـدـيـ شـدـهـ هـذـاـ الرـجـلـ الـتـيـ اـخـبـرـتـكـ عـنـهـاـ مـنـ زـمـنـ مـضـىـ . وـعـلـيـهـ فـانـيـ اـقـمـ مـالـهـ سـيرـاـيسـ العـظـيمـ إـنـ لـمـ يـبـرـجـ اـنـثـسيـوسـ الـاسـكـنـدـرـيةـ بـلـ القـطـرـ الـمـصـرـيـ فـيـ اوـلـ شـهـرـ دـسـمـ فـانـيـ اـغـرـمـ جـمـيعـ موـظـقـ حـكـومـتـكـ غـرـامـةـ قـدـرـهـاـ ١٠٠ـ رـطـلـ ذـهـبـ قـصـاصـاـ لـهـ . وـاعـلـمـ اـنـ بـطـيـ،ـ العـقـابـ وـلـكـيـ بـطـيـ،ـ العـفـوـ وـالـصـفـحـ

والـافـكارـ بـيـنـ اـخـوتـنـاـ سـكـانـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ)
وـلـاـ دـيـبـ فـيـ انـ يـوليـانـيوـسـ كـانـ شـدـيدـ الـتـمـكـ بـدـيـنـهـ الـوـحـيـ غـيـورـاـ عـلـىـ عـقـيدـتـهـ غـيـرـةـ كـادـتـ أـنـ تـقـودـهـ إـلـىـ اـثـارـةـ اـضـطـهـادـ صـدـ الـمـسـيـحـيـينـ لـوـلـاـ إـنـ شـمـرـانـ مـثـلـ هـذـاـ اـضـطـهـادـ قـدـ يـوـجـدـ رـبـاطـاـ مـتـيـنـاـ بـيـنـ الـمـسـيـحـيـينـ عـلـىـ اـخـتـلـافـ نـزـعـهـمـ وـتـمـدـ مـذـاهـبـهـمـ فـيـقـوـمـونـ صـدـهـ مـرـةـ وـاحـدـةـ وـانـ هـذـهـ الـعـصـبـةـ الـقـوـيـهـ فـيـ ظـرـوفـهـ الـحـرـجـةـ تـلـكـ قـدـ تـفـقـدـهـ مـلـكـهـ بـلـ حـيـاتهـ اـذـ لـاـ قـدـرـهـ لـهـ عـلـىـ مـقـاـمـهـ وـمـنـاجـزـهـ وـعـلـيـهـ أـكـثـرـ بـاـصـدـارـ أـوـامـرـ كـثـيرـةـ التـضـيـيقـ فـيـ سـبـلـ التـرـبـيـةـ وـالـتـلـيـمـ وـالـضـقـطـ الشـدـيدـ عـلـىـ الـمـقـولـ مـاـ أـعـاقـ عملـ الـكـنـيـسـ وـعـطـلـ سـيرـهـاـ عـطـلـةـ تـدـعـوـ إـلـىـ الـاـسـفـ كـاـ إـنـهـ مـنـ الـجـمـيـةـ الـاـخـرـىـ ضـرـبـ شـيـعـةـ آـرـيـوسـ الـتـيـ كـانـتـ قـدـ قـوـيـتـ ضـرـبةـ قـاضـيـةـ كـادـتـ تـجـهـزـ عـلـيـهـ وـذـكـ لـاـنـهـ أـصـدـرـ أـمـرـاـ بـاـرـجـاعـ جـمـيعـ الـاـسـاقـفـةـ الـذـيـنـ نـقـامـ قـسـطـنـطـيـنـيـوسـ إـلـىـ كـرـاسـيـهـ وـاعـادـةـ أـمـلاـكـمـ الـتـيـ سـلـبـتـهـ الـحـكـومـةـ يـهـمـ .

وـمـنـ أـحـسـنـ الـمـآـتـوـفـ تـارـيخـ هـذـاـ الـإـمـپـاطـورـ الـوـحـيـ دـيـ اـنـثـسيـوسـ وـكـثـيرـينـ مـعـهـ وـمـنـحـهـ مـاـ كـانـ لـهـ قـبـلاـ مـنـ الـسـلـطـةـ وـالـمـكـانـةـ وـكـانـ ذـلـكـ فـيـ شـهـرـ فـبـرـاـيـ سـنـةـ ٣٦٢ـ وـعـادـ مـعـهـ اـسـقـفـاـ فـرـسـيـلـيـ وـكـلـارـيـسـ مـنـ أـورـوـباـ وـكـانـاـ قدـ نـفـيـاـ إـلـىـ طـيـةـ . أـمـاـ اـسـقـفـ كـلـارـيـسـ فـسـارـتـواـ إـلـىـ اـنـطـاـكـيـةـ وـلـكـنـ اـسـقـفـ فـرـسـيـلـيـ بـقـيـ فـيـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ لـيـحـضـرـ اـعـقـادـ الـجـمـجـمـ الـذـيـ شـكـلـهـ اـنـثـسيـوسـ عـقـيبـ عـودـتـهـ مـنـ مـنـفـاهـ وـلـمـ يـحـضـرـ هـذـاـ الـجـمـجـمـ سـوـيـ عـشـرـيـنـ أـسـقـفـاـ مـنـ بـيـنـ كـثـيرـينـ كـانـوـاـ تـحـتـ رـئـاسـةـ اـنـثـسيـوسـ فـيـ أـيـامـ الـاـوـلـ قـيلـ

ال فهو الامبراطوري لم يشمله أوان حاته لا تطبق على منطق هذا المفو
فسمع اثناسيوس هذا الامر في شهر اكتوبر سنة ٣٦٦ وحيثند
أسرع لمقابلة أصدقائه وتزورهم على فراقه لهم وكانت عيونهم تهم بالدموع
وكادت قلوبهم تتزق من هول الوداع الذي لم يعرفوا نهايته ومن ثم
ابحر اثناسيوس في النيل قاصداً الانحاء القبلية . وقبلما ابتدأ كثيراً جاءه
خبر بطريقه سرية يبنبه ان عمال الحكومة يقتلون أثره وينجذون في
طليه للایقاع به وهم على مقربيه منهم ، لو انهم غير ظاهرين له لأنهم كانوا
في منعطف من النهر يخفون عن العيون . فلما علم اثناسيوس بذلك أو عن
الى رجاله وهو بغاية الرصانة والتعقل ان يديروا دفة القارب الذي كان
فيه ويرجعوا الى الوراء ثم سار تواً للاقاء السفينة التي أنفذتها الحكومة
خلفه فلما اقترب منها ناداه الرجال الذين فيها وطلبو معرفة ما اذا كان
اثناسيوس في هذا القارب أم لا فاجابهم هو بنفسه قائلاً (هوذا اثناسيوس
 قريب منكم) وفي أقل من لمح البصر غاب قاربه عن أعينهم فسار الى
شيه وحيث التق مرسه فيها ومنها قصد منفيس (جيزه) برأ وملأ كثي
دليماً كتب الرسالة السنوية التي كانت تكتب في العيد وترسل الى جميع
الكنائس وحيثند ساهر قاصداً طيبة ليختبيء فيها مرة أخرى . وبقرب
مدينة هرس بوليس التق اثناسيوس بثيودورس رئيس دير طبسي (١)

وكان قد جاء ليحتفل بقدومه احتفالاً باهراً اضاً فيه السرج الوهاجة
والصائح المصيحة كانه يستقبل ملكاً ظافراً لا بطريرك امنفياً بائساً . فكث
اثناسيوس مدة من الزمن في هرموبوليس وانطينو واعطاً بكلمة الخلاص
متمنياً واجباته بغاية النشاط والامانة كما لو كان سائحاً يفتقد رعيته لاهاريا
من وجهه اعدائه . لما اتصف فصل الصيف بلغ اثناسيوس ان الخطر
اصبح مهدداً به بتهدده في كل لحظة فمول على المهرب الا ان ثيودورس
واحد رؤساء الاديرة الاخرى توسل اليه ان يكث عندهم ونخبىء في
دير قريب من تلك الجهة اسمه دير تانيا ولكن اثناسيوس رفض الاقامة
ورحل في قارب مغطى ومعه الراهبان اللدان كانوا يرافقانه دائمًا فما كثي
الرياح ولم تجر معهم بما تشتت السفينة فدافوا أنشكال التعب والمناء
في جرها ببطء كثير . وقد ظل اثناسيوس يصل طول اليوم حتى انه لم
ينظر في وجهي رفيقيه وأخيراً أفاق كن كان مغشيًا عليه والتفت نحوها
قائلًا (هبوا انى قتلت) . ثم كف عن الكلام لما رأى الراهبين
يبتسمان في وجهه ابتسامة الفرح العجيب وحيثند أخباره انهم بينما كان
هو غارقاً في صلاته على بطريق الالهام الالهي أن يوليانيوس فارق هذا
العالم ولم يبق له أثر فيه وكان كلامها صحيحاً فان يوليانيوس مات فتيلان
معترك الطعن والضرب في ٢٦ يونيو سنة ٣٦٣ ولا يعلم شيء عن كيفية
قتله ولكن المؤرخين الوثنيين في ذلك العصر لم يشكوا في أن أحد
عساكره المسيحيين أخذته غسلة . وقتلها بطريق الخيانة والغدر . وقد حمل

(١) ان دير طبسي (ومدنه مدينة ايزيس) هو غالباً الدير المعروف الآن بالدير
الابيض على مقربة من سوهاج

له فيما بعد ان يوليانيوس مات من الجروح التي اصابته في ذات اللحظة التي حلم فيها ومن أشهر الاحلام في هذا الماءن واكثرها شيوعا في مصر حلم باسيليوس الذي صار فيما بعد اسقفا لقيصرية كبدوكيه . وقبل ان يشهر يوليانيوس بالكفر والاخاد كان باسيليوس صديقه الشخصي الذي يرکن اليه ولذلك استدعاه يوليانيوس عند جلوسه على العرش الامبراطوري ووجهه ان يقيم عنده ويكون من رجال بطانته خصوصاً وان باسيليوس كان قد تربى تربية حسنة وعرف بالتفوى والتدين بين الناس . ولما كان باسيليوس على وشك اجابة الدعوة التي دعا بهما يوليانيوس سمع عن ارتداده وكفره ولذلك رفض طلبه رفضاً باتاً وعدل عن الذهاب اليه الا قامة عنده . فهاج سخط يوليانيوس لسبب رفضه دعوته واغتاظ غيظاً شديداً فقصد الانتقام من باسيليوس باضطهاد قيصرية التي كان قد عين كاهناً فيها في ذلك الوقت وكتب اليه كتاباً للتعكك وطلب منه مائة رطل من الذهب الوهاج ليصرفها على الحملة التي جردها ضد الفرس وتوعده بذلك قيصرية دكاً وهدمها من أساساتها اذ لم يرسل الذهب حالاً لخار باسيليوس في أمره واستولى عليه اليأس ولم يذر ماذا يفعل في طلب يوليانيوس هذا ولكن عاد فهدي ، روعه عند ما رأى هذه الرؤيا العجيبة وهي انه ظهر له في حلمه ان السموات افتتحت ثم سمع الرب يسوع المسيح يدعو عبده مركوريوس ان يذهب حالاً ويقتل يوليانيوس عدو

ال العسكري على ذلك لعصبه وكرهه ليوليانيوس الذي ساقه الى التصور الى انه أوحى اليه ليقتل عدو الرب ويحقق آثاره . ولكن هذا الرعم لم يقم أدنى دليل على ثبات صحته بل ان كالديستوس أحد رجال حرسه زعم ان شيطاناً مارداً أودى بحياته كما ان المسيحيين قالوا انه قتل بسر الهي لا يدركه أحد . وليس حلم الراهبين اللذين كانوا مع اثناسيوس من الامور الغريبة فقد شاع في ذلك الحين ان اثاماً كثيرين في انحاء مختلفة من الملكة جاءهم الهم روحياً عن موت يوليانيوس في ذات اللحظة التي فيها فارقت روحه جسمه . وقد قتنا فيما سبق ان حلم ثيودوروس الذي رأه في القارب كان السبب الوحيد الذي صد اثناسيوس عن الفرار ونذكر الان حلياً آخر رأه ديدعوس العلامة الاسكندرى الشهير الذي عرفنا عنه انه كان كفيف الصحر حاد البصيرة فلنه حلم حلياً يشبه حلم ثيودوروس وتفصيل ذلك أن هذا العالم الذي كان قد بلغ من الكبر اشده شعر شعوراً عميقاً بالضيق الذي استولى على الكنيسة وحزن لما رأى تقدم الوثنين وانتصارهم عليها فصرف يوماً كاملاً في الصوم والصلوة والابتهاج الى الله الى ان أضناه التعب والسب فاستلق على منضدته في منتصف الليل واستولى عليه النعاس فنام . وفي الساعة الاولى بعد نصف الليل قام من نومه مذعوراً اذ سمع صوتاً جهورياً يناديه قائلاً : - (لقد مات يوليانيوس فقم وكل وبشر اثناسيوس بذلك) . اما ديدعوس فكتب تاريخ اليوم والساعة اللذين رأى فيهما هذه الرؤيا بغاية الدقة فاضحك

خدماته الامتناء . فامتشق سرکوريوس سلاحا صقلا يخطف الابصار
يضو ، لمامنه غاب مرتين اختفى فيما عن الاعين ثم عاد في المرة الثالثة
وقال هائفا (ها قد قتلت الامبراطور يوليانوس كما امرتى يارناه فتفضى
تجبه) لما ظهرت باسيليوس هذهرؤيا استيقظ من نومه خائفًا وجلا
وسار مسرعا الى الكنيسة حيث كان الكهنة وجماعة المؤمنين مجتمعين فيها
ب بدون صلاة نصف الليل فقص عليهم الرؤيا التي رآها فلما سمعوها طلبوا
اليه ان يكتم الخبر دينما يتأكد صحته ولكن باسيليوس لم يقبل مشورتهم
بل اذاع امر حلمه في كل صدق وناد ولم يمض زمان حتى وردت الانباء
تتري بما يثبت صدق حلمه وموت يوليانوس ففرح الشعب لذلك
وطربوا (۱) اذا انت نظرت صورة القديس سرکوريوس الموجودة
في برج مصر تجده سرسوماويده سيفان متقطuman فوق رأسه وترتحت
سباك جواده صورة يوليانوس الشاحبة عليها تاجه مطروحين على

وفي هذه الاثناء لم تغمض اجفان اتباع آريوس في الاسكندرية
ولم يفتوا في عملهم فان واحداً منهم اسمه لوشيوس الذي كان جورجيوس
قد سأله قاتل وفاته عقد النية على مقابلة هذا الامبراطور الجديد في
انطاكية والناس منه بان يدينه في وظيفة البطريرك الحالى وذلك لان
هذه الفئة انهم لا يمكنهم الحصول على غرضهم بالطرق القانونية اذا هم
بقوا في الاسكندرية وعليه سار رهط آريوس للمثول بين يدي يوسفانوس
في انطاكية ويدعم طلب عن مواعلى رفمه اليه . فلما التقوا به عند ما كان

١١) قد أوردنا هذه الحكاية هنا كرواها أبو حا التقاوی الذي يذهب الى
أن بشيلوس كان في ذلك الوقت أستقراً لفيصرية

خواجاً في موكيه للنزة سأله ان من ائتم وماذا تردون فاجابوه انهم
مسيحيون من الاسكندرية طلبوه ثم بن بطريرك لهم فأخبرهم الامبراطور
بانه سبق وكتب لانسوس ليرجع الى وظيفته . فقالوا له ان انسوس
صار من المغضوب عليهم واصبح منفياً من سين ممضت وات رجوعه
لو خليفة لم يكن غرضهم الذي جاءوا لاجله . فلما قالوا هذا قدم أحد
العاشر وقاطعهم الحديث اذ اخبر الامبراطور بان هؤلاء القوم هم
النهاية التي خلفها جورجيون المحروم وعليه سار يوفيانوس في سبيله
دون ان يافت الى طلبيهم ولكنهم اكتروا من الاحاح ورجوه ان يسمع
 لهم ما يلقونه عن انسوس ثم تبعوه في طريقه حتى اضطروه ان يسخط
 على البحارة الذين لم يتذروا فرصة يطروحون فيها لوشيوس في اليم عند
 زرم معهم من الاسكندرية الى انطاكيه

وفي شهر فبراير سنة ٣٦٤ قفل انسوس راجعاً الى الاسكندرية
 ولم يكد الدهر بيسم لمصر بين موته حتى كثُر لهم عن آرائه وصدع
 خاطرهم بوفت يوفيانوس الذي كانوا يرجون منه كل خير وبركة . أما
 سبب موته فهو انه طلب ان يؤتي له بوجاق فيه خم ليدفي غرفته لان
 البرد كانت قارصاً ثم عمد الى فراشه ونام وفي الصباح وجدهم جثة
 بلا روح

وقد خلفه فالنتيان الاول على سرير الملائكة وهو لا علاقه له بمصر
 لانه كان قد عيده بالشرق اني أخيه فالنفس الذي بهمنا أمره وكان آريوسى

المذهب وهي الصفة التي تضمه مع المسيحيين ولو انه لم يكن على شيء
 من الديانة المسيحية فقط . أما اذا أردت ان تعرف صفتها الحقيقة فهي مضطهد
 المسيحيين ليس الا . والدليل على ذلك انه في سنة ٣٦٥ أصدر أمرأ
 ينقى جميع الأساقفة القويي المذهب وهم الذين أعادهم يوليانوس نفسه .
 ولما بلغت هذه الاخبار مدينة الاسكندرية في نحو شهر مايو من هذه
 السنة هاج القوم كثيراً دفاعاً عن انسوس حتى ان والي مصر لم يتجاوز
 وينفذ أمر النفي اليه

وفي شهر اكتوبر ينها كان انسوس مقيماً في زاوية بكنيسة القديس
 ديوبيشيوس علم ان الوالي مصمم على مقاومته والقبض عليه ولذلك اسرع
 بالفرار حتى ان جنود الامبراطور لما هجموا على الكنيسة في ذات الليلة التي هرب
 فيها انسوس بحثوا عنه كثيراً حتى في السقوف والجدران فلم يقفوا له
 على اثر . وقد قال سقراطس المؤرخ ان انسوس مكث اربعه شهور محظياً
 في مقبرة آياه . ولما رأى الامبراطور ان السلام لا يستتب في مصر والحملة
 هذه أجل انفاذ اوامرها الى فرصة أخرى وسمح لانسوس بالعودة الى
 كرسيه وظل مهضوراً بعد ذلك ستين من الزمان آمنة مطمئنة عذارى
 فرائض الديانة المسيحية وتسعى في انتشارها تحت رعاية بطريركها انسوس
 وفي خلال هذه المدة حدث شغب من الوثنيين في الاسكندرية في غرة
 يونيو سنة ٣٦٦ حرقت بواسطته كنيسة سردار يوم الكبدى التي كان قد تم
 بناؤها في سنة ٣٦١ كما علت في الذي مرّ بك

الضفت له اهلية سيداروس واستحقاقه فرقاه الى ابو روبيه مهمة جداً وبعد
هذا العهد حرم اثناسيوس رجلاً قاسياً عاتياً هو حاكم ليبا «المغرب» ثم
ارسل ملشوراً الى رؤساء الكنائس على اختلاف انواعها يذكّر فيه هذه
الامر ويفصح عن الاسباب التي دعته الى ذلك . وقد صرف اثناسيوس
الخمس سنوات الاخيرة من عمره وهو يوادي واجباته بكل تأنٍ وتوضع
وكان لا يفتنه بمحاطب اساقفة جميع الكنائس الخارجية عن دائرة سلطته
ويتوادّ معه خصوصاً مع باسيليوس اسقف قيصرية كبدوكية وصاحب
الرؤوس المشهورة . فكانت اكثر خطاباته تختص بالشيع المختلفة وتقاوم
مبتدعها سينا بدعة ابوياناريس ومرسلومن من عنكيرة «في اوروبا»
وفي سنة ٣٧٣ انتهت حياة هذا البطريرك العظيم وهي حياة طويلة
نافعة قضتها في اهم الاعمال واكثرها منفعة لقدم الديانة المسيحية ونشر
بشرى الخلاص بين الكثرين . وبعد ان بين بطرس خليفة له نام في
الرب بسلام وقد جلس على السدة البطريركية القبطية ستة واربعين سنة

الصل السابع عشر

التحار الامة المصرية - سنة ٣٧٣ للمسيح و ٨٩ من الشهدا،
اشرنا في فصل سبق الى النتائج السيئة التي نتجت من حروب المصريين
في سبيل الحرية والخلاص من ربقة الذل وذكروا ايضاً عافية الاختهاد
اثارة ديوكلينوس في بدأة القرن الرابع وكيف ان هذين العاملين اثرا

وفي سنة ٣٦٢ لما رسم لوسيوس الاريوسي رسامة غير قانونية خارج القطر المصري فصد ان يستحوذ على كرسي الاسكندرية بغير حق فطمعت انظاره لمسند البطريركة الذي طالما اشرأبت نحوه الاعمال وحاول الطامعون الوصول لسديمه العالية وظن لوسيوس هذا انه لا بد وان يأخذ هذه الوظيفة فسرّاً او بصدق من الامبراطور . فلما وفد لوسيوس على الاسكندرية سار قاصداً منزل امه التي كانت لا تزال على قيد الحياة لم يكدر خبر وصوله يطرق الا ذان حتى احتاط باليت جمور زبد كالبحر لآخر فلم يسع الوالي الا ان ارسل بعض الموظفين يأمرونه بالخروج من القطر المصري حالاً ولكن هؤلاء الموظفين عادوا واجروا الوالي به ذلك على الخواجه من منزله فهو يعرضه للقتل . يابدي جماعة الثائرين اكتزهم من حرافيش الوثنيين وعليه انفذ الوالي كوكبة من الفرسان حملتهم على الاكف بين ضجيج الفوضى وهديرهم ثم وضعوه في اليوم التالي في سفينة والخرجوه خارج القطر ليقتدوا حياته . من الموت الذي شاهده معنده

وق سنه ٣٦٨ بدأ اثاسيوس بترميم كنيسة سيزاريوم التي حرقها
وفي السنة التالية وضع أساسات كنيسة أخرى دعى باسمه فيما بعد .
وفي هذا الوقت طلب أهالي مدینتين في مقاطعة بنتاوليس تعيين أسقف
لهم يختص بالنظر في شؤونهم ثم ألحوا على أسقف الابروشية التابعين لها ان
يرسم لهم شابها عالمانيا اسمه سيداروس . فعندئهم اثاسيوس بروح الوداعة
على نشوذهم هذا لأنهم لم يطلبوا الطلب منه رأساً وبعد ان خص الامر

عندكم هو آر يوس» - لما ان ثقل عليهم عب هذه الـوامل وـماـؤـثراتـ التي
اوـضـحـنـتهاـ هـنـاـ اـوـجـدـ فيـ هـذـهـ الـاـمـةـ جـنـوحـاـ الىـ الـعـزـلـةـ وـالـابـتـعـادـ عنـ هـذـاـ
الـعـالـمـ بـدـونـ اـهـتمـامـ فـيـ اـسـرـ الـآـخـرـينـ وـلـذـاكـ هـرـعـ خـيـارـ الـقـومـ تـبـاـباـ وـفـرـادـىـ
فـرـادـىـ إـلـىـ الـأـدـيرـةـ وـمـغـافـرـ الـأـرـضـ طـلـبـاـ لـلـوـحـدـةـ وـلـاـنـفـرـادـ وـلـمـ يـبـقـ فـيـ الـبـلـادـ
إـلـاـ الـذـيـنـ لـاـ يـهـمـ سـوـءـ كـانـ مـسـيـحـ الـمـلـاـمـ اـنـسـانـ سـوـءـ كـانـ عـصـرـ ذـيـلـةـ
مـهـانـةـ اـمـ عـزـيـزةـ حـرـةـ مـاـ دـامـوـ قـادـرـيـنـ عـلـىـ زـرـعـ رـضـمـ وـتـفـلـيـحـهاـ وـتـصـرـيفـ
تـجـارـتـهـمـ وـتـرـوـيجـهـاـ وـالـسـلـامـ
وـلـيـسـ غـرـضـنـاـ مـاـ تـقـدـمـ اـثـبـاتـ اـنـ كـلـ الـذـيـنـ شـادـوـاـ لـاـدـيرـةـ وـبـدـوـاـ
الـصـوـاعـ وـالـمـنـاسـكـ فـيـ الـلـارـضـيـ الـجـدـبـاهـ يـبـتـ سـيـنـةـ ٣٦٠ـ وـ ٣٩٠ـ كـانـواـ
مـدـفـوـعـيـنـ بـيـادـيـ عـالـيـةـ شـرـيفـةـ وـلـاـ هـمـ كـانـواـ مـنـ خـيـرـةـ الـرـجـالـ وـ اـحـسـنـهـمـ
فـيـ مـصـرـ بـلـ كـانـ يـاـنـهـمـ نـفـرـ مـنـ ذـوـيـ الـاـمـانـةـ وـلـاـيـ اـنـ كـاشـاسـيـوسـ الـكـبـيرـ
مـثـلـاـ كـاـ كـانـ يـيـنـهـمـ كـثـيـرـوـنـ غـابـتـ عـنـ اـسـمـاؤـهـمـ آـلـاـنـ كـاـ وـاـيـنـراـوـحـوـنـ يـيـنـ
الـدـيـنـ وـالـدـنـيـاـ اـذـبـقـوـاـ فـيـ الـاـدـيرـةـ كـرـهـيـانـ وـلـكـنـهـمـ كـانـواـ يـهـمـونـ اـيـضاـ وـاحـبـاتـ
الـحـيـاةـ وـضـرـورـتـهـ اـحـتـىـ وـنـوـافـلـهـاـ وـكـالـيـانـهـاـ .ـ اـنـاـ الـحـقـيقـةـ الـتـيـ نـرـيدـ اـيـضـاـ حـبـهاـ
الـاـنـ هـيـ اـنـ اـكـثـرـ الـذـيـنـ صـارـوـاـ رـهـيـانـاـ وـرـاهـبـاتـ وـاـكـثـرـ الـذـيـنـ فـلـوـاـ مـشـلـ
اـنـسـاسـيـوسـ فـيـ اـنـهـمـ لـمـ يـخـلـوـاـ عـنـ وـظـالـقـوـهـمـ بـلـ اـسـتـهـنـواـ عـدـمـ الزـوـاجـ اـسـبـبـ
خـيـقـ ذـالـكـ الـوقـتـ وـمـصـائـبـهـ .ـ اـنـ مـعـظـمـ هـوـلـاءـ الـمـتـبـلـيـنـ كـانـواـ مـنـ اـحـسـنـ
الـمـصـرـيـنـ طـبـاعـاـ وـاـوـسـعـهـمـ عـقـلاـ وـاـغـزـرـمـ مـادـةـ وـهـمـ الـذـيـنـ سـاـهمـ هـذـاـ الـانـطـاطـ
اـلـىـ نـذـرـيـتـهـمـ فـلـمـ يـخـلـفـوـاـ الـوـلـادـاـ بـعـدـهـمـ يـدـافـعـوـنـ عـنـ بـلـادـهـمـ اوـعـىـ الـاقـلـ

تأثيراً مذموماً في صفات الامة المصرية وطبعها حتى أُوجدو فيها نوعان
المحس والسوداء غير اطوارها وقلباً سجايها . واقاماً للفائدة وتكلمة لهذا
المبحث نأتي الان على شرح الموضوع الذي جعلناه عنواناً لهذا الفصل
وسيتناوله تختار الامة المصرية او هو انحطاطها وزيف قرها وهو عنوان قاسٍ مؤلم
ولكن لا مندودة لنا من تسليمه اذا كنا نتوخى الحقيقة ونجده في طلبها
ولو وخرتنا وأدمت القلوب . فهذه الحقيقة المؤلمة هي ان الخلل الذي نطرق
في طباع المصريين وصفاتهم لم يزل موجوداً الى يومنا هذا بل انه زاد وتفاقم
شهره عما كان عليه في هاتيك الايام الاولى . وما يحمل ذكره في هذا المقام
ان الاقباط - كما يسمون المرء الان لعدم رغبتهم في اطلاق كلية مصرى
عليهم - كانوا في ذلك العهد لا ينتظرون الى جامعتهم ككتيبة او كآمة
 ولم يكونوا يفترقون بين مذهب وآخر حياً منهم في حفظ الرابطة القومية
ومحافظة على الوحدة الجنسية لا المذهبية . ولكن لا اشعروا جذوة حرب
يرجون من وراءها استقلال وحرية فا فقدتهم كل شجاع مقدام ودمب لوطنه
غيمور . ثم ان الاصطهاد الذي بدأ به تاريخ الشريداء اضعاف من هذه الامة
ما يتحقق لها بعد ذلك الحرب من روح النقوى والمعنفة بواسطة النزابات المريعة
التي وقعت عليها . ولما ان ختمت هذه الفصول الحزنة بظهور شيعة آريوس
وانتشارها وهي التي اجهزت علي ما يتحقق فيما من شرم العاطس والحزم الشديد
وابداته يأس وقنوط من هذا العالم الحاضر حتى صار الاقباط جبئذ يظلون
عن نهاية العالم قد اقتربت منذ ظهر المسيح الدجال « وكان المسيح الدجال

يأكلون اللحم مطلقاً وكانوا ينكرون على الدرس واستيعاب العلوم والمعارف ولكن لما بدأ المصريون المسيحيون في القرن الثاني باقتناء آثار آباءهم الأولين وادخال مبدأ الرهبنة في الديانة المسيحية لم ينسجوا على منوال الآباء والاجداد بل ساروا على غير خطتهم في أنهم كثيراً ما احتقروا أجسادهم وحسبوها أدنى من أجسام الحيوانات وأفظع خذ لذلك مثلاً مار آمون الذي أُسس دير وادي النطرون كان يزعم أنه عيب وخجل أن ينظر الرجل التي جسمه عارياً من الملابس وعارض أن يخلع ثيابه عنه ولو وقت الاستحمام . كذا اثنان-يوس كان يقول إن الاستحمام عادة قبيحة مستحبنة لا توافق الآداب (مادام الإنسان يقف مجردآ من الملابس كما قال آمون) فلذلك صارت أجسام أولئك الرهبان السماح في حالة من القذارة والواسخة تشمئز منها تقوذ صبيان الأذقة في البلاد المتقدمة وهم كانوا يحسبون هذه الواسخة علامة على الرهد والتقوى وأشاروا للبر والقداسة . وعلى هذا القياس صارت النظافة التي كان يعبدوها المصري أو يعبد جسمه بها ترفهاً وتنعماً مع أنه كان قبلًا ينفر من القذارة ويستعيد بالله منها . ولو اقتصر الأمر على وساخة الجسم لكان الغرر سهلًا هيناً بل تعداده إلى وساخة المقول أيضًا فان أكثر الرهبان انكرروا على انفسهم الدرس والمطالعة وامتنعوا عن مزاولة العلم والمعرفة وكانت النتيجة أن النهاية والخذق وحدة الذهن التي كانت طبيعية في الأمة يتوارثها الأحفاد عن الاجداد ضاعت منها بواسطة نظام الرهبنة ولم

يبق لها شيء من المزايا العقلية السامية . نعم قالوا إن بعض الاديرة
صار في القرون الوسطى مدارس للعلم ولكن إذا شئت الحقيقة التي لا
سرية فيها أنها كانت منسخاً يتعلم فيه الرهبان سبع الكتب التي بقيت
لهم من الأعصر الأولى وكانوا يصرفون أوقاتهم وهم يكتبون ويكتدوون
في الكتابة باليد وقل أن يستبدلوا بما كانوا يكتبون

أما الأسباب التي حللت الكثيرين من أنبياء المصريين وأشرارهم
إلى نذر أنفسهم للرهبة فهي كثيرة متعددة نذكر لك بعضها ومنها
يتضح أن الذين حافظوا على مبادئ هذا النذر هم زهرة رجال الأمة بينما
السلة منهم نكثوا بعدهم وكذبوا فيما وعدوا ولكن نتيجة الفريقين كانت
واحدة هي ضرر الأمة والتكليل بها وأول باعث على هذه الرهبة هو القانون
الذي وضعه قسطنطين سنة ٣٢٠ وفيه يعنى العزاب والذين بلا نسل من
دفع الفرائب المفروضة على غيرهم وهذا القانون حدى بالكثيرين من
محبي النفس وللمال إلى الامتناع عن الزواج بل ساعدتهم على الشر والفساد
إذ جاء في فقرة أخرى منه أن المقاطع يرون على مصاريف الحكومة
ومنها أن الرهبان كانوا يغفون من الخدمة العسكرية في مدة حكم قسطنطين .
ولكن السبب الأكبر الذي يعزى إليه انحطاط الأمة المصرية هو تغيرها
أو هو سيرها للخلف مع يأس استولى عليه الواقع عندها اسلاماً واستيادة
والنتيجة أن هذه الأمة دافت من المصائب وفاقت من عوامل
التأخر ما كان يمكن لملاثتها . وليرأ القاريء الكريم بعضاً من كتابها

ولا يأس : - قامت هذه الأمة فيما مضى وأوقفت نفسها وتقاسما
للحجـاد في سبيل الحرية تحت راية أخـيليوس سنـوات متـوالـية ولـكـنـها لمـ
تـنجـحـ . وـعـقـبـ ذـالـكـ اـنـ الـرـومـانـيـنـ الـدـيـنـ كـانـ الـمـصـرـيـونـ يـبغـضـوـهـمـ
شـدـدـوـاـ عـلـيـهـمـ وـخـاـيـقـوـهـمـ أـكـثـرـ مـنـ ذـيـ قـبـلـ . ثـمـ لـمـ قـدـلـوـاـ مـنـ
استـقـلالـ وـطـنـيـمـ التـفـتوـاـ إـلـىـ اـمـورـ دـيـنـهـ الـذـيـ اـهـرـقـواـ دـمـاءـهـ فـيـ سـيـلـهـ
لـلـمـحـافـظـةـ عـلـىـ مـعـقـدـهـ الـأـصـلـيـ وـلـكـنـ هـذـاـ لـمـ يـنـفـعـهـ شـيـئـاـ وـلـمـ يـبـعـدـ عـنـهـ
الـشـفـاقـ وـالـخـنـاقـ إـذـ لـمـ تـعـضـ عـلـيـهـمـ عـشـرـ سـنـوـاتـ فـيـ حـالـةـ السـلـامـ وـالـرـاحـةـ
لـيـعـلـمـوـاـ عـلـىـ اـعـلـاءـ شـأنـ الـكـنـيـسـةـ حـتـىـ ظـهـرـتـ لـهـمـ شـيـعـةـ آـرـيـوسـ بـظـهـورـ
الـقـوـىـ الـمـتـصـرـ وـاـنـتـشـرـتـ بـمـرـعـةـ زـائـدـةـ وـكـانـ تـنـتـجـهـاـ اـنـ الـكـنـيـسـةـ
الـمـصـرـيـةـ وـقـعـ عـلـيـهـاـ الـاضـطـهـادـ وـاصـابـهـ الضـيقـ الشـدـيدـ مـنـ قـوـمـ يـدـعـونـ
أـنـفـسـهـمـ مـسـيـحـيـنـ وـهـمـ لـاـ يـعـرـفـونـ الـمـسـيـحـ . وـبـنـاـ كـانـ الـمـسـيـحـيـوـنـ يـظـنـوـنـ
أـنـ كـلـ هـذـهـ الـمـصـائـبـ أـنـهـاـ هـيـ حـيـاةـ صـيـفـ عـنـ قـلـيلـ تـنـقـشـ خـابـ ظـنـهـمـ
عـنـدـ مـاـ عـلـمـوـاـ اـنـ وـارـثـ الـفـرـشـ بـعـدـ قـسـطـنـطـيـنـ وـاـلـادـهـ هـوـ يـوـلـيـاـنـوـسـ
الـوـثـيـ عـدـوـ جـمـيعـ الـمـسـيـحـيـنـ عـلـىـ اـخـتـلـافـ مـذاـهـبـهـمـ وـهـوـ الـذـيـ اـذـاقـهـمـ
اـشـكـالـ العـذـابـ وـالـعـنـاءـ . وـمـاـ يـدـعـوـ اـلـعـجـبـ وـالـاسـتـغـارـ اـكـثـرـ مـنـ
الـذـيـ مـرـدـنـاهـ كـلـهـ اـفـكـارـهـ اـنـ نـهـاـيـةـ الـعـالـمـ قدـ اـقـرـبـتـ وـهـوـ فـكـرـ يـطـرـقـ
عـلـىـ بـالـ كـلـ اـمـةـ تـسـاوـرـهـاـ الـاحـزـانـ وـتـنـابـهـاـ الـحـيـرـةـ وـالـذـهـولـ وـلـذـكـرـ
الـسـتـوـىـ عـلـيـهـمـ الـقـسـادـ وـفـشـىـ بـيـنـهـمـ الـشـرـ وـصـارـ كـلـ مـنـهـمـ يـقـولـ فـيـ نـفـسـهـ
(لـنـاـ كـلـ وـنـشـرـ فـانـاـ عـدـاـ نـوتـ) وـقـدـ تـكـارـ هـؤـلـاءـ الـمـسـدـونـ وـمـاـ

تسليم البلاد (١) في الوقت الذي كان فيه الاتقىاء الصالحون يفرون هاربين من عالم الشرور هذا للا يصيّبهم البلاء في هلكهم وظلوا يصلون بلا انقطاع وقد صلبو الجسد مع الاهواء والشهوات انتظاراً لمحبيه المسيح.

في هذا القرن الرابع الذي فشأ فيه داء الرهبنة اصاب بسيبه مصر ضرر لم يصيّبها من قبل وذلك للجهل والغفلة المذمومين كانوا يستويان في الصالح والطالح مما - فلو ذكرنا للفاري مقدار الرهبان والراهبات الذين تسکعوا فلا يكاد يصدقه لولا ان المؤرخين قد اثبتوه بافسيهم لأنهم شهدوا شهادة العين عندما جابوا خلال الديار المصرية ليفروا على هذا الامر الغريب بانفسهم

وحدث في السنة التي توفي فيها البطريرك اثاسيوس ان جماعة من الطليان الذين كانوا مجتمعين في اكوابيا ليعيشوا كرهبان لم ترق لهم هذه المعيشة ولم يروا فيها شيئاً من الصواب فقضوا جهودتهم هذه وتفرقوا في جهات مختلفة . ومن شهر هولاء الشان دوفينوس وجيرروم وتد كانوا صدقيين حبيسين منذ نعومة اظفارها كذلك عرفت هذه الجمعية بـ ميلانيا كانت ترأس اعمالها وتدبر حركتها وهذه

(١) ان اداء الذين لم يصيروا رهباناً في ذلك مصر قد فسدت فادأ بينما تناقص عدد الاهالي لسبب الفقق والعهر الذي عم بينهم كما ان الانجلياء كانوا يجمعون ثروتهم طرق النصب والاحتيال بدل الجد والاجتهد حتى ان الغني كان يعرف بأنه اما ما كر غشاش او وريث خبيث محظوظ

اسبابة النزعة طيبة الارومة . وكان عمر هذه السيدة اثنين وعشرين سنة ورزقت في خلاماً بثلاثة اولاد اصيّبت فهم بـ صيبة جل . كادت تودي بحياتها ذلك ان زوجها وثنين من ابناءها ماتوا بمرض عضال معد فاء، ببرت هذه السيدة الاسيفة ملك لصيبة قصاصاً لها لانها تزوجت ولم تترهبن ففقدت النية من ذلك الحين على ان تعيش عيشة الزهد والامالة ولم يكتفها ذلك فقط بل قامت تزادي ضد الزواج وتحذر من عوائقه وتشن غارة صماء على كل من يقول به . وقد التقت بروفينوس وكان له من العمر حينئذ سبعة وعشرون سنة فوجده مصرياً على الذهاب الى مصر لدرس احوال الرهبنة واستطلاع جلية امرها فيها فتركت ابنها الوحيد في ايطاليا تحت رعاية وصي اقامته له و جاءت مع روفينوس واقامت في مصر بينما كان روفينوس ومعه اثنان او ثلاثة من رفقائه يجولون في وادي النيل . فتقدىن آثاره الغريبة و زائر بن جميع الاديرة والمناسك لمعرفة حقيقةتها و درس نظاماتها و احوالها و اوفد روفينوس على اوكيبرينخوس وهي المدينة التي قلنا في اول هذا الكتاب ان السمك كان فيها و معبودها وجد جم اهالي اقر اختطوا خطة الرهبنة فيها و ان كثيرين من الرجال تركوا هذه المدينة و اعتزوا الاديرة والمناظر المنفردة . وقد قال اسقفها روفينوس انه يوجد في هذه المدينة اكثر من عشرة آلاف راهب وعشرين ألف راهبة . ومن غير الزمان ان المايا كل السامقة والمعايير الفسيحة التي كانت مختصة بكلمة الاوثان في عهد المصريين القدماء اصبحت الان

الدين والآداب حتى قيل ان ثيابهم كانت نظيفة كما كانت قلوبهم طاهرة
ولما برح روفينوس ورفقائه هذا الدير الشهير أوفد معهم رئيسي الذي
اشتهر بالكرم والبشاشة ثلاثة من الترجمة كاد لا يرشدوزهم في الطريق
ويوسعون لهم ما يغمس عليهم معرفته فساروا لافتقد الاديرة الكثيرة
في مدن لم يرد ذكر اسمائها في ما كتبوه عن هذه الاديرة ثم زاروا كثيرين
من الناس المنشودين الذين كانوا معترضين في خلواتهم
ويبن هذه الخلوات خلوة قامت على قمة جبل اقمر خلف مدينة
انطاكية يصل اليها بطريق وعرة ضيقة حتى ان الذي لم يطأها من قبل
لا يكفيه المرور فيها . ففي هذه الخلوة القفرة عاش راهب اسمه الياس
وحيداً في مغاربة واسعة الاطراف ولم يكن له مؤنس فيها وظل على حالته
هذه نيف وسبعين سنة كما قال الرواد الذين زاروه وكتبوا عنه كما انهم
أبدوا انه بلغ من العمر ١١٠ سنتين عندما زاره روفينوس وكان قد اصيب
بالفالج فاهزله واصممه . ولم يشهد أحد من جيرانه بأنه راي الياس خارج
هذه المغاربه او انه سكن في مكان آخر غيرها ثم وقد اشاعوا عنه انه شفى
مرضى كثيرين . وقد اتضح لروفينوس وزملائه ان طعام هذا الراهب
كان ثلاثة أوقات من الحبز يومياً وثلاث زيتونات كل مساء ولما رأه
هؤلاء الشبان السائرين اندهشوا ونظروا اليه نظرة المحبة والاجلال لما
شاهدوه فيه من الصمت والسكوت ثم رجموا ادراجهم اى الريف بعد
ان عانوا مشقة وتعباً في هذا السنر . وقد زاروا ايضاً الخلوة التي كان

اديرة ومتاحف الراهبان المسيحيين عدا عن ائتي عشرة كنيسة اخرى بنيت في هذه المدينة لهذا الغرض . وعند مجيء روفينوس ورفقائه الى افليم القوم رأى ان جل سكانه يعيشون رهباً ولكنهم كانوا يختلفون عن الاخرین في انهم اشغلو كفلاحين لزرع الحنطة وكانتوا يرسلون حصول اراضيهم رأساً الى الاسكندرية . وعلى هذه الحالة سار اهالي منفيس وبالبلion وفي دير طبسي اسوهاج كان ثلاثة الاف راهب يعيشون كلاموات تحت رئاسة آمور الذي خلف ثيودورس في زمامه هذا الدير وقد رسمه انسانيوس اسقفنا عليه وكان جورجيوس اسقف كبدوكيا وضيقه ونفاه اليه . كذلك كان الحال مع ابولونيوس رئيس دير على مقربة من هرموبوليس (المنيا) يحتوي على خمسة راهب كان انسانيوس قد سماه اسقفاً بعد ما اضطهدته جورجيوس اسقف كبدوكيا المذكورة . وقد ترہبن ابولونيوس هذا وهو الخامسة عشرة من عمره ولكنه كان من اصل طيب ذاتيرة ونشاط فانه مع اهال اوپلائه في امر تربيته صار مجده واجتهاده من مشاهير العلامة الاعلام في ذلك الحين وقد افاد روفينوس فائدة عظيمة في انه اعاليه بحالة الديانة المسيحية في ذلك الوقت كما انه اسهب له في بيان ماهية ديانة المصريين القدماء وطبقوسها واحتفالاتها والرموز الصحيحة التي كانت تستعمل في الزمن الغابر للدلالة على الحيوانات المقدسة وكان ابولونيوس يدقق كثيراً على الراهبان الذين تحت رئاسته ولم يكرر يسمح لهم بالاهمال في اتمام مواجب الحياة وضرورياتها والتخلص بمحنة

يقطنها ثيون وهو راهب اشتهر بعلمه وتألّمه في اللهم اليونانية والمصرية

واليونانية ايضاً

ومن اشهر هؤلاء النساك والزهاد يوحنا الasioطي الذي كان يقطن صومعة على املاكه من تفعة اشتهر بحكمته وعلمه حتى ان القائد الروماني الذي كان معاذراً في اصوان كان يستشيره في الامور السياسية لاعتقاده

برحاته عمله ورجحان رأيه كما ان الامبراطور ثيودسيوس كان يسير على رأيه ويتدبر بشكاة فكره . ولم يقتصر يوحنا على الرهبنة والعزلة فقط بل كان يجمع الصدقات ويزعها في مدبرية اسيوط ذلك لأن جميع الكائن هنا اتفقا في ما ينضم على ان يقدموا له عشر ايام فكان يوحنا يجمع هذه الاعشار ويزعها على الفقراء والبائسين وقد سار هذا المشروع سيراً حثيثاً وبزغت شمسه من اسيوط فانتشرت اشعه على كل مصر ومنها عم جميع الملائكة المسيحية . وقد اسند المؤرخون مبدأ تقويم الاعشار عند الميسحيين الى هذا الراهبasioطي . وبعد هذا العهد كانت هذه الاعشار تجزأ الى ثلاثة اقسام - احداها روت الاكليروس وثانية لمعارضة الكنائس وثالثة للفقراء والمعوزين . وعلى هذه القاعدة سارت الكنيسة القبطية في هذه الايام فانك اذا دخلت الكنيسة المرقسية الكبيرة الان ترى ثلاثة اطباق للصدقات يحملها ثلاثة اشخاص يدورون بها اثناء تأدبة الخدمة واحد خلت الاخر وكل منهم عديده جماعة المصلين الذين اعتادوا ان يدفعوا اثلاث دفعات واحدة لا كليروس واحدة لمصاريف

الكنيسة والاثاثة للفقراء

أما الرهبان في مصر فكانوا على ثلاثة أنواع - النساك وهم الذين يسكنون الأديرة جماعات وفيات . والزهاد وهم الذين يعيشون في الخلوات والصومع والمتبتلون وهم الذين يجتمع أثنان أو ثلاثة معاً ويسكنون المدن ولكنهم لا يتزوجون

ويعد ان تمت سياحة روفينوس ورفقائه في وادي النيل صداعاً دعوا قاصدين وادي النطرون فلما وصلوه وجدوا فيه أكثر من خمسين ديراً فيها ما يزيد عن خمسة آلاف راهب وهم مثل رهبان هرموبوليس في أنهم من أحسن النساك وأكثرهم نظافة ومعرفة . وقد علمنا ان أول من وضع أساس الأديرة في وادي النطرون هو ماراماون الذي مات حوالي سنة ٤٥٠ واعقبه في الرئاسة مكاريوس . ولا يغرب عن ذهن القاري انه كان يوجد في مصر قدیسان يسميان بهذا الاسم وكانا معاصرین لبعضهما ولاجل التفريق بينهما في الاسم سمي أحدهما مكاريوس الاسكندرى والثاني مكاريوس المصري . وقد يصعب جداً التبييز بين الاعمال التي قام بها هذان من ذاك أو معرفة ما أثاره الواحد من الآخر فضلاً عن انه كان يوجد كثيرون يسمون بهذا الاسم . أما مكاريوس الذي أتى ذمالة ساركى الكنيسة القبطية في هذه الأيام فانك اذا دخلت الكنيسة المرقسية الكبرى الان ترى ثلاثة اطباق للصدقات يحملها ثلاثة اشخاص يدورون بها اثناء تأدبة الخدمة واحد خلت الاخر وكل منهم عديده جماعة المصلين الذين اعتادوا ان يدفعوا اثلاث دفعات واحدة لا كليروس واحدة لمصاريف

سكنى وادي النطرون ووادي سينس الذي يبعد مسيرة يوم عن وادي النطرون ولو انه ليتصل به الصالا طبيعياً . و مما يحتمل التصديق ايضاً أن مكاريوس المصري هو مكاريوس مجنوس بمنه الذي نشأ في القرن الرابع وله تأكيل فعينه ردآ على اعتراض الوثنيين على الديانة المسيحية كانت قد لعبت بها ايدي الضياع الى ان نبغ فسفورس في القرن الثامن ووجد نسخة منها بعد ان صرف اموالاً طائلة وتحمل عناه كيراً ويؤخذ من هذه النسخة ان مكاريوس مجنوس هو مكاريوس المصري كما أسلفنا ولا يوجد ما يدعوا للريب في هذا الظن . وكان يوجد في وادي النطرون ايضاً أربعة رهباناً يرثون بالاخوة الطويلي القامة اكيرهم امونيوس كان قد رافق اثناسيوس الى رومية عند ما ملكت فيها سنة ونصفاً . فهو لاه الرهبان الاربعة كانوا اخوة من اب وام واحد ومن دين ومنذهب واحد وقد اشتهروا بطول قامتهم واعتدال قوامهم كما انهم عرفوا بغيرتهم الفائقة وعفتهم ونقاومهم . وقد نشأ في وادي النطرون جميتان أستاذ على مبادئ الجهل والغباء - فاحداها وهي الاكثر عمه وسخافة كانت ترتدي وجوب تصوير الاله بصورة انسان بكل ملامحه واجزائه وتشمله جل شأنه بمتلا ظاهر واضح وأما الثانية فكانت تبحث في الرموز والمعاني الروحية التي وضعاها اوريجانوس . ولما زار روفينوس هذا الدير كان السلام والوثام سائدين فيه فلذلك وطن النفس على البقاء هناك ردعاً من الزمن الا ان جو مصر الاسية اكفر بغایوم الاضطرابات الدينية والسياسية فلم

يصف لها الدهر يوماً الا تکدر في الثاني

الفصل الثامن عشر

آخر اتفق اريوس في الاسكندرية
سنة ٣٧٣ للمسيح و ٨٩ للشهداء

كانت وفاة اثناسيوس بهذه سعي جديد قام به اتباع اريوس سواء مع الوثنين فقصدوا به قلب الكنيسة رأساً على عقب . فاعيدت المظاهرات التي اشتهرت بتغافل جورجيوس أسقف كيدوكيا وتدخله في أمور كنيسة مصر بلا مسوغ ثم ان الامبراطور فالنس كان اريوسياً وكان متغيطاً من ان المصريين قاموا بانتخابه بطريركا لهم حسب اختيارهم خدث انه بينما كانت تقام الخدمة الدينية في كنيسة مارشيوناس - وهي الكنيسة التي يصلي فيها البطريرك وله فيها مسكن خاص - هجم عليها والي مصر الوثني بالاريوس ومعه فرقته من الجندي ف الواقع الرعب والخوف في قلوب المصريين . وكان أيضاً ان رهطاً من زعاف الوثنين واليهود انتهزوا هذه الفرصة لتدليس المذابح واهانة المسيحيين فلما رأى البطريرك بطرس هذا فعل ما فعله اثناسيوس قبله في أنه فر هارباً وقد كتب مختبياً فيه . وفي هذه اللحظة كتب البطريرك رسالة رعوية لم تزل موجودة الى الان وفيها يصف هذه الحوادث التي وقعت يومئذ . وكان اثناسيوس البابا الروماني قد انقض رسولاً من قبله يحمل رسائل السلام والحبة الى بابا الاسكندرية بطرس فعند وصوله اليها قبض عليه وأرسل

سجينًا يشتغل في المذاق . فلما رأى بطرس هذه الحالة فرَّ هاربًا إلى رومية وبقي ضيقاً فيها خمس سنوات كاملة (١)

وقد عرفنا في ما سبق أن لوشيوس الأسقف الاربوفي كان يسمى للحصول على الكرسي الاسكندرى فلما وقعت هذه الاضطرابات نال لوشيوس ماتعنه ودخل الاسكندرية دخول الظافر المتصرّ بمحيط به جهود من وجوه المدينة فلم يكدر يجلس على السدة البطريركية حتى بدأ باضطهاد الكنيسة المصرية فصب جامات غضبه على الأديرة والرهبان نوع خاص ويقال أنه سار بنفسه إلى دير وادي النطرون ومعه فرقه من الجنود الملكية قاصداً شن القارة على جماعة الرهبان الذين أبو انكار الوجهة ابن (٢) . فلما رأى لوشيوس أن الرهبان يدافعون عن أنفسهم دفاع الابطال وانهم راضون باقامة - وق حرب تباع فيها النقوس بين

(١) ان امر هذه المشاجرات الغبية بين الطوائف المسيحية المختلفة لم يقتصر على مصر فقط بل تمدّها إلى رومية والقدسية . أما دماسيوس بابا رومية فلم يتم اختياره إلا بالقوة والعنف

(٢) قال حبيون المؤرخ ان هذه الجملة العسكرية المؤلفة من ٣٠٠٠ رجل التي سارت ضد رهبان وادي النطرون كان القصد منها أجبار الشبان والاقوياء منهم على الخدمة العسكرية . وقد يمكن ان يكون هذا صحيحاً الا ان حيبون اخذ روایته من مصادر اخرى ذكر ان القانون الذي سنّه سيدوسيوس كان يقضي على الرهبان بالتجند . ولكن جميع المؤرخين في ذلك اطعنوا على ان القصد من هذه الجملة كان ادخال مبادىء ازريوس بالقوة في دير وادي النطرون الذي كان أقوى حصن ديني في القطر المصري

رخيص امر هذا المبتدع قائد الجملة ان ينقى مكاريوس الاسكندرى ومكاريوس المصري رئيسى وادى النطرون وسيتى ظناً منه انه يسهل عليه الانتصار على جماعة الرهبان متى ما أبدعوا رؤسائهم عنهم . ومن ثم نفى القديسان مكاريوس الى جزيرة فيلا في الصعيد الاعلى وكانت هذه الجزيرة لا تزال وثنية بالمرة وفيها هيكل للاصنام مشهور وكان كاهن هذا الهيكل محترماً عند سكان القرى المجاورة حتى كاد ابو لهونه فلما وصلها هذان الرهبان المنفيان حدث فيها هياج واضطراب وذلك ان ابنة هذا الكاهن الوثنى سلكت ملك من يعقلها من من الجنون في أنها اندفعت كالهرام المفروقة إلى الشاطئ ، الذي رسي فيه تانك القديسان وصرخت قائلة (لماذا اتيتنا اليها لتخرجانا من هنا) . فقد ظلت انا في مأمن منكم في هذا المكان الذي لا يعرفه أحد وفيه تقطعن آمنين بوائق الايام فلا نحن نؤذى أحداً ولا أحد يؤذينا . فإذا كانت اظفاركم تطمح إلى هذه الجزيرة أيضاً فهنيئاً لكم بها خذوها اذا لمقدراً انها على مقاومتكم

فلما فاحت الصيحة بهذه الكلمات سقطت على الارض مغمي عليها فتقدم إليها أحد الرئيين الذي كان متضلعًا في علم الطب فعالجها وشفاعها وكانت النتيجة ان جميع سكان هذه الجزيرة اعتنوا الديانة المسيحية ولما بلغ لوشيوس هذا الخبر أصدر امرًا خصوصياً باعادة هذين الرئيين ولما كان لوشيوس مضطراً في اعماله بالحكومة الامبراطورية فلهذا نفى احد عشر استقماً بينهم ميلاس اسقف رينوكولورا (هي الآن

العرיש في حدود مصر) وكانت قد عهد إلى قوة عسكرية بتنميه فلما وصلت هذه القوة إلى الكنيسة في مساء يوم التقت بشاب كان يستغل في تصليح القناديل واعدادها لساعة الخدمة فسأله الجند عن ميلاس وكان ميلاس هو هذا الشاب الذي التقوا به - فاجابهم أن ميلاس على مقربة منهم الآن وأنه سيخبره بقدومهم حالاً ثم سار بهم إلى منزله وقدم لهم عشاء فاخراً وظل يخدمهم بنفسه فلما فرغوا من تناول الطعام عرفهم شخصه فدهش القوم من صروءته وجراءته وأخبروه أنهم يسجون له بالقرار ولكنه أبي ذلك ففضل مقاسمة أخوته الفراء من أن يربأ بنفسه ويتمتع بالراحة والسرور .

ومن الذين قبض عليهم في دير وادي النطرون روفينوس المارد ذكره وسجن مدة من الزمن وأخيراً نفي إلى خارج القطر المصري .
وكذلك السيدة ميلاتيا وهي غريبة عن مصر كانت قد جاءت إلى الإسكندرية ومكثت فيها نحو ستة شهور ثم نفيت إلى أبوروشية قيصرية في فلسطين ونفي معها حمزة غير من الأاقفة والقسوس والرهبان وقد بنت في قيصرية مدة من الزمن كانت تقبل فيها كل المصريين المنفيين وتقابلهم بشاشة وبشاشة وتعلّم بعقاربها الخصوصية وقد عول روفينوس على الالتحاق بها والإقامة عندها ولكنه قفل راجعاً إلى مصر حالاً وقضى فيها نحو ست سنوات صرف أكثراً في معاشرة الرهبان والامتزاج بهم

ومن أشهر الرهبان في ذلك العصر راهب اسمه موسى كان يعيش في صومعة موجودة في الصحراء الواقعة بين مصر وفلسطين وكان ذات هيبة واجلال لاجل قواه وورعه وكانت قبائل البدو الرحل - أو هم العرب (١) - يعتبرونه ويكرمونه وكان جماعة البدو في ذلك الحين تحت رعاية ملكة اسمها ماقيا كان بين زوجها وبين الرومان محالفه ووداد في زمن قبل الزمان الذي كانت فيه . وبعد وفاة زوجها هذا عادت قبائل العرب واشتبت في حرب استباحت فيه كل بلاد الشرق حتى كادت تدمرها . وكان سكان جنوبي فرنسا في ذلك الوقت قد اتبعوا الامبراطور فالنس كثيراً فكان هذا سبباً في إيقاف سير الاضطهاد في مصر . ولذلك لم يقدر فالنس على صد هؤلاء العرب عن حدود بلاده فارسل يطلب منهم عقد صالح معهم فصاحت الملكة ماقيا شروط الصلح واهما طلب تسليم الراهب موسى إليها لتعيينه استقاماً في بلادها وقد اشترطت هذا الشرط مع أنها لم تكن قد صارت مسيحية بعد . فاجاب فالنس طلبها وهو يكاد يطير فرحاً وأصدر الأوامر المشددة بالقبض على موسى وأحفاده إلى الإسكندرية لكن يرسم استقاماً - واه بطوعه أم بالرغم عنه . أما موسى فإنه الإسكندرية برضى وطيب خاطر ولكنه لما عرف أن

١٠ ان كلة بدوي كانت سماً عاماً يطلق على كل قبائل العرب الساكة بين ساحل البحر الاحمر ونهر الفرات

لوشيوس البطريرك الاربويسي سيفضم يده عليه ليرسمه رفض الرسامه
رفضاً باتاً وقال : - (اني احسب تفسي غير مستحق لهذه الوظيفة
السامية ولكن اذا كانت دواعي الحال عند الحكومة ماسة لتوظفي فيه افلان
مندوحة لي من قبول هذه الوظيفة ولكنني لا اقتبلاها من لوشيوس ولا
هو يضم يده على ليرسمني لأنها يد ملوثة بدماء الابرار القديسين)

يُعنَى الذين انطبق اسمهم على هذه الاحرف ثيودوسيوس البطل المقدام
وابنه المسئي باسمه فقتل الاب اما الابن فتسلك برأي صائب هو انه
ارکن الى انفراد وذهب الى اسبانيا حيث اقام في منزل اسلافه اى ان
ملك فيما بعد كما اسلفنا

اما المملكة الغربية فبعد موت فالنتيان سنة ٣٧٥ خلفه فيها ابنه
غراطيان وكان له اخ يافع تحت رئاسته فلما مات فالنس رأى غراتبيان
ان المملكة الشرقية في قبضة يده وانه قادر ان يصلها الى مملكته ولكننه
تصرف تصرف الحكيم العاقل الذي يعلم ان المطامع منشأ كل شر ورجل
فلذلك ارسل واستدعي اليه ثيودوسيوس وكان عمر غراتبيان نحو عشرون
سنة وعمر ثيودوسيوس ثلاثة وثلاثين عاماً وكان كلها يديان بالدين
الصحيح ويرفضان كل بدعة وخرافة . وفي شهر فبراير سنة ٣٨٠ لما
رأى ثيودوسيوس ان الاحوال الدبية قد تضعضعت في الفسططينية
وأنها وصلت الى درجات الانحطاط اكثر من الاسكندرية ورومية نشر
بيان اهالي هذه المدينة يبياناً واياضحاً وافق عن كيغية الابنان وعمله ومقدار
تأثير التقوّت والدين في القلوب وكان قبل هذا الوقت بمنتهي طلب من
البطريرك بطرس القبطي ان يعالج هذا الداء اعمله بنجاح في تقويم هذا
الاعوجاج فلما اطرب ذلك طلبه وظل همّاً بامور الفسططينية الدينية
وينهض في تدبر احوالها منذ ما آتى من رومية الى مصر
ومن مشاهيز الرجال الذين عبق عبر اعماقهم وسطع ضوء قضاهم فثار

دياجير اخطالات التي اكتنفت اوآخر الجيل الرابع هو غريغوريوس النزاري
بحرج ان لا علاجه له بتاريخ مصر ولكن ارتباطه بطاريك الاسكندرية
وعلاقته المتيبة وهو يسوعان ما ذكر بعض ما شهـر به من العـضـالـ والـفـوـاضـلـ
غريغوريوس هذا هو ابن غريغوريوس اسقف نزيـزنـ في كيدوـداـ وـكانـ
قد رفع اذواقـ المـلـومـ في اثـيـانـيـ ذاتـ المـدـرـسـةـ التيـ تـرـبـيـ فـيـهاـ الـامـبرـاطـورـ
بـولـياـوسـ الـكـافـرـ وبـاسـيلـيوـسـ اـسـقـفـ فـيـ صـرـيـةـ الـذاـنـ ذـكـرـاـهاـ فـيـلاـ .ـ وـكـانـتـ
اوـيـالـهـ مـتـجـهـةـ اـلـىـ الرـهـبـةـ وـلـكـنـهـ لمـ يـرـضـ اـنـ يـنـارـقـ وـالـدـيـهـ اـطـرـمـيـنـ فـلـذـاـكـ
يـقـيـ مـعـهـاـ وـكـانـ يـعـيـشـ عـيـشـةـ الزـهـدـ وـالـتـسـاكـ مـعـازـلاـ كـلـ شـعـلـ دـنـيـويـ بـعـدـ
اـنـ كـانـ وـكـبـلاـ لـاـيـهـ فـيـ اـعـالـهـ .ـ ثـمـ اـنـ اـيـاهـ اـضـطـرـهـ بـالـرـغـمـ عـنـهـ اـنـ يـقـبـلـ وـظـيـفـةـ
كـهـنـوـيـةـ وـهـوـ فـيـ السـادـسـ وـالـثـلـاثـيـنـ مـنـ عـمـرـهـ وـكـانـ غـرـضـ اـيـهـ مـنـ ذـاكـ
تـرـشـيـحـهـ لـرـتـبةـ اـسـقـفـةـ الـاسـقـفـيـةـ الـيـ لـاـيـكـنـهـ اـنـ يـنـاـلـاـ اـذـاـ ظـالـ عـالـماـيـاـ .ـ وـفـيـ سـنـةـ
٣٧٢ـ صـمـ اـبـوهـ وـبـلـاسـيـوسـ اـسـقـفـ فـيـ صـرـيـةـ عـلـىـ تـمـيـنـهـ اـسـقـفـاـ لـاسـيـجاـ وـهـيـ
بـلـدةـ صـفـيـرـةـ نـابـعـةـ لـمـقـاطـعـةـ كـبـدوـكـيـاـ كـانـ قدـ اـدـعـيـ مـطـراـنـ تـيـانـاـ اـنـهـ وـاقـعـهـ ضـمـنـ
اـبـروـشـيـهـ .ـ وـلـكـنـ غـرـيـغـورـيـوسـ رـفـضـ قـبـولـ هـذـهـ الـوـظـيـفـةـ لـاـبـابـ بـدـأـتـ لـهـ
وـمـ اـنـ سـيـمـ اـسـقـفـاـ الاـ اـنـهـ لـمـ يـارـسـ اـعـمـالـ الـبـرـوـشـيـةـ الـتـيـ تـعـيـنـ لـهـ وـلـمـ يـتـدـخـلـ
فـيـ شـوـونـهـ وـبـقـيـ يـسـاعـدـ اـبـاهـ فـيـ اـشـفـالـهـ اـلـىـ اـنـ مـاتـ اـبـوهـ فـيـ سـنـةـ ٣٧٤ـ وـلـهـ
مـنـ الـعـرـمـاـيـةـ سـنـةـ ثـمـ تـوـفـتـ اـمـهـ عـقـيـبـ وـفـاتـ اـبـيهـ وـكـانـ تـحـبـ زـوـجـهـاـ فـيـ
حـيـاتـهـ فـلـمـ تـرـضـ اـنـ تـفـارـقـهـ فـيـ مـاـتـهـ فـدـعـاـهـ الصـوتـ الـالـمـيـ فـلـبـيـتـ
الـدـعـوـةـ وـفـارـقـتـ هـذـهـ الدـارـ الـفـانـيـةـ حـيـنـاـ كـذـ جـائـيـةـ تـتـنـاـولـ اـعـشـامـ الـرـبـيـانـيـ

الرجل مسيحيًا نصرانيًا ولكه كان فيلسوفاً شكمًا شرسًا . وقد ادعى انه مقر بالآباء أن القويم يدين للعق ولكن اعدائه قالوا عنه انه جلد بالسياط ونفي ليس لاجل ايمانه وتفوه بل لاجل سوء تصرفاته . ومن المهم ان مكسيموس هذا كان شديد الذكا . فوي الممارضة حتى انه صرف جهده ليؤثر تأثيراً قوياً على بطرمن بطريرك الاسكندرية وغير يغوريوس بطريرك القدس طينية . وقد وصفه الواقفون بأنه شاب ليس حسن المظهر له شرائط طويلة تترسل جدائله مستذرات ان الاسفل حتى تعلق بيده . قال عن نفسه انه صار صديقاً وكيناً لغير يغوريوس حتى ان هذه الاخص له الخمير بناء على كلامه المأول من زريا والمداعنة مع انت مكسيموس مأذن كل هذه المدة بدس الدسائس عند بطريرك الاسكندرية . الذي كان له ثقة عميقاً فيه . وذلك لكي يطارد غير يغوريوس هروءة من وظيفته و يأخذ لنفسه الرئاسة في القدس طينية وكان بدء هذه الدسائس انه قال ابطرس مررت اخْطَأْ خطاً كثيراً توفانياً اما غير يغوريوس فلا يدعه وسار الى القدس طينية حيث اتَّخذ لنفسه يسماً ممتازلاً وبداء يعلم الناس ان يسلكون بالقوى والعنف واتبعتموا عن المحاكمات الدينية الفارغة وهي تعاليم كان قد اهل احدعوا زماماً طويلاً . وقد بنيت كنيسة اكراماً له سميت كنيسة اقبامة وظل غير يغوريوس اكثراً من سنة يعاني فيها اشغال الاعمال واتجهها وبكلبه الى مسامع هذه التهمات ونوى على ارسال وقدم من الاساقفة الى القدس طينية مزودين بأوامر من تحضيرها تعيين مكسيموس بدلاً من غير يغوريوس

وكان لغير يغوريوس اخ واخت ماتا قبل هذا الحين فاصبح هو وحيداً في هذا العالم وبقي سنتين ينظر في اعمال الابروشية التي عهدت اليه ممتلكاً تعين خلف له ولكن رأى ان وجوده في هذه الوظيفة قد يدعو الناس الى انتظاره طامعاً فيها راضياً بحمل عبئها الثقيل المذلة اختنى فجأة وذهب الى دير شلوسيا حيث مكث فيه ثلاثة سنوات في حالة الرزد والنسك

وفي سنة ٣٧٩ رفع اليه مسيحي القدس طينية المستقيم الرأي عريضة ممهورة باسمه عدد كبير من الاساقفة ومصدق عليها من بابا الاسكندرية ففيها يتضمن منه ان يجيئ هذه الماصحة ويعمل على تقويم كربلاهم . وكان في القدس طينية غير شيعة آريوس اكثر من سنت شيعات دينية متغيرة المبادي متباعدة الافكار وكانت جميعها معدودة هر طرق تقول بغير التعليم الصحيح . ومن اعم هذه الشعائر الشيعة المازوية وشيعة توفانياً اما غير يغوريوس فلا يدعه وسار الى القدس طينية حيث اتَّخذ لنفسه يسماً ممتازلاً وبداء يعلم الناس ان يسلكون بالقوى والعنف واتبعتموا عن المحاكمات الدينية الفارغة وهي تعاليم كان قد اهل احدعوا زماماً طويلاً . وقد بنيت كنيسة اكراماً له سميت كنيسة اقبامة وظل غير يغوريوس اكثراً من سنة يعاني فيها اشغال الاعمال واتجهها وفي هذه الآباء وجد على القدس طينية رجل اسمه مكسيموس وهو سائح اسكندرى ذار بمحنة يدخل الباب سقفاً عليه في ما يلي . وكان

فَلَمَّا وَصَلَ الْوَفْدُ إِلَى الْقَسْطَنْطَنْطِينِيَّةَ كَانَ غَرِيْغورِيوسْ مَرِيَّضًا لَكِنْ
مِنْ فَرْطِ جَهَّهِ لِمَكْسِيمُوسْ لَمْ يَتَأْخِرْ عَنِ اظْهَارِ صِدَاقَتِهِ لَهُ فَقَامَ مِنْ
فَرَاشَهُ وَسَارَ مَعَ الْوَفْدِ الْإِسْكَنْدَرِيِّ لِيلًا إِلَى الْكَنْسِيَّةِ حَيْثُ بَدَأُوا بِاِقْاْمَةِ
الْاحْتِفالِ لِاجْلِ رِسَامَةِ مَكْسِيمُوسْ . وَكَانَ مِنْ الْحَتْمِ قَصْ غَدَائِرِ الشِّعْرِ
الْجَمِيلَةِ الْمُسْتَرْكَلَةِ عَلَى رَأْسِ مَكْسِيمُوسْ قَبْلَ أَنْ يَلْبِسَ الْقَلْنِسُوَةَ (وَهِيَ
الَّتِي نَادَى أَنَسِيَّوسَ بِابْطَالِهِ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ بِبَعْضِ سَنَوَاتِ قَائِلًا إِنَّهَا
خَصَّتْ بِالْكَهْنَةِ الْوَثَنِينَ لَا بِالْكَهْنَةِ الْمُسْكِيْحِينَ) وَقَبْلَ أَنْ يَتَمَّ الْاحْتِفالُ
أَشْرَقَتْ شَمْسُ الصَّبَاحِ فَهِبْ أَهَالِي الْقَسْطَنْطَنْطِينِيَّةِ وَسَارُوا إِلَى الْكَنْسِيَّةِ
لِيَعْرُفُوا مَاذَا يَعْمَلُ فِيهَا فَهِبْ الْأَوْبَاشُ عَلَى الْكَنْسِيَّةِ وَطَرَدُوا الْمُخْتَلِفِينَ
مِنْهَا وَلَكِنْ شَعْرُ مَكْسِيمُوسْ كَانَ فَدَ تَصْ فِي حَانُوتٍ أَحَدِ الْمَزَمِّرِينَ
فَلَذِكَ لَمْ يَطِقْ الْبَقَاءِ فِي الْقَسْطَنْطَنْطِينِيَّةِ لِاجْلِ هِيَاجِ الشَّعْبِ ضَدَهُ قَفَرَ
فَاصِدَاً تَسَالُوِيْكِيَّ لِيَقَابِلِ ثِيُودُوْسِيُّوسَ وَيَتَعَمَّسُ مِنْهُ الْإِسْعَافُ وَالْمَدْدُ
فَرَفَضَ ثِيُودُوْسِيُّوسَ مِسَاعِدَتِهِ وَالاعْتِرَافُ بِسُلْطَتِهِ فَعَادَ رَاجِعًا إِلَى
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَطَلَبَ مِنَ الْبَطْرِيرِكِ بَطَرَسَ أَنْ يَسْتَعْمِلَ مَالَهُ مِنَ السُّلْطَةِ
وَالنَّفْوَذِ فِي تَعْضِيْدِهِ . اَمَا بَطَرَسَ فَكَانَ فَدَ اِزْيَحَ السَّتَّارَ الَّذِي أَسْدَلَ عَلَى
عَيْنِيهِ وَتَجَلَّتْ لَهُ صَنَاتِ صَدِيقَهُ وَمَحْسُوبِهِ فَأَبَى أَنْ يَصْنِي إِلَيْهِ وَطَلَبَ مِنَ
الْوَالِيِّ أَنْ يَنْفِيَهُ فَفَاهَ مِنَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ . وَفِي شَهْرِ فِبراِيرِ سَنَةِ ٣٨٠ اِنْتَقَلَ
الْبَطْرِيرِكِ بَطَرَسَ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ

وَقَدْ دَخَلَ الْإِمْپَراَطُورُ ثِيُودُوْسِيُّوسَ إِلَى الْقَسْطَنْطَنْطِينِيَّةِ دَخْوَلًا

رَسِيْمَا فِي نُوْفَمْبَرِ سَنَةِ ٣٨٠ وَفِي مَايُو سَنَةِ ٣٨١ شَكَلَ مجْمِعًا عَامًا يَجْتَهِ
عَنِ الْطَّرَقِ الْمُؤْدِيَةِ لِدَوَامِ الْسَّلَامِ فِي الْكَنْسِيَّةِ وَلِبَيْتِ الْمَكِّبِ بَنْوَعِ خَاصٍ
فِي مَسَأَلَةِ بَطْرِيرِكِيَّةِ الْقَسْطَنْطَنْطِينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِي حَالَةِ الْاِرْتَالِ وَالتَّشْوِيشِ
وَقَدْ أُعِيدَ اِخْتَابُ غَرِيْغورِيوسْ إِلَى رِئَاسَةِ الْقَسْطَنْطَنْطِينِيَّةِ وَلَكِنَّهُ اِسْتَقَالَ
بِالنَّسَبَةِ إِلَى كَثْرَةِ الْاِنْشَقَاقَاتِ رَغْبَةً مِنْهُ فِي دَوَامِ الْسَّلَامِ وَكَانَ اِسْتَقَالَهُ
قَبْلَ اِرْفَضَاصِ جَلَسَاتِ الْمَجْمِعِ ثُمَّ سَارَ إِلَى زَيْنَنَ سَنَةِ ٣٨٣ وَظَلَّ بِهِ بَارِسَ
اِشْغَالَ هَذَا الْكَرْسِيِّ إِلَى أَنْ تَعِنَ اسْقُفًا فِيهَا بَدْلًا مِنْهُ تَنَاهَى عَلَى طَلَبِهِ
وَحِينَئِذِ اَعْتَرَلَ الْعَمَلُ وَصَرَفَ السَّتَّةَ شَهْرَاتِيَّةَ بَيْتِ مِنْ حَيَاتِهِ فِي
الْاِشْغَالِ بِالْآدَابِ وَالْعِلُومِ . وَمَعَ مَا اسْتَهَرَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ طَبَقَهُ
الْقَابِ وَالْتَّبَرُرِ فِي الْعِلُومِ فَقَدْ مَحْتَمَلَ أَنَّهُ فِي أَخْرِ سَنِيَّ حَيَاتِهِ سَارَ عَلَى
الْأَطَّافِلِ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا اِمْبَرُوزُ فِي أُورُوْبَا وَوَفَلِيسُ فِي مَصْرِ فِي أَنَّهُ اِسْتَعْمَلَ
فَوْذَهُ الشَّخْصِيِّ فِي اِتَّهَالَةِ ثِيُودُوْسِيُّوسْ مَحْوَالِ التَّحِيزِ وَالْاِشْعَاعِ إِلَى فَرِيقِ
دُونِ الْآخِرِ بَدْلًا مِنْ أَنْ يَحْمِلَهُ عَلَى اِعْتَاقِ سَبِيرِ الشَّهَنَاءِ وَالْبَنْضَاءِ الَّتِي
سَرَتْ بَيْنِ تَلَكَ الشَّعْبِ الْمُتَعَدِّدَةِ .

وَقَدْ جَلَسَ عَلَى الْكَرْسِيِّ الْبَطْرِيرِكِيِّ فِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بَعْدَ بَطَرَسَ
اَخْوَهُ ثِيُوْثَاوُسَ الْمَلْقُبِ بِالْفَقِيرِ وَذَلِكَ لَأَنَّهُ وَزَعَ كُلَّ مَا مَنْتَكَهُ مِنْ حَطَامِ
الْدِنِيَا . وَكَانَ ثِيُوْثَاوُسَ هَذَا عَضْوًا فِي مَجْمِعِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَقَدْ اِشْتَرَكَ
فِي الْمَفاوضَاتِ إِلَيْتِيَّةِ اِنْفَضَتْ إِلَى اِسْتَعْتَامِ غَرِيْغورِيوسْ وَلَهُ الْيَدُ الْبَيْضَاءِ فِي
نَشْرِ قَانُونِ الْمَجْمِعِ الْنِيَّاُوِيِّ بِالصُّورَةِ الَّتِي مَدَّأَهُمَا الْأَنْزَلُ مَا عَدَّ الْجَمِيلَةَ

الافتتاحية التي مر ذكرها فلم يصدق عليها مجمع عام مطلقاً . ولما بدأ هذا المجمع يبحث في المسألة المعضلة وهي وضع ترتيب عروض لماراكن البطريركates المختلفة كان الجميع على اتفاق تام في هذا الموضوع . ففي القرنين الاولين كانت الكراسي الخمسة التي من الدرجة الاولى هي : الاسكندرية ورومية وانطاكية وأورشليم وقيصريه وكان الكربلي الاسكندرى صاحب الاولوية على هذه جميعها (١) . وكان كرسى رومية يتقد حسداً لا سبقية كرسى الاسكندرية عليه ولكن بطاركة الاسكندرية الذين اشتهروا بالرقابة واللطف وحسن الجامالة رضوا بعض الاشكال ولو افضى الى التنازل عن افضائهم . وكانت الرئاسة الفعلية والخطاب العام الذي يصدر سنوياً وفيه تاريخ عيد الفصح مصدرها الاسكندرية . فلما اعتنق قسطنطين الديانة المسيحية صار لمدينته الجديدة مركز بين البطريركيات الأصلية . فعند ما انعقد المجمع النيقاوي دهم الاسكندرية اول مصاب خط من شهتها ذلك لأن هذا المجمع قرر اعتبار التاريخ الغربي قاعدة لعيد الفصح . ومن ذلك العهد اخذت سلطة رومية الكهنوتية في الازدياد بينما الاسكندرية والقسطنطينية كانتا تحيطان وتضعنان لداعي الخصومات المستمرة ولكثره الاضطراب والخلاف . ومن الباب التي اوجبت نقدم رومية ان الامبراطرة الذين

على مذهب ادريوس لم يكونوا يعيشون بها او يهتمون بأمرها بل كانوا يصررون جل جهدهم في مقاومة بطريرك مصر والخط من شأن الاسكندرية . وفي مجمع سرديكا المنعقد سنة ٣٤٣ (وهو مجمع غير عام) فازت رومية بالحصول على قانون عام يقضى باستئناف المثالك الى بابا رومية باعتباره حكماً في المسائل المتنازع فيها . وفي مجمع القسطنطينية الذي نحن في صدده سمعت في الحصول على ايات مدعاهما بطريرقة قانونية ليس فيما يختص بالرئاسة — لأنها لا يسمح لها بها — بل فيما يختص بالسبقية وال الاولوية . وكان لغرطيانوس وابيه قوة في المملكة الغربية ولذلك ادعوا الرئاسة على المملكة الشرقية ايضاً ولهذا كان الوقت مناسباً جداً لادتعيه رومية خصوصاً ان ملك ثيودو-يوس كان تحت رحمة امبراطور اوروبا فلم يسعه التدخل في هذه المسألة او البحث فيها ولكنها كان يعني لو ان عاصمة مملكته (القسطنطينية) تحصل على الدرجة الثانية في الترتيب . وانتهى الامر بأن صدر قانون في مجمع القسطنطينية هذا يخول رومية حق الرئاسة والقسطنطينية تالية لها وصارت الاسكندرية في الدرجة الثالثة بين كرسيي بطاركة وكان ثيودوس بطريرك الاسكندرية وهو عضو في هذا المجمع لم ينل اصواتاً كفيرة فلذلك خرج من المجمع غاضباً ساخطاً وآب مع اساقفته اى مصر حيث صرف ما يبقى من حياته في اتهام الواجبات المفروضة عليه بكل هدو وسكينة وقد كتب تواريخ حياة كثرين من القديسين

(١) في القانون الذي صدر من مجمع نيقه وضع الكرسي الاولى شامي في الدرجة الرابعة اما الرئاسة الحقيقة فكانت تتراوح بين الاسكندرية ورومية

المصريين و مع اشتغاله باعمال اخرى اصدر ايضاً تعلیمات للآباء
والقسوس يهتدون بهديها في معضلات الامور ومن هذه التعليمات
المرعية ان الكاهن يتحمل على نفسه المسؤولية اذا هو رفض اقام عقد
زواج يظنه غير قانوني كأن يكون زواج الرجل باخت امرأة المتوفاة . وفي
قانون آخر انه لا يجوز الصاوة على رجل انجح وهو مختل القوى العقلية .
وفي غيره كتب ردّاً على سؤال وجه اليه قال «ان الذين يأكلون سوا
قبل المناولة لا يجوز حرمانهم من تناول الاسرار المقدسة لهذا السبب
حيث ان الشيطان كثيراً ما يتخذ مثيل هذه الطرق لمنع الآدميين من
العشاء الرباني فاذا نحن حرمناهم منه فنكون كمن ساعده على تضليله»

وقد جاء في بعض التواريخ ان هذا البطريرك شاد عدة كنائس
في الاسكندرية واذا انت تصفحت قائمة اسماء القديسين المصريين تجد
بنهم اسم تيموثاوس ولكن نبيل المؤرخ يقول انه لا يمكن ان يكون
القديس تيموثاوس هو هذا البطريرك ما دام ان القديسين المصريين كانوا
غير متزوجين وان هذا البطريرك كان متزوجاً . ولكن حيث انه كان
يبن بطاركة الاسكندرية الاولين كثيرون منهم متزوجون وكانوا يعدون
من ضمن القديسين ايضاً فهذا البرهان الذي اتاه المؤرخ المذكور لا
يثبت هذه الحقيقة التي قلناها عن تيموثاوس ولا ينقضها

الفصل التاسع عشر

سقوط هيكيل سيرابيس

سنة ٣٨٥ للمسيح و ١٠١ للمعهد .

بعد ان تليح البطريرك تيموثاوس الملقب بالفقير اختيار توفيلس خلفاً
له وقد كان كاتب سر للبطريرك اثناسيوس . وقد قال عنه يوحنا النيقاوي
انه ولد من والدين مسيحيين في مدينة هيفيس . يتم توفيلس وهو
في مهد الطفولية وكانت له اخت صغيرة ايضاً فنيط امر تربيتها بمحاربة
حبشية كانت ملكاً لا يهودا . خدت في ذات ليلة قبل بزوع الشمس ان
الحارية اخذت الطفلين الى هيكيل الآلة الكاذبة وفيه تثلا ارطاميس
وابولون وكانت تقصد العبادة كعادة الوثنين . ولم يكدر الطفلان يطأ
ارض الهيكيل حتى سقطت الاصنام الى الارض وتحطمـت تحطيمـاً (١)
خافت الحارية اقصاص الكهنة الوثنين منها ففرت هاربة وجاءت بالطفلين
الى بلدة تيقوس ولكنها لم تستقر فيها طويلاً لانها رأت ان اهالي هذه
المدينة قد يمكـن ان يسلـموها الى كهنة الاصنام فـيقتـد سارت بالولدين
الى الاسكندرية . وكان الماما من الروح القدس او عزـالها ان تأخذ
الطفلين الى احدى الكنائس لكي يتـنسـى لها فـي عـبـادـةـ المـسـيـحـينـ بـطـرـيـقـةـ
جلـيةـ . فـحالـماـ وـجاـواـ بـابـ الـكـنـيـسـ وـجـلـسـواـ عـلـىـ مـقـرـبـةـ مـنـ الـنـبـرـ تـحـولـ

(١) ان حـكاـيـةـ يـوـحـنـاـ هـذـهـ غـامـضـةـ مـبـيـةـ وـفـدـ يـحـتـملـ انـ الطـفـلـيـنـ اـخـرـاـ باـالـاـسـنـامـ
فـيـ اـنـهـاـ طـرـحـاـ عـلـىـ الـارـضـ وـحـطـمـاـهـاـ تحـطـيـمـاـ

نحوهم نظر البطريرك أنسايوس فأصر بآبقاء هؤلا، الاشخاص الثلاثة في الكنيسة الى ما بعد نهاية الخدمة . فلما ارفقت الكنيسة جيء بالولدين والجارية امام البطريرك فوجئ هذه الامة لانها اذ هبت بابناه والدين مسيحيين الى هيكل الونش ثم اوضحت لها ان هذه الآلهة الكاذبة لافهم ولا تعي ولا مقدرة لها على مساعدتها في شيء ، فضلاً عن انها تحطمت امام ولدين صغيرين ثم قال لها « من الان فصاعداً يبقى هذان الطفلان في قبضة يدي »

المنحوتة كما انبأ عنه القديس أنسايوس قبل الان وعلومن ان ثوفيلس كان غيراً غيراً فوق حد الوصف ولكنه عرف بالقصدير في مهارات الحكم والتواضع . وكان خيراً له ان لا يكون موضع ثقة الامبراطور ثيودوسيوس ومحظ افكاره لأن هذه الشلة اوجدت فيه نوعاً من الخيلاء والصلف . ولدينا الان ايضاح بسيط عن السنوات الاولى من رئاسته بسطه هنا شرحاً لاعماله التي عملها من ذلك ان أول واجب فرضه عليه الامبراطور هو ان يبت رأياً في مسألة عيد الفصح التي وقع الاختلال والاختلف فيها مراراً ثانية حتى انه في سنة ٣٨٧ صار الفرق بين العيد المصري والعيد الروماني مدة خمسة أيام كاملة . وبناء على ذلك وضع البطريرك ثوفيلس تقويماللأعياد لمدة خمسة أيام متقدمة من سنة ٣٨٠ . ولا تزال صورة هذا الفصح لمدة مئة سنة مبتدئاً من سنة ٣٨٠ . ولاتزال صورة هذا الجدول الخاص باعياد الفصح باقية الى يومنا هذا وفيها اوضاع ثوفيلس افكاره بأن مخلصنا صلب في اليوم الخامس عشر من شهر نيسان (ابريل) لا في الرابع عشر منه . ثم وضع هذه القاعدة وهي : اذا كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمري يوافق يوم احد فعيد الفصح يتبعه بـ يوم . وماحتاج الى اثناء او هو يحتمل الشك واليقين كون ثوفيلس ارسل كاهناً من قبله اسمه ايسودورس في خلال اللدد والخسام بين ثيودوسيوس ومكسيموس مزوداً بخطابات شكر وشهادة

فلا رأت هذه الجارية نسرها قد اكتشفت وانها لا يسمعها انكاراً ما فعلت طرحت نفسها على قدمي البطريرك والتمنت منه ان يعمدها لكي تصير مسيحية فقبل أنسايوس هذا الالتماس بكل ارتياح وعمد ثلاثة ماماً ثم وضع الصبية في دير بقيت فيه الى يوم زفافها اذ تزوجت برجل من بلدة الحلة (غربية) وفيها ولدت ابا كيرلس الملقب بالنجم المشرق الذي صار بنعمة الله بطريركاً بعد خاله ثوفيلس اما ثوفيلس وبعد عماده ابسوه الحلة البيضاء (التونية) وحملوه في ذمرة الطالب فشب على خوف الله وتضلع من معرفة الكتب المقدسة وكان مطيناً لا وامرها سائراً حسب فرائضها . وقد ترقى الى رتبة شمامس ومن ثم الى رتبة الكهنوت وأخيراً اختير للكرسي البطريركي اذا اضا مدينة الاسكندرية يأكلها بنور اعوانه الساطع . وقد فاز باـ بمقابل شافة الاصنام من جميع المدن المصرية حتى لم يبق واحد يعبد التماثيل

ليوصلها الى الحزب الفائز من الحزبين
وفي نحو سنة ٣٨٩ تحصل ثوفيلس على هبة من الامبراطور هي
اطلال هشك دارس خاص بباخوس الله الخر في الا-كندريه حيث
قصد ان يبني فيه كنية . فعند الشر.ع في حفر الاساسات اكتشفت
قباب متنوعة مرسوم عليها صور تدل على الطقوس الدينية لعبادة الاوثان
وقد عرفت في ما مضى ان جورجيوس أ-ء، كثيراً بتقويه اركان
هيكل الاله مثراس الخاص بالوثنيين وكذلك ثوفيلس ارتكب شططاً
بالطريقة التي سلّكها نحو هذه الطقوس الوثنية ولم يكن طويلاً حتى
اصبحت شوارع الا-كندريه مرسحاً لخصام دائم ونزاع مستمر بين
المسيحيين والوثنيين خصوصاً وان هؤلاء كانوا يسرون يومياً نحو
الانحطاط والفناء ولذا اخذ منهم اليأس والطيش كل مأخذ سهاماً وانهم
في مدة حكم قسطنطين كانت ديانتهم الوثنية تعامل معاملة حسنة أكثر
ما كان يتمنى قياماً على الحوادث التي وقعت في الائتي عشرة سنة التي
سبقت هذه المدة الا ان قسطنطين كان قد ابطل الذبائح الوثنية خصوصاً
التي كانت تجري تحت جنح الظلام لأنها كانت ذبائح بشرية تعتبر
قتل وجنایات فظيعة . اما قسطنطينوس فلم يقف عند هذا الحد بل
تعدها الى مقاومة كل من خالف امر قسطنطين ومعاقبته بالموت وضم
ممتلكاته لجانب الحكومة . الا ان هذين الامبراطورين كانوا يحترمان
الفنون ويعتبران الآثار القديمة ولذلك لم يسمحا بلالاشة المياكل

والعائيل التي كانت تحتوي على أهم العادات وأئمها . صحيح أنها امرا
بأيصاد المايا كل وعدم تقديم ذبائح فيها ولكنها أيضاً أبقياً عليها كآثار
قديمة وأقاموا لها حراً على مصاريف الحكومة وعيناً لها أدلة يرشدون
الزائرين إلى مشاهدة ما فيها من الفنون والصنائع . ولما زاد إيلولياتوس
 محل ترواده القديم لم يجد أن المايا كل محفوظة فقط على غاية ما يرام بل
أن الحارس صار أسلقاً لها
أما في مدة حكم ثيودوسيوس فتغير كل هذا النظام وأبدل بالمرة
ذلك أن مبدأ التمذيب والاضطهاد الذي ادخله أتباع آريوس في الكنيسة
وجد له نزعاً عند الارثوذكس فصاروا يتلون أيضاً إلى اضطهاد كل من
يختلف في الدين والمذهب حتى إن الرهبان كانوا أكثر الناس شرًّا من
هذا القبيل وقد بلغت شرورهم الحد وعم أنهم كل مكان خصوصاً مصر
فاصبحوا فيها حيثما ناشدوا يسرون حفاة الأقدام حتى اشبعوا جماعة
الثوار في كل أطوارهم من جهل وعمى وبعدت عنهم المعرفة والعلم . وما طوح
بهم إلى مهافي الشر والفساد عدم وجود ذلك الرباط الطبيعي الذي يربط
الإنسان بن ارتکاب المنكر . ثم زاد عصيانهم وصلبت رؤوسهم فلم
يكونوا يطعون آدمياً - ويؤساء أديريتهم . فهؤلاء الرهبان أخذوا في
تفويض المياكل والتماثيل الوثنية في كل أنحاء الملائكة وذلك ضد الاوامر
الامبراطورية . وما يستدعي الاستفادة أنه لما عزم ثيودوسيوس على
التدخل بقوته على إيقاف هذا الخراب العلم ارهبه امبروز الميلاني وأوقفه

عن قصده بالهديد الديني . وفي سنة ٣٩٣ اصدر ثيودوسيوس أمر ايدفع به النوايل عن مجامح اليهود ولكن ترك هيكل الوثنين التي كانت آية في الرُّزق والبهاء تحت تصرف الراهبان فلم ينج من ايديهم الا المدرسة الرومية الخصصة لاقامة الاعياد وهيكل جوبير وذلك رغمَ عن ارادته امبروز ولكنها أبىدا بعد وفاة ثيودوسيوس في مدة حكم ابنه . أما في مصر فقد سارت عوامل الحرب في هاتيك الهيكل سير النار في الم Shim وذلك باصر ثيودوسيوس بناء على طلب الباربريرك ثوفيس ، فلم يبق حجر على حجر من هيكل سيرابيس الا ونقض وقد كان هذا الهيكل معدوداً من أجمل الاعمال الهندسية في مدينة الاسكندرية واذا قلنا أن اعمال ثوفيس هذه كانت منشأ للاضطربات والقلاقل فلتنا أن نقول أيضاً ان الوثنين انفسهم اجهزوا على ما بقي لهم من الرفعة والمجد وجروا انفسهم الى الحضيض . وكان في اثناء الخصومات التي حدثت بين الوثنين والسيحيين ان قتل كثيرون من هؤلاء أما الوثنيون فاختاروا أولبيوس رئيس كهنة هيكل سيرابيس قائدآ لم ثم ذهبوا وتحصنوا في قرن هذا الهيكل العظيم وأخذوا يدافعون عن انفسهم ويصدون هجمات مدينة الاسكندرية التي قامت ضدهم . وقد كان هذا الهيكل حصن حصين لانه بني على صعيد من الأرض على شكل بديع وفي وسطه ردهة واسعة وكانت جدرانه سميكة مبنية على شكل هندسي دقيق تعلوها طبقة من التحاصن وترتفعها اماش وطرق سرية وهو مقسم من الداخل

ان غرف تختص بعضها بالكتبة وبعضها بالمصلين وبعضها بالضيوف وفيها مكان هائل معد للمكتبة الكبرى التي فاقت مكتبة المتحف المصري في عظمتها وكثرة محتوياتها . ففي هذا الميكل السامي تحصن وجوه الوثنين ومعهم رجال ابطال اعدوا للحرب والقتال فكانوا يسخرون وهم من داخل ابوابه بالامبراطور والبطريرك مما ولذهم لم يبقوا على هذه الحالة طويلاً بل هددوا الامن العام اذ خرجوا من حصتهم وهجروا على المدينة هجنة واحدة واحتلوا جهوداً من المسيحيين ادخلوهم في هيكلهم وعدبوم امام المذايحة ليضطروهم لان يذبحوا الاوثان ومعلوم ان الحكومة لا تسع باستمرار مثل هذه الاحداث ولذلك ساريا فاجربوس والي مصر في ثلاثة من الجندي وتقديم نحو الثنائين ثم أخذ يسرد لهم نتيجة هذا العمل الذي يهد ضرباً من الجنون ويظهر لهم سوء العقبى وصرامة القصاص الذي يقع عليهم اذا هم ظلوا يسخرون بالساطة الرومانية . ولم يكدر ذلك من كلامه حتى قام اولبيوس والق في قومه خطاباً فصيحاً يحضرهم على احتمال أي عناء وتنب لا ان يتركوا آلهة اباهم عرضة للازء والسخرية . فلذلك رفض جماعة الوثنين المصريين سماع كلام الوالي لرومانى وشاحوا بانوفهم اعراضاً عن نصائحه بافة وشمامه عرفت عن اجدادهم الاولين ولما كان هذا الهيكل حسيناً لا يمكن فتحه الا بعد حصار طويل وحرب عوان ترك الوالي جماعة الوثنين فيه دون ان يفاتحهم العدو ان ثم

كتب مولاه الامبراطور بسأله اعطاء التعليمات والاوامر اللازمة للعمل
بوجها في حل هذا المشكّل . فرد عليه الامبراطور يودوسيوس قائلاً
أن المسيحيين الذين قضوا نحبهم في هذه الحوادث بدون ضمن الشهداء
ولذلك يجب مسامحة قاتلهم والتجاوز عن سيّات الذين أساوا اليهم .
ثم أمر الامبراطور بهدم جميع الهياكل التي في الاسكندرية وازالها من
الوجود ما دامت هي سبب هذه الاضطرابات ونشأء هذا الهياج
والثورات

فلا ذاع خبر الامر الذي أصدره الامبراطور ودرى الناس انه
سيرتاً جهاراً على دعوه الاشهاد احتشد كثيرون من المسيحيين والوثنيين
لسماع مؤداته ومعرفة ما حواه . فلما اتى الوالي قراءته صاح المسيحيون
صيحة الابتهاج والتهليل أما الوثنيون فرّتهم دهشة ورعب وفروا هاربين
فلما آتى المساء واسدل الظلام حجا به خرج اوليوس واتباعه من الهيكل
وركوه و شأنه تبّث به أيندي العبث وساروا يلتمسون لأنفسهم كيناً
يلجاؤن إليه . قيل انه لما خيم الظلام و مد الليل رواقه من أحد المسيحيين
على الهيكل فوجده بلقاً بوراً ليس فيه أحد من الانس ولما اقترب
إلى مزار الهيكل الذي فيه الذخائر المقدسة سمع صوّاً من الداخل يقول
(لا يوجد أحد هنا) ثم تلا هذا الصوت نعمة تسيح ختمت بكلمة
(هللوياه) فعمّب الرجل لهذا الامر الذي لم يعرف له سبباً ولكنك
ستعرفه أنت فيما يلي

وفي اليوم التالي استيقظ سكان الاسكندرية سحراً جداً وبداء
هرج الناس ومرجهم يتزايد وجوعهم توافد إلى أن انظم عقد الاحتفال
وسار في مقدمته البطريرك والوالى راكين جنباً لجنب وتبّهم جهود
الكهنة يرثون ويسبحون ثم العساكر يسيرون عابسين وفي أيديهم الفؤوس
والحراب وباقى دوات الحراب . وبينما كانت هذه الجموع المكتظة تسير
الموئنة، كان يقول الواحد منهم الآخر ان الاتذكر تلك النبوة القديمة
التي فاء بها بعضهم وقال انه في اليوم الذى تتلاشى فيه هذه الاصنام
تض محل الارض وتتساقط السotas وتنقض دعائم العالم باسره ويعلم
الحراب والفناء كل متحرك وجامد فيه . وكثيرون من المسيحيين كانوا
يصدّون هذه الخرافه حتى خافوا اتها . هذا العمل ثلا نصح الشّبّوة وتحرب
الدنيا . فلما اقترب ذلك الموكب من الهيكل صمد نحو مائة رجل على الدرج حتى
وصلوا الى الطيارة الكبرى التي رقاها ذلك الشاب اوريجانوس وحده
قبل هذا الزمن وقام فيها خطيباً والخطير يهدد حياته وذالك لكي ينادي
بیوّع مصلوبًا الذي جاء خدامه الآن في أبهة الرئاسته وعظمة القوة تحيط
بهم الجنود وتحف بهم سطوة الملائكة الرومانية ليهدموا هيكلًا عزى الدينانة
الوثنية القديمة ويرهن بوجوده على قوّة تأثير الديانة المسيحية الجديدة
وفملها السريع

وكان كثيرون من المسيحيين الملثمين حول بطريركهم والوالى
تراروح قلوبهم بين عوامل الخوف والفرح ولم يكونوا قد رأوا هذا

في عرض المكان وتصلان بمجارين على جانبيه وهو مصنوع من
معدن مختلفة أغبر لونه وأكفر منظره لمرور زمن طويل على صنعه
ولكنه كان مرصعاً باحجار كريمة ثمينة لانزال تألق وضياء حتى
يكاد تخطف الابصار بلمعاتها . وكان على صورة رجل هرم وضع على
رأسه مكيلاً للغلال رمزاً على الخصب وجودة الحالات والى جانبه
صورة رأس اسد ورأس كلب ورأس ذئب . وكانت احدى يديه على
شكل افعى وذلك رمزاً على الخلود . ولا غرو ان خليفة اثنا-يوس (اي
توفيلس) كان ينظر الى المثال الذي يدل على عظمة الديانة المصرية
القديمة نظرة معجب بها مندهش من خامتها كما ان جماعة الاسكندرية
 كانوا ينظرون بعين مؤهلاً الاعجاب بهذه المباديء القديمة التي - ادت
على مصر في الازمنة الماضية سعادة لم تكن لتزعم لولا مجيء الوقت
الذي فيه ملأ ذلك الملك العظيم على هذا العالم فقامت كنيسة حيث
ووضعت اعداءها تحت موطيء قدميهما

ولما بدأ الهدم في ذلك المهيكل ضج قوم من الواقفين وعيوا وأخذوا
دخان يثور من افواههم يدل على ان وراءه نار قد يتآرج سعيرها اذا
حركتها الا زند ولذلك رأى البطريرك أن الحكمة تقضي باتمام هذا
المعلم في اسرع وقت لأن التأخير قد ينتج ضرراً لا تعرف نتيجته الا
بعد حدوثه ومن ثم التفت نحو رجل من حاملي المaul والفؤوس
وامرته أن يضرب المثال الضربة القاضية فرفع الرجل غاممه وضرب

الثالث ضربة ازاحت جماعة الحاضرين وجعلهم يصرخون صرخات الخوف والرعب كان عدواً قوياً فاجأهم على غرة منهم . ثم ثنى الضارب مرة أخرى فانقلب خوف القوم وصار لهم إلى ضحكت وفهقته عند مارأوا رأس آله المصير بين القدماء تتدحرج على الأرض كالكرة ، وخرج من جوفه دهـط من الفيران والجرذان فزعت مذعورةً كمن دهمتها مصيبة أو أنها كانت كمن أخرج عنهـ بعد طول الاعتقال فذهبـت إلى كل ناحية من أنحاء الهيكل وهي تزحف وتركض في حلة جذلة أو خائفة وجلة . ولم ينك طويلاً حتى زال الخوف والرعب من القلوب وأخذ القوم في تدمير هذا الهيكل العظيم وهو يطربون فرحاً ويفرجون طرآً ولم يتركوا فيه شيئاً لا وحـلاً ولا تحطـماً . لم يدعـوا فيهـ بناء حتى نقضـوهـ نقضـاً فـاـوتـ جـدرـانـهـ السـامـةـ الـأـرـضـ الـوـاطـئـةـ وـانـحـطـتـ تلكـ المـبـانـيـ الـفـخـيمـةـ إـلـىـ الـاحـضـيـضـ الـأـسـفـلـ ولكنـ الـسـورـ الـخـارـجـ لمـ يـهـدمـ وـظـلـ قـائـماـ مـكانـهـ إـلـىـ أـنـ صـارـ فـيـهاـ بـطـرـيـكـخـانـةـ يـقـيمـ فـيـهاـ الـبـطـرـيـكـ

أما وجه الوثنين واصحـابـ الحـيـثـاتـ فـيـهـمـ الـذـينـ سـيـبـواـ كـلـ هـذـاـ الـهـيـاجـ وـالـقـلـاقـلـ ضدـ الـمـسـيـحـيـنـ فـلـمـ يـجـدـواـ لـهـمـ حـيـلةـ بـعـدـ الذـيـ جـرـىـ سـوىـ أنـ يـتـركـواـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ وـيـفـرـواـ هـارـيـنـ إـلـىـ دـيـارـ أـخـرىـ غـيـرـهـاـ وـلـمـ يـعـدـ أـحـدـ منـ الـمـسـيـحـيـنـ يـدـهـ بـسـوـ،ـ إـلـىـ هـؤـلـاءـ الـوـثـنـيـنـ مـعـ انـ هـيـلـادـيـوسـ كـاهـنـ الـآـلـهـ جـوـيـتـ صـرـحـ عـلـىـ رـؤـوسـ الـأـشـهـادـ مـفـتـحـراـ بـاـنـهـ ذـيـحـ مـرـةـ يـدـهـ تـسـعـ ذـيـحـ آـدـمـيـةـ عـلـىـ مـذـيـعـ الـأـصـنـامـ الـكـاذـبـةـ .ـ وـقـدـ كـتـبـ سـفـرـ اـطـ بـعـدـ ذـاكـ

الفقرة الآتية عن هيكل سيراييس قائلاً:-

«عندما هدم هيكل سيراييس واصبح انقاضاً بالية وجد منقوش على جمارته كتابة باللغة الميدروغليفية لها شكل الصليب وهيئه تماماً كما رأها المسيحيون والوثنيون قال كل فريق منهم ان هذه شارات ودلائل من ديانتنا خاصة ينادون الغير . ذلك لأن المسيحيين يعتقدون ان الصليب علامه النداء وتنذر الخلاص الذي عمله المسيح للجنس البشري ولذلك قالوا ان هذه الاشارات تبيّن وجدت على الجمارة تدل على زياهم وتبايُّنها اما الوثنيون فقالوا لا يبعد ان تكون هذه العلامات دلائل على المسيح وسيراييس في آن واحد وذلك لأنها مشتركة بين المسيحيين من حيث الشكل وبين الوثنين من وجها الكتابة والحرف . وبينما كان الطرفان يتباينان ويتجادلان في هذا الشأن ظهر لهم وهي اعتنق الديانة المسيحية وكان ملائكة بعثة الميدروغليفية عارفـاً باللغة المصرية القديمة فترجم لهم هذه الكتابة الموقعة بشكل صليب وإذا هي «الحياة العتيده» فـاـ سـمعـ الـمـسـيـحـيـونـ هـذـهـ التـرـجـمـةـ قـالـواـ لـمـ يـبـقـ بـعـدـ دـلـيـلـ عـلـىـ لـهـمـ أـشـيـاءـ إـلـىـ دـيـانـتـاـ وـانـهـاـ وـضـعـتـ لـتـبـيـعـهـ .ـ تمـ ظـاـرتـ كـتـابـاتـ أـخـرىـ بـالـلـغـةـ الـمـصـرـيـةـ اوـ خـصـتـ مـعـنـىـ لـتـبـيـعـهـ .ـ تمـ ظـاـرتـ كـتـابـاتـ أـخـرىـ بـالـلـغـةـ الـمـصـرـيـةـ اوـ خـصـتـ مـعـنـىـ شـكـلـ الـصـلـبـ هـذـاـ إـيـضاـحـاـ تـامـاـ وـمـعـنـاـهاـ «إـنـهـ عـنـدـمـاـ يـتـبـدـيـ النـاسـ يـعـيشـونـ الـعـيـشـةـ الـجـدـيـدةـ (ـأـيـ يـصـدـرـونـ مـسـيـحـيـنـ)ـ نـلـاـ بدـ مـنـ سـقوـطـ هيـكـلـ سـيرـايـيسـ وـدـمـارـهـ»ـ فـاـ طـرـقـ هـذـاـ القـوـلـ مـسـاعـ الـوـثـنـيـنـ اـفـتـيلـ كـثـيـرـونـ مـنـهـمـ الـدـيـانـةـ الـمـسـيـحـيـةـ مـعـهـرـقـينـ بـخـطـابـاتـ تـأـبـيـنـ إـلـىـ وـبـهـمـ عـاـمـ فـرـطـ مـنـهـمـ

ثم تعمدوا بعمودية التوبة الصالحة»

وقد عمّ مبداء كسر الصور ونحطيم التماضيل مصر بأسراها واصاب الضرر جميع العادات والآثار المئوية في القطر المصري مدة القرن الرابع بما لم تصل به مثله منذ افتتاح الفرس مصر او عند أخذ المسلمين ايها لما بدأوا عوامل الخراب فيها شيئاً فشيئاً وساروا في تدميرها كل وبنش قبور الاموات سيراً حيثما وكان غرضهم البحث عن الكنوز التي زعموا انها موجودة داخل تلك الاجداد وهو خطأ لا يزال الكثيرون يأتونه في ايامنا هذه ولم ينج منه حتى بعض السياح الذين يجهلون الحقيقة ويظلون ان كل الصيد في جوف الفراء او ان كل السمد والغنى في باطن القبور المصرية القديمة . ولم يبق اثر لها ما كل في الاسكندرية وغيرها من المداين الشهيرة بل تساوت جميعها بالارض وأخذت منها التماضيل والانصاب المعدنية وسبكت اواني واعية للكنائس اما التماضيل الحجرية فتحطمت وسقطت ولم يسلم منها سوى قتال له رأس نسناس اقامه البطارريك ثوفيلس في ميدان فسح حتى يعتبر الناس به واعلموا كنه الآلة التي كان يعبدوها اباً وآة والاجداد وكيف أنها حقيقة مزيفة . ولكن هذا الصنبع اسمه اموبيوس نوع خاص وهو ذلك الملامة الوثنى الشهير وأخذ يتذمر ويدنم هذا التشهير المعيب الذي شهرت به الديانة القديمة وكيف أنها صارت هزءاً وسخرية

واما في باقي الاقاليم المصرية فكانت المياكل الوثنية لا تزال قائمة على

اسلامها ولم يصل الخراب الا الى بعض اجزائها فقط ولكن تماثيل الآلة التي كانت من احسن ما صنعت يد الانسان وابهى حد وصلت اليه الفنون المصرية القديمة اذا نحن قسناها على التمثالين اللذين نقلوا لرومية . كل هذه التماضيل أزيلت وأعدمت ولم يبق منها اثر ولا عين . ولذلك في حكاية يومن واخوه التي سردها الان ان اعظم مثال على عوامل التخريب التي لعبت بتلك التماضيل المئوية

اما يومن هذا فكان له اخوة سبعة او سبعة كما يقول البعض وقد صاروا جميعهم رهائن وامتاز يومن وواحد من اخوه اسمه انوف بالشهرة الواسعة والصيت الطيب . وحدث ان جماعة التدرس بين الذين عرفنا انهم غزوا مصر قبلاً استولوا على جميع ممتلكات والد هؤلاء الاخوة ثم اوردوه حتىه وطربوهم من مازفهم ففر هؤلاء الاخوة يطلبون العجاه لانفسهم من اولئك المعذبين ثم اصبحوا بلا مأوى ولا عضد جائلين في فضاء الارض ورحبتها بحاله المؤس وضنك العيش الى ان حطوا رحالهم في هيكل خرب اندزوه داراً لم يأوون اليه . وكان انوف اكبر هؤلاء الاخوة يتأم ويتوسم حال اخوه اكثر من غيره . وحدث انه وجد في هذا الهيكل البالى ثالثاً عجيب الصنع مطرحاً على الارض بمد ان عيده الناس زماناً طويلاً في الهيكل المذكور وسبقت له الجبهة والصفات بالارض اكرااماً له واجلالاً فرأى انوف ان يجعل هذا المثال درساً لاخوه وتخذه لهم نطة يعظون بها فرجاه ان يظلوا أسبوعاً كاملاً

سَكَنَ دُونَ اَنْ يَبْثُوا بِيَمِنْتِ شَفَةٍ وَلَا اَنْ يَسْأَلُوهُ عَمَّا يَفْعَلُهُ . وَكَانَ يَبْرُدُ نَوْمَهُ فِي صَبَاحٍ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ اِيَامِ هَذَا الْاسْبُوعِ وَيَجْمَعُ اخْوَتَهُ حَوْلَهُ بِالاِشْارَةِ وَيَبْتَدِئُ بِرَمِيِّ ذَلِكَ التَّتَّالَ بِالاِحْجَارِ وَيَكْسِرُ بَعْضَ اِجْزَائِهِ ثُمَّ يَرْكِمُ اِمامَهُ وَيَسْأَلُهُ الصَّفْعَ وَالْمَغْفِرَةَ فَلَا اِتَّهَى اِلَيْهِ اِلَاسْبُوعَ سَأَلَهُ اخْوَتَهُ يَضَاحِيَا وَشَرْحَا اَمْلَهُ هَذَا فَاجَابُوهُمْ اَنَّ هَذَا التَّتَّالَ قَدْ اَهْنَهُ كَثِيرًا حَقْرَتَهُ تَحْمِيرًا فَلَمْ يَشْكُ وَلَمْ يَتَذَمَّرْ لَا نَهَى صَنْعَ اِيْدِيِ الْاَنْسَانِ فَهُوَ يَعْمَرُهُ فِي عَمَلِهِ . كَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى الْاَنْسَانِ الْخَضُوعُ اِلَيْهِ لَارَادَةِ اللَّهِ اَعْمَالَهُ دُونَ اَنْ يَعْتَرَضَ اَوْ يَنْقُمَ

وَبَعْدَ مَضِيِّ بَضْعِ سَنَوَاتٍ عَلَى هَذِهِ الْحَادِثَةِ عَيْنَتْ اَمْمَهُ اَنْ اَبْنَاءَهَا رَهَبُنَوْا وَهُمْ يَقْطَنُونَ دِيرَ وَادِيِ النَّطَرِ وَنَطَرُهُمْ بِشَوْقٍ مَعْرُوفٌ عَنْ وَالْدَّاتِ خَصْوَصًا وَسَارَتْ نَجْدُ الْحَطَّى حَتَّى وَصَلَتْ هَنَالِكَ وَلَكِنْ رَمَنْ رَفَضَ مَقَابِلَتَهَا بِالْمَرْأَةِ وَسَبَبَ ذَلِكَ اَنْ شَظْفَ الْعِيشِ وَضِيقَ الْحَالِ هَاتِيكَ الْمَصَاعِبِ وَالْمَتَاعِبِ اَوْتَدَتْ الْاَحْسَانَ الشَّرِيفَ وَاضْعَافَتْ لَعْنَافَ الْحَيَاةِ مِنْ قَلْبِ بُوْمَنْ هَذَا حَتَّى اَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِ اَمِهِ لَتِي وَلَدَنَهُ . وَمَا يَنْدَرِجُ ضَمِنَ هَذَا الْبَابِ اِيْضًا اَنْ اَبْنَ اُخْتِ بُوْمَنْ كَانَ قَدْ حَكَمَ عَلَيْهِ بِالْاعدَامِ فَرَسَيَ الْوَالِيُّ بِالْعَفْوِ عَنْهُ اَذَا تَدَخَّلَ بُوْمَنْ يَأْمُرُهُ وَطَلَبَ الْعَفْوَ عَنْهُ وَذَلِكَ اَشْهُرَتَهُ بِالْقَوْيِ وَالْعَفَافِ وَلَكِنْ بُوْمَنْ يَعْبَأُ بِتَوْسِيلَاتِ اَخْنَهِ الَّتِي حَرَّكَتْ الْجَمَادَ وَلَمْ تَحْرُكْ قَلْبَهُ بَلْ اَجَابَ رِيحَاهَا هَذِهِ الْعِبَارَةِ «اَذَا كَانَ الشَّابُ يَسْتَحْقُ الْمَوْتَ فَلَمْ يَمُوتْ وَلَا فَلَادَ بِدَ اَنَّ الْحَاكِمَ يَبْرُزَهُ»

وَاسْتَرَاحَ خَاطِرَهُ

وَفِي وَقْتِ حُكْمِ الْبَطَالَسَةِ كَانَ مَقْيَاسُ النَّبِيلِ الْمَقْدَسِ مَحْفُوظًا فِي هِيَكَلِ سِيرَابِيسِ فَلَمَّا مَلَكَ قَسْطَنْطِينُ نَقْلَهُ هَذَا الْمَقْيَاسَ مِنْ هِيَكَلِ سِيرَابِيسِ وَرَضَمْ فِي الْكَنِيسَةِ الْقِيَصِرِيَّةِ الْكَبِيرِ «سِيزَارُ يَوْمٍ» ثُمَّ أُعْيَدَ إِلَيْ ذَلِكَ الْهِيَكَلِ بِاَمْرِ مِنْ يُولِيانُوسِ الْمَعْدُ . فَلَمَّا خَرَبَ الْهِيَكَلَ خَرَابًا كَامِلًا نَقْلَهُ الْمَسِيحِيُّونَ إِلَى كَنِيسَتِهِمْ بِاِحتِفالٍ باهِرٍ فَتَبَيَّنَ الْوَثَّيَّوْنَ نَبَوَةً . فَنَادَهُمْ اَنَّ الْاَللَّهَ سِينَقُمُونَ لَا نَفْسَهُمْ يَنْعِزُ النَّبِيلَ مِنَ الْفِيَضَانِ حَتَّى لَا يَرَوِي الْاَرَاضِيُّ . وَكَانَ النَّبِيلُ قَدْ تَأْخَرَ فِي الْإِيَادَةِ عَنْ مِيعَادِهِ السَّنَوِيِّ فَصَدَقَ صَغَارُ الْعَقْوَلِ مِنَ الْوَثَّيَّيْنِ وَالْمَسِيحِيِّيْنِ اَنَّ الْاَللَّهَ سِيرَابِيسَ اِنْتَقَمَ مِنْهُمْ حَقِيقَةً وَفَاصِصَهُمْ عَلَى تَخْرِيبِ هِيَكَلِهِ فَزَادَ ضَجْعُ النَّاسِ وَقَلْقَهُمْ وَتَفَاقَمَ الْشَّرُّ حَتَّى خَشِيَ الْوَالِيُّ الْخَطَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّاقِفِيْنِ وَكَتَبَ يَسْأَلُ الْمَرْجَعَ الْاَعْلَى عَمَّا اِذَا كَانَ مَنْاسِبًا اَنْ يَرُدَ شَرُّ جَمَاعَةِ الْمُتَرَدِّيْنِ وَيَكْفِي الْحَكُومَةُ مَوْعِدَةِ الثَّوْرَةِ وَالْمَهْيَجَانِ بِاَنْ يَجْعَلَ مَقْيَاسَ النَّبِيلِ تَحْتَ رِعَايَةِ الْكَنِسَةِ الْمُوَافِقَةِ الْحَيَاةِ مِنْ قَلْبِ بُوْمَنْ هَذَا حَتَّى اَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَجْهِ اَمِهِ لَتِي وَلَدَنَهُ . وَمَا يَنْدَرِجُ ضَمِنَ هَذَا الْبَابِ اِيْضًا اَنْ اَبْنَ اُخْتِ بُوْمَنْ كَانَ قَدْ حَكَمَ عَلَيْهِ بِالْاعدَامِ فَرَسَيَ الْوَالِيُّ بِالْعَفْوِ عَنْهُ اَذَا تَدَخَّلَ بُوْمَنْ يَأْمُرُهُ وَطَلَبَ الْعَفْوَ عَنْهُ وَذَلِكَ اَشْهُرَتَهُ بِالْقَوْيِ وَالْعَفَافِ وَلَكِنْ بُوْمَنْ يَعْبَأُ بِتَوْسِيلَاتِ اَخْنَهِ الَّتِي حَرَّكَتْ الْجَمَادَ وَلَمْ تَحْرُكْ قَلْبَهُ بَلْ اَجَابَ رِيحَاهَا هَذِهِ الْعِبَارَةِ «اَذَا كَانَ الشَّابُ يَسْتَحْقُ الْمَوْتَ فَلَمْ يَمُوتْ وَلَا فَلَادَ بِدَ اَنَّ الْحَاكِمَ يَبْرُزَهُ»

الفصل العشرون

﴿الاخوة الطويلو القامة﴾

سنة ٣٩٥ للمسیح و ١١١ للشهداء

في سنة ٣٩٢ سار البطريرك ثوفیلیس الى القدس طلبته لحضور مجمعاً آخر عقد فيها بعض المسائل التي اودت الى خلاف بين جمہور الاساقفة المتباين الاغراض والمعابد . وقد حضر هذا البطريرك الاختفال بتدشین كنيسة كبيرة بذات اكراما لاز-ولان بطرس وبولس كاره الولي قد شدعا في دغلة حول مدينة خلکدونیة تدعى دغلة البلوط . ويحتمل انه في هذه السنة عينها ان ار-بیوس استعنى من وظيفته وهي تعلم ابن الامبراطور وتهذبها وصار راهباً وانخذ ارض مصر موطنًا لرهبته وهو رجل عالم فاضل عرف بين اترابه بسعة العقل وغزارة الماداة والتضلع في المعرفة النافعة وربما كان قد عاد مع ثوفیلیس عندما جاء من القدس طلبته الى مصر بعد ارفضاصن الجموع

وفي سنة ٣٩٥ توفي الامبراطور ثيودوسیوس فاقسم ولاده الملائكة قسمين خص اركادیوس المشرق وهو نور بوس المغرب . وفي سنة ٣٩٨ ذهب ثوفیلیس مرة ثانية الى القدس طلبته ليرسم يوحنا كرسوستم بطاريركا لهذه الابروشية . قبل ان ثوفیلیس اتم هذه الرسامة رغما عنه لان ارتفاع كرسى

القدس طلبته الى درجات الخخار فوق الاسكندرية كان قد سأله جداً كلاما سلفه تيموثاوس من قبله ولذلك تمنى لو يمكنه ان يعين شخصاً من

خاصته في هذا المركز بدلاً تعیین رجل مشهور قادر مثل يوحنا المذكور آنفاً ولحد هذا الحین كان ثوفیلیس على وفاق ووئام تام مع جماعة الرهبان العديدين في مصرخصوصاً مع رهبان وادي النطرون الذي هو اكبر دير واقرب لمدينة الاسكندرية من غيره وكانوا قد ساعدوه في هدم المباني كل وتدميرها ففتح غارتھم وسررتھم وكافاهم على ذلك بان رق بعضهم الى رتبة الاساقفة كلما كانت أسفنج له الفرصة . وبين الذين ترقوا ديسغوروس احد الاخوة الطوبالي القائم تعین اسقفًا لواحة هرمون بولیس (المثیا) كذا شقيقاه بوساب وبوثیموس كان ثوفیلیس قد طلب منها ان يتراکم دير وادي النطرون ليعيزها رعاه في كنيسة الاسكندرية . وفي سنة ٣٩٩ دارت المكابحة بين ثوفیلیس وجیروم فقصد منها ذاتان بسوی الخلاف بين جیروم ویوحنا اسقف اورشليم وهو من رهبان وادي النطرون وكانت النتيجة ان جیروم رد على بطريرك الاسكندرية قائلاً «انك لم تعرف كيف يکون الصدام مع الخصم في حومة الجدال ولم تتعبد لبقاء العدو غير هیاب ولا وجہ لانك الملت رهاناً يختلفون بك ويجملون قدرك عند مقابلتهم ايک بل، ثم يحيونك ويبیونك باخلاقن وولا، لأنك لم تظلمهم أو بالحری لم تقس عليهم في شيء»^(١)

(١) يظهر ان جیروم هذا الذي كان في ذلك الوقت رئيساً لدير في بيت لحم كان ميلاً ميلياً الى الشفاق والمحنة . فقد سبق له انه غضب وصح مع صديقه القديم روپیوس الذي كان ساكناً مع ميلانيا في جبل الريتون عند ما هجر مصر لغاية سنة ٣٩٧ عندما ذهب الى رومية وكذلك تناقر جیروم مع ثوفیلیس بشأن اسقف مصرى كان هنا قد حرم وطرد . تسلمه جیروم عنده باكرام وتبجيل

وحيداً . وقد عزم الامبراطور اركاديوس ثلثيذ ارسينوس وريبه ان يرقى استاذه هذا ويجهه اقصى درجات المجد والشرف وينعم عليه بجزية مصر وخرابها ليصرفها على الفقراء والاديرة فاجابه اركاديوس انه مادام فدمات عن هذا المالم وصلب الجسد مع الاهواء والشهوات فهو لا يهم بالدرام ولا يعنيه أمر توزيعها ونقسيها بين الناس . ووم كل ذلك فلم تحمد نار غيرته الوطنية ولم يزل حاذقاً وديعاً طيب القلب نقي الفواد . والذي يراجع الروايات المأكولة عنه يظن لأول وهلة ان عيشة العزلة والانفراد اثرت في طباع هذا الرجل بخجله شكراً جافياً في الماس ولكن الحقيقة التي لا مرأة فيها هي انه اختار راهباً اعتاد على السرقة والخطف والخندة له خدنا ورفيقاً واسكته معه في مغارته وكان قصده من ذلك ارجاعه عن عادته هذه واصلاح حاله . والذي يقابل صفحات الكتاب المسعى « نصائح للراهب » المستداله يرى مقدار الشعور العميق الذي كان يشعر به هذا الفاضل من التجارب الكثيرة التي يقمع فيها جماعة الرهبان وكيف انه حذر كثيراً وانذر طويلاً في هذا الصدد مما يدل على الخبرة الواسعة والباع الطاويل وكان البطريرك ثوفيلس قد جاء الى الديزير لزيارة ارسينوس فقال له هذا انه يرجوه امراً واحداً . قال الباربريك وما هذا . اجاب ارسينوس اني اطلب منك ان تعود ادراجك دون ان تقابلني لاني لا ارغب في رؤية آدمي قط . وحدث ان سيدة من عقبلات رومية كانت تعرفه من قبل جاءت لزيارته وسارت المسافة بين الريف

وقد أورد مؤرخو ذلك العصر ادلة كثيرة تؤيد تفضيل هذا البطريرك للرهبان اتباعه واذارهم على غيرهم في الخطة التي وضعها ارسينوس لسوء الحظ وهي اختبار الاساقفة من بين الرهبان العذاب بدلاً من اختبارهم من بين القسos المازوجين . ولذا نحن بحثنا في النتائج التي نجمت من هذا التفضيل لرأينا ان الجهل والعمه فشياً بين جماعة الرهبان للسبب المذكور كما انهم تدرجو في مبادئ المعرفة والغطرسة مذ تسلم مقاييس هذه الوظائف اليهم . ولما دلائل مبين على هذه الغطرسة والخبلاء هي ان العلامة ارسينوس ذلك الرجل الطيب الارومي الشريف المحتدل مانوي على الرهبة وجاء ليقدم نفسه الى رئيس دير بربة شيهات وكان اسمه يوحنا وتوصي اليه ارسينوس بكل تواضع وخضوع ان يقبله عندك ليكون في زمرة هؤلاء الرهبان فاعرض هو ورهبته عنه وذهبوا يتناولون طعامهم جلوساً بينما هنا العالم الفاضل وافق بذلك كنه على مقالي الامر (١) واخيراً دعى له واحد منهم بقطعة من الجزر الجاف كأنه كاب فشي ارسينوس وتقىها التقاماً . فلما رأى الرئيس منه ذلك قال بصلاحيته للرهبنة وصرح له بالبقاء مع الرهبان حتى يدرس قانون الرهبنة درساً مدققاً ويسير على فرائضه واحكامه وعيّن له صومعة يقيم فيها في سفح جبل المقطم حيث قضى اربعين عاماً معتزاً

(١) ان مبدأ العنف والقوة الذي سارت عليه الاديرة المصرية مع كل طالب للرهبنة راغب فيها لم يقتصر على مصر بل تعداها الى اورو با حتى صار قاتلها مرعياً في قواطن الرهبنة هناك

وَرَبِّهِنَ كَانُوهُمْ جِيشَ عَرَصَمَ ملَّ من طُولِ الانتِظارِ وَطَلَبِ الْكَفَافِ
وَالثَّالِ فَلَمْ يَجِدْ هَذَا الْبَطْرِيرَكَ الْمُضِيِّفَ حِيلَةً سَوَى أَنْ يَتَّقَلَّهُمْ فَنَادَاهُمْ قَاتِلًا
أَنِّي إِذَا رَأَيْتُ وُجُوهَكُمْ أَشْعَرَ كَانِي نَظَرَتُ اللَّهَ وَجْهًا لَوْجَهَ لَانِكُمْ
مِثْلُ صُورَتِهِ وَمِثْلُهُ» وَإِنَّ هَذَا التَّقَاقَ لَمْ يَكُنْ لِيَكْتَهُمْ أَوْ يَوْقِفْهُمْ عِنْدِ
عَدْمِ بَلْ صَاحِبِ بَعْضِ الزَّانِفِ مِنْهُمْ طَالِبِينَ مِنَ الْبَطْرِيرَكَ أَنْ يَحْرُمْ
أَوْ يَحْجَانُوسْ وَيُشْجِبَهُ لَانِهِمْ اعْتَبَرُوا أَنَّ الْبَدْعَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا الْبَطْرِيرَكَ يَبْيَسُ
رِسَالَتَهُ حَسْبَ زَعْمِهِمْ قَدْ افْتَسَبَهُمْ أَرَاءً، أَوْ يَحْجَانُوسْ وَافْكَارَهُ فَلَمْ يَرْخُضُوا
لِاَنْصَرَافِ مِنْ أَمَامِ الْبَطْرِيرَكَ يَرْكِيَّةَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَعَدُوهُمُ الْبَطْرِيرَكَ بِاجْلَاهِ مُلْتَمِسِهِمْ
الْرَّهَبَانِ الْجَهَلَاهُ. مِنْ عِبَارَةِ بَسِطَةٍ وَرَدَتْ فِيهِ وَكَانَ سَبَبُ غَبْرَاظِهِمْ فَهُوَمْ
وَقَصْرُ اَدْرَاكِهِمْ مَعَ سَفَالَةٍ فِي الْاطِبَاعِ وَالْخَطَاطِ فِي الْاخْلَاقِ . أَمَا نَكَ
الْعِبَارَةُ فَهِيَ فَوْلَهُ أَنَّ اللَّهَ رَوْحٌ لَا يَدْرِكُهُ أَفْهَمُ وَلَيْسَ هُوَ مُجَرَّدُ اِنْسَانٍ
عَظِيمِ الشَّأْنِ يَحْزَأُ وَيَجْدُ وَيَحْصُرُ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْاَدْمَيْنِ
فَلَا قِرَاءُ أَوْلَانِكَ الْعَيْانُ هَذِهِ الرِّسَالَةُ حَنَقُوا وَهَاجَوا هِيَاجًا غَيْرِ

مُنْتَظَرٍ وَقَامَ جَيْشُ جَرَارٍ مِنْهُمْ تَرَكَ وَادِيَ النَّطَرَوْنَ وَسَارَ فِي عَرْضِ
الْاصْحَارِ إِلَى أَنْ وَصَلَ الدَّارِ الَّتِي يَقِيمُ فِيهَا الْبَطْرِيرَكَ فَاحْتَشَدُوا حَوْلَهُ—
كَالْمَلَلِ وَاحْذَدُوا يَصْبِحُونَ وَيَتَوَعَّدُونَ وَيَتَهَدَّدُونَ الْبَطْرِيرَكَ بِالْمُؤْتَمِرِ الْمُعَاجِلِ
أَنَّ لَمْ يَسْحَبْ كَلَامَهُ وَيَعْدَلْ عَنْ رَأْيِهِ الْمَذَكُورِ قَبْلِ
فَاحْتَارَ ثُوفِيلِسْ وَاضْطَرَبَ إِذَا رَأَى نَفْسَهُ وَحِيدًا لَا سَيِّدَ لَهُ يَدْافِعُ
عَنْهُ ضَدَّ هَوْلَاهُ الْأَقْبَرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَوْجُونَ كَالْجَرِ الْأَخْرَ وَيَرْغُونَ
الْأَطْرَفَ يَقْتَلُ أَمَّا الرُّوحُ فَيَحْبِي

وَوَادِيَ النَّطَرَوْنَ مُشَبِّهًًا عَلَى الْأَقْدَامِ لِكِي تَرَاهُ أَمَا هُوَ فَتَّاقَاهَا بِفَظَاظَةٍ
وَعَبُوْسَةٍ وَابِي مَقَالِمَهَا فَشَكَتْ هَذِهِ الْفَاضِلَةُ أَمْرَهَا ثُوفِيلِسْ فَطَيَّبَ هَذَا
خَاطِرَهَا وَقَالَ لَهَا إِنَّهَا وَاحِدَةٌ مِنْ بَنَاتِهِ— وَأَنَّ لَا يَدْنُوْرُ مِنْ قَدِيسِيَّتِي
مِثْلِ اَرْسِيْنُوسِ اَنْ يَخَاطِبَهَا أَوْ يَنْتَظِرَ إِلَيْهَا وَجْهَهَا

وَقَدْ كَانَ فِي طَوقِ الْبَطْرِيرَكَ ثُوفِيلِسْ أَنْ يَخْتَلِفُ الْكَبِيرَاءُ وَالْمُطَرَّسُ
الَّذِيْنَ شَبَّتْ عَلَيْهِمَا جَمَائِهُ الرَّهَبَانِ اَمَّا جَهَلُهُمْ فَكَانَ مَا لَا يَطْلَقُ وَلَا
يَحْسَنُ السَّكُوتُ عَلَيْهِ مَا فِيهِ مِنَ الْحَاطِرِ وَسُوءِ الْمَصِيرِ يَدْلَكُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ
فِي سَيِّنَةِ ٣٩٩ مَاً اَصْدَرَ الْبَطْرِيرَكَ رِسَالَةَ الْفَصْحِ السَّنَوِيَّةَ اَعْتَنَاطَ اَولَئِكَ
الْرَّهَبَانِ الْجَهَلَاهُ. مِنْ عِبَارَةِ بَسِطَةٍ وَرَدَتْ فِيهِ وَكَانَ سَبَبُ غَبْرَاظِهِمْ فَهُوَمْ
وَقَصْرُ اَدْرَاكِهِمْ مَعَ سَفَالَةٍ فِي الْاطِبَاعِ وَالْخَطَاطِ فِي الْاخْلَاقِ . أَمَا نَكَ
الْعِبَارَةُ فَهِيَ فَوْلَهُ أَنَّ اللَّهَ رَوْحٌ لَا يَدْرِكُهُ أَفْهَمُ وَلَيْسَ هُوَ مُجَرَّدُ اِنْسَانٍ
عَظِيمِ الشَّأْنِ يَحْزَأُ وَيَجْدُ وَيَحْصُرُ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْاَدْمَيْنِ
فَلَا قِرَاءُ أَوْلَانِكَ الْعَيْانُ هَذِهِ الرِّسَالَةُ حَنَقُوا وَهَاجَوا هِيَاجًا غَيْرِ

مُنْتَظَرٍ وَقَامَ جَيْشُ جَرَارٍ مِنْهُمْ تَرَكَ وَادِيَ النَّطَرَوْنَ وَسَارَ فِي عَرْضِ
الْاصْحَارِ إِلَى أَنْ وَصَلَ الدَّارِ الَّتِي يَقِيمُ فِيهَا الْبَطْرِيرَكَ فَاحْتَشَدُوا حَوْلَهُ—
كَالْمَلَلِ وَاحْذَدُوا يَصْبِحُونَ وَيَتَوَعَّدُونَ وَيَتَهَدَّدُونَ الْبَطْرِيرَكَ بِالْمُؤْتَمِرِ الْمُعَاجِلِ
أَنَّ لَمْ يَسْحَبْ كَلَامَهُ وَيَعْدَلْ عَنْ رَأْيِهِ الْمَذَكُورِ قَبْلِ
فَاحْتَارَ ثُوفِيلِسْ وَاضْطَرَبَ إِذَا رَأَى نَفْسَهُ وَحِيدًا لَا سَيِّدَ لَهُ يَدْافِعُ
عَنْهُ ضَدَّ هَوْلَاهُ الْأَقْبَرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَوْجُونَ كَالْجَرِ الْأَخْرَ وَيَرْغُونَ

طال مكتوماً فان بعض النامين اخبروا البطريرك به فلم يقبل كلامه في
الامر تدل على تغافله ولكن عند ما بدأ الخلاف بيده وبين
روبيز انتهز هذه الفرصة واتهم هذا الرجل باهاله في وظيفته وعدم
تقديره على القيام بها وقال بعضهم بل انه رماه بتهمات قديمة لا اساس لها
ما هي منها واحدة ضد

اما فيما يختص بأمر الملابس فان ايسودورس دافع عن نفسه فيها دفاعاً
اماً وقال للبطريرك كلاماً فاسياً موذاه انه خيرُك يصرف المال في شفاء
المرضى وكاء الاجسام العارية التي تعتبر هيكلة الله بدلاً من بناء جنطان
وبدران لا تدعوا الفرورة الشديدة اليها

وفد سبق معنا القول ان ثوفيلس اضطر ان ينجاز بجماعة الرهبان
الذين يخالفون عباده او ريجانوس الصحيح او هم الذين يصادرون الاعتقاد بالوهبة
الله . وحدث انه في اوائل السنة التالية شكل هذا البطريرك مجسمآ شعب
هذا مبدأ او ريجانوس وسفه تعاليمه (١) وكان ذلك اتماماً لوعده منه لا ولذلك
الرهبان الانجبياء . ولم يكتف البطريرك بذلك بل انه في رسالة الفصح
سنة ١٠٤ كتب ضد اوريجانوس كلاماً مؤنثاً وذكر عنه غلطات وهفوات
لم اعرف عن هذا الرجل النافعة ولم يكن لها وجود الا في مخيلة ثوفيلس

(١) ان اثناسيوس بابارومية اصدر ايضاً حرماء ضد اوريجانوس في الوقت
الذي حرمه فيه ثوفيلس ولكنه اعترف فيما بعد انه لم يكن يعرف شيئاً عن اوريجانوس
او ما في النعائم التي فاء بها هذا الفاعل

ثوفيلس ودامت الصدقة بينهما مدة من السنين ولكن الحال تغير لاسباب
واسطعات الصدقة عداوة واستحکم الخلاف بين الاثنين . وما كان ايسودورس
مخازاً لذهب القائلين بالوهبة الله وروحانيته الخذ ثوفيلس هذا الاعتقاد
واسطعة للایقاع به بان حاذب او ائمك الرهبان الكافرين الذين كان بين
منهم ومن معتقدهم قبله وحرضهم خدد ايسودورس . وقد ذكر بعضهم
اسباب كثيرة قالوا انها كانت منشأ لهذا الخلاف الشديد ولكن الذي
يقرب من الذهن ان سببه مسائل مالية تخخص بالدرهم التي هي عملة كل
شئاق وسبب جميع البلایا في هذا العالم

اما فيما يختص بمال الكنائس فكانت العادة ان جمع المطابيا والمدا
التي يهبهها جماعة المؤمنين نكبة الاسكندرية تبقى في حوزة البطريرك
وتحت اصرفه ولما في الابروشيات الاخرى فكان الاصaque يتصرفون
في نقود الكنائس بالاتفاق مع لجان تعين لهذا الغرض . وقد امتاز ثوفيلس
عن باقي البطاركة بميله الشديد الى انشاء الابنية وتشييد الكنائس حتى انه
كان يصرف اكثر الارادات الذي يجمعه في بناء كنائس فاخرة وتزيينها
وحدث ان سيدة اسكندرية موسرة تبرعت بصرف الف قطعة من الذهب
في شراء ملابس للنساء الفقيرات ولكنها خافت ان يسمع البطريرك بخبرها
فيأخذ منها المال وينبئ بها كنيسة بدل الملابس ولذلك عمدت الى اعين
الصندوقي وامرت له الامر وجعلته يقسم لها ايماناً مغلظة بان بوادي لها
هذا الامر مراً وان لا يقول للبطريرك شيئاً عن هذا المال ولكن الخبر

وآخر حكم عليه بأنه هر طوي مبتدع . ولما استعمل الخلاف بين البطريرك وإسودوس في السنة عينها أضطر هذا ارت بيرب ويقيم في دير وادي النطرون مع جماعة الرهبان الموجودين فيه فلم يكن من ثوفيلس إلا ان أصدر أمره إلى إساقفة الابروشيات ورؤساء الأديرة بنفي جمع الرهبان الذين يذهبون مذهب أوريجانوس أو يقولون بقوله فلم يسكن أمونيوس أكبر الآخوة الطوبى القامة بل جاء إلى الإسكندرية يرأس وفداً من الرهبان ليحتج ضد البطريرك على عمله هذا ويعارض على اعتباره أيام مبتدعين لأنهم رفضوا قبول فهم الكتاب المقدس فهم حرفياً ناقصاً كما قبله جماعة الرهبان الأغبياء الجاهلين . ولما كان ثوفيلس يهاب سطوة هولاء المنغطرين ويدل إلى مذهبهم ولو ضد خميره خاف شر الحرافيش والذين باش منهم وأضطر أن يالي الجهلاء ضد هذا الوفد الذي كان رائده الاعتدال وقاده الحجة القوية والبرهان الصحيح ولذلك سار بهم ثوفيلس سير العنتف الغشوم حتى قبل عنه انه لطم أمونيوس على فمه ودعاه مبتدعاً لانه رفض ان يحرم أوريجانوس ويسميه . ومن غرب الامور ان خمسة من رهبان دير النطرون الذين لا هم في العذر ولا في النفي لم يجهلهم دعيباتهم ارادوا ان يصلحوا ذات البين بينهم وبين البطريرك فطلبوا منه ان يصرح لهم بابتداع تهمات كاذبة ضد ثلاثة من مشاهير الرهبان وعظائهم فاجاب عليهم وكانت النتيجة ان البطريرك حكم على هولاء الاكابر بالحرمان

اما الوفد الذي جاء مع أمونيوس فعاد فاغلا الى وادي النطرون

نفس كبرة وقلب حزين ورضي اعضاؤه من الغنية بالباب ولكن ثوفيلس لم يرض بل صار يسعى لا قلاقق باسمه وآتى سرعم . ولم يبق ربيب لدى هذا البطريرك في ان ازداد الرهبان ونكاشر جموعهم واتساع دائرة سلطتهم ونفوذهم كانت من اشد الامور خطراً على مصر ومن فيها وهذا امر تاب موكل لا مشاحة فيه ولا اعتراض عليه . ولكن هذا البطريرك لم يتخذ طريقة لقطع شأفة هذا الداء ولم يأت عملاً يذكره في ايين الناقدين بل سار بيرأ بوجب الامر كل مدة رئاسته الشؤومة . وقد انقضى زمن الخلاف والشقاق وعاد رهبات دير وادي النطرون إلى اعمالهم اليدوية الدينية وصاروا يجدون خلف الكتب وجمع المال . وقد كان بينهم الحائط والنسيج وصانع الحلويات والطبيب وطالب العلم وكل أرباب الحرف والصناع . وبقوا ساكنين يصاونون في كنيسة لهم كبرى تحيط بها ثلاثة فتحات وكفوا عن الشقاق والخلاص ولكن ثوفيلس لم يرق له هذا السكون فطلب من الوالي الروماني ان يمدده بقوة عسكرية يهاجم بها جماعة الرهبان الآمنين فسار إلى ديرهم تحت جنح ليل بهم فاقلق بهم وحرك ساكنيهم عند ما سمعوا سبابك الخيول التي يعتظيم الجيش الروماني ترن في القضاء فيسمع لها دوي يوقع الرعب في القلوب فهاج الرهبان وذعروا لما بلغتهم ان بطريركهم جاء ومعه جيش مزبد لكي يلقي القبض على اتباع اوريجانوس ومربيده وساد القلق

وأخلوف في نواحي الدير وذعر كل واحد فيه وهرع ثلاثة من أولئك
الأخوة المعروفيين إلى الاختباء في بئر عميقه وذهب رابعهم ديسغورس
وكان في ركن من اركان الكنيسة ولكنه لم يلبث ان عرف مكانه جماعة
من الجشان المراقبين للبطيريك كانوا يتبعايلون ثملاين من بنت الدنات
فاخرجوه من كينه بقوه وعنف . اما العساكر فظنوا ان هذا الدير
انما هو مدينة محصنة يجب أخذها قسراً واقتداراً وذلك رغمما عن
طلب ثوفيلس لهم ان لا يفعلوا ذلك ولكنهم لم يذعنوا لقوله بل مالوا
على الصوامع فنهبواها واخربوا فيها الديران ومات راهب حرفاً داخلاها
كما اثبت ذلك شهود عدول

فلا لاح الفجر وبدت باشیر الصباح كف العساكر عن عملهم
القاسي خصوصا للاح تو فيلس عليهم بذلك ولا نهم ممتنعين لابد
من مقاومتهم مقاومة لا تخلو من الخطير فلذلك اضطر الجنود ان يقفوا
جانباً بعد ان ردوا سيفهم في انغمادها ثم دعى تو فيلس جماعة من الرهبان
ليقدمنهم جمعية يطرح عليها كلامه وافكاره بسلام ووئام بدلا من
الحرب والخصام ثم قرأ على مسامعهم بعض نبذات مما كتبه اوريجانوس
والغازه الغامضة - وهي لا علاقة لها بامان الرجل ولا تدل على
مقدار اعتقاده - ثم استنتاج منها ما توهمه فيها من البدع التي ودّ ان
يقتنع الرهبان بصحّة نسبتها وحيثند خاطبهم قائلا:- « فلهذا السبب
حكم على حلفاء اوريجانوس وآباءه بالحرمان فلم يرضخوا لهذا الحكم

بل وضعوا يدهم عنوة على كنيسة دير وادي النطرون وقفوا بها في وجوه الاساقفة ورؤساء الاديرة وصاروا يسكنون في أيديهم النبایت مغطاة بسوف النخل لكي يفاجئوا كل من يقف في طريقهم فاضطر الرأي العام الارنوذكي الى وضع حد لهذه القلاقل وتم الامر الان على ما زيد ونشتهي

أما الاربعة الاخوة الذين اختبأوا في الدير فلم يكثروا فيه طويلاً بل ساروا إلى فلسطين حيث قضوا بعض ايامهم يسكنون آمنين في سفح جبل جليوبع وهم يمارسون عمل الاقفاص من جريد النخل وهي صناعة تعلموها في مصر وتبغى لهم كثيرون من الفارين حتى زاد عددهم زيادة تستدعي الالتفات وكان جماعة المسيحيين في فلسطين يرميرون بهم عين الاحتقار والفتور لعلمهم أن بطريركهم حرّمهم ونفاهم ولكن بعض الاساقفة اظهروا نحوهم حناناً وشهادة فعن طريقهم البطريرك وبخشم درجاتهم باز لا يعودوا ويتزوجوا بهؤلاء الرهبان ثلا يهد عددهم هذا مبالغة ويحب ذنبآً واهانة في عرف جماعة الجبلاء ولما ضاق الحال على هؤلاء الرهبان المنفيين - وكان عددهم قد بلغ الخمسين - رفعوا دعواهم إلى بحث بطريرك القسطنطينية

وفي أواخر سنة ١٠٠ ميل امام بطريرك اسطنبول أولئك الرهبان
المر من الذين اضطاجهم طول السفر وأضر عظمهم البلا، المر فلما رأهم هذا

البطريرك فاضت عيناه بالدموع الغزيرة رثاءً لالمهم وتوجاً مصابهم
وألهـم ان ماذا افعل لكم وأي طريقة تخفف ويلاتكم . فطلـوا منهـ أن
يتضـهم من بـطـيرـكـهمـ الذيـ جـارـ عـلـيـهمـ واعـتـدـىـ وهـضـمـ حقوقـهمـ دونـ أنـ
يـخـافـ ربـهـ أوـ يـخـافـ لـومـ الـلـائـعـينـ ثمـ وـقـفـ كـلـيمـ فـصـحـ منـ يـنـهمـ وـخـاطـبـ
الـبـطـيرـكـ بصـوتـ جـهـورـيـ قـائـلاـ : -

(اذاـ كـنـتـ رـاعـيـ خـاطـرـهـ وـلـاـ تـعـمـلـ عـلـىـ تـنـفـيـثـ كـرـبـاـ فـنـضـطـرـ
حـيـثـذـ إـلـىـ رـفـعـ دـعـوـانـاـ إـلـىـ الـإـمـپـاطـورـ نـفـسـهـ وـكـلـ الـذـيـ نـظـابـهـ مـكـ أـنـ
تـسـتـرـضـيـ ثـوـفـيـلـسـ حـتـىـ يـسـمـحـ لـنـاـ يـاسـتـيـطـانـ وـطـنـتـاـ وـمـقـطـ رـأـسـنـاـ فـانـنـاـ لـمـ
تـجـنـ ذـبـاـضـدـهـ وـلـمـ زـرـتـكـ أـمـرـآـ يـسـتـمـطـرـ غـضـبـ اللهـ عـلـيـنـاـ)

فـوـعـدـهـمـ الـبـطـيرـكـ يـوـحـنـاـ خـيـرـاـ وـاخـيرـهـ أـنـ سـيـذـلـ جـهـدـهـ فـيـ
مـاـعـدـهـمـ عـلـىـ شـرـطـ إـنـ لـاـ يـقـدـمـواـ مـسـأـلـهـمـ أـمـامـ السـاطـةـ الـدـنـيـةـ وـلـاـ إـنـ
يـحـدـنـواـ هـيـاجـاـ وـاضـطـرـبـاـ فـيـ الـمـدـنـيـةـ ثـمـ خـمـ كـلـامـهـ لـمـ يـقـولـهـ (حيثـ اـنـيـ
كـتـبـتـ لـاـخـيـ ثـوـفـيـلـسـ فـيـ هـذـاـ الصـدـدـ فـمـلـيـكـمـ بـالـصـبـرـ حـتـىـ يـحـيـ رـدـ الجـوابـ)
وـقـدـ اـظـهـرـ لـهـ كـلـ اـطـفـ وـاـيـنـاسـ وـاـكـنـهـمـ فـيـ مـخـادـعـ كـنـيـسـةـ الـقـيـاـمـةـ وـكـانـ
فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ يـبـحـثـ فـيـ هـذـاـ الـأـصـرـ مـعـ جـمـاعـةـ مـنـ اـكـلـيـرـوـسـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ
كـانـواـ اـرـلـوـاـ إـلـىـ دـيـوـانـ الـإـمـپـاطـورـ لـاـشـفـالـ تـخـتـصـ بـوـظـيفـهـمـ وـصـارـ
يـسـتـشـيرـهـمـ فـيـ الـأـصـرـ . فـقـالـواـ لـهـ اـنـ رـهـبـانـ دـيرـ وـادـيـ النـطـرـونـ تـحـمـلـواـ
الـهـوـانـ فـيـ الـمـعـاملـةـ اـتـيـ عـوـمـلـواـ بـهـاـ وـلـكـنـ هـؤـلـاءـ الـقـسـوـمـ اـرـتـأـواـ اـنـ رـفـعـ

هذهـ الدـعـوىـ لـىـ بـطـيرـكـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ لـاـ يـنـتـجـ نـتـجـةـ حـسـنـةـ وـلـاـ يـأـنـيـ
بـقـائـةـ ثـمـ طـلـبـواـ مـنـ هـذـاـ بـطـيرـكـ اـنـ لـاـ يـتـرـعـ فـيـ قـبـولـ هـؤـلـاءـ
الـرـهـبـانـ عـلـىـ مـائـةـ اـمـشـاـ الرـبـانـيـ لـثـلـاـ يـكـدـ خـاطـرـ بـاـيـاـ الـاسـكـنـدـرـيـةـ بـعـدـهـ
هـذـاـ وـلـكـنـ اـذـ رـغـبـ فـيـ اـطـيـارـ الشـفـقـةـ وـالـخـوـلـهـمـ فـلـيـظـهـرـهـاـ بـطـرـقـ أـخـرىـ
غـيـرـ طـرـيقـةـ الـمـناـوـلـةـ

فـقـبـلـ بـطـيرـكـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ نـصـيـحـهـمـ وـكـتـبـ اـلـىـ ثـوـفـيـلـسـ يـرـجـوـهـ
اـيجـادـ وـسـائـلـ السـلامـ وـالـسـكـينـةـ وـلـكـنـ ثـوـفـيـلـسـ لـمـ يـلـفـهـ اـنـ هـؤـلـاءـ
الـاـخـوـةـ سـارـوـاـ فـيـ الـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ رـسـلـ اـلـىـ بـطـيرـكـ اـمـكـاـيـبـ الـلـوـمـ وـالـتـعـنيـفـ
اـتـيـ كـتـبـاـ اـلـىـ اـسـاقـفـةـ فـاـطـيـنـ قـبـلـ حـيـنـ عـلـبـهـمـ عـدـمـ الـاـخـتـلاـطـ مـعـ هـؤـلـاءـ
الـرـهـبـانـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـكـنـ بـذـلـكـ هـذـهـ الـمـأـبـلـ اـتـهـمـ بـتـهـمـةـ جـدـيـدةـ هـيـ
اـنـهـمـ لـيـسـوـاـ فـمـقـطـ اـهـلـ بـدـءـةـ وـشـفـاقـ بـلـ هـمـ سـحـرـةـ يـخـاطـبـوـنـ الـجـنـ وـيـلـتـصـقـوـنـ
بـجـمـاعـةـ الـمـفـارـيـتـ (١) فـاـهـاجـتـ هـذـهـ التـهـمـةـ الشـيـعـةـ سـخـطـ عـامـةـ اـهـلـ
الـقـسـطـنـطـيـنـيـةـ ضـدـ هـؤـلـاءـ الـاـخـوـةـ الـمـساـكـيـنـ حـيـ كـانـواـ يـازـجـوـنـهـمـ وـيـزـأـونـ

(١) لاـ شـكـ فـيـ اـنـ القـلـبـ الـذـيـ اـبـدـعـ هـذـهـ التـهـمـةـ ضـدـ اوـلـئـكـ الرـهـبـانـ كـلـهـ
عـقـدـ وـغـلـ لـاـهـاـ صـادـفـ اـرـضاـ ذاتـ زـرـعـ فـيـ بـصـرـ الـقـيـاـمـةـ فـيـهاـ الجـهـلـ بـسـرـعـةـ
غـرـبـةـ بـدـلـ ذـلـكـ الـعـلمـ الـذـيـ فـاقـتـ بـهـ الـأـمـصـارـ الـأـخـرـىـ فـيـ قـدـيمـ الـأـزـمـانـ وـوـصلـتـ
الـغـاـوـهـ فـيـ هـذـهـ الـلـادـ الـىـ درـحـةـ كـانـ فـيـهـاـ كـلـ عـلـمـ يـعـارـسـ الـعـلـمـ وـيـتـسـحرـ فـيـ فـنـونـهـ
يـهـمـ بـالـسـحـرـ وـالـتـجـمـ وـالـعـيـاـفـةـ وـالـقـيـاـفـةـ وـقـيـ اـتـكـالـ الـحـرـافـاتـ الـأـخـرـىـ وـهـكـذـاـ
كـانـ الـعـلـمـ فـيـ جـيـعـ أـنـوـاءـ الـمـاـكـيـنـ الـرـوـمـاـنـيـةـ بـعـدـ خـرـافـةـ وـجـهـلـاـ

بهم على قارعة الطريق خزن أكثر الرهبان لاتهمهم بهذه التهمة التي يعرفون أنها سلطة التائج فلذلك انفذوا الوسطاء والشفعاء إلى ثوفيلس يرجونه صفحًا ومغفرة ولكن الاربعاء الاخوة واصدقائهم الاخماء نظروا إلى هذه التهمة بعين الازدراء والاحتيار ولم يعبأوا بها قط بل أعدوا تهمة قانونية ضد بطريركهم ورفعوها ببطريرك القدسية فكتب هذا البطريرك إلى ثوفيلس مرة أخرى واخطر له اسفه الشديد من أن خصومه جروا معه على الخطأ التي سار هو عليها معهم ثم قال انه حرضهم على ترك القدسية فلم يفلح . فاجابه ثوفيلس جواباً مملاً من الغضب والحق وقال :

(اذا كنت لم تقف على مضامون الدستور الذي وضعه المجتمع النيقاوي القاضي بعدم تداخل اسقف أو بطريرك في المسائل التي لا تتحصر ضمن دائرة سلطته فارجوك أن تطلع على هذا القانون وتدرسه حتى تريح نفسك من التعرض لي وتكلف عن الصدام والجدال معي . أما اذا قضى الزمان على المحاكمة فسوف يحاكمي اساقفة مصر ولي لا انت ولا غيرك من هم بعيدون عنا يقتضي لوصولنا اليهم أو لوصولهم اليانا سفر ٧٥ يوماً كاملاً)

فقرأ وحنا كريوسنتم هذا الجواب بالرضى والادعاء واخذ يبني جمهده في اقناع الاخوة الطوبى القامة واصدقائهم على فرض هذا المشكل

بالحنى وابطال رفع الدعاوى التي تولد الحقد والغسل ولكن هؤلاء لم يرخصوا بل استأنفوا قضيتهم الى الامبراطور ايديوكسيا وتسلوا اليها ان تأمر بسماع دعواهم قانونياً . وكان لهذه الامبراطورة تأثير يذكر على قلب زوجها فحملته على اصدار امره باستدعاء ثوفيلس الى القدسية حتى يمكن للبطريرك كريوسن ان يفحص المآلء نفسه وبيت فيما حكمًا قاطمًا . وملعون ان هذا العمل يعد اجحافاً بحقوق ثوفيلس وهضم اساطته لانه بصفته ببابا الاسكندرية كان مساوياً في القوة والمعنوية الامبراطور اركاديوس نفسه وله في مصر ما لها من النفوذ والسلطنة لان الامة المصرية كانت تعتبر بطريركها اعتبارها للملك المتوج بل لم تكت هذه الامة تهم كثيراً بامر اوئل الامبراطرة ببعدهم عنها . فلما صدر الامر ثوفيلس بالذهاب الا الاسكندرية لم يرفض الطلب رفضاً باتاً كما انه لم يذهب بل تأخر مدة من الزمن الى ان رفعت الدعاوى ضده غيابياً وافتتحت بفحص الشكاوى الموجهة نحو رهبان وادي النطرون فاتضح عدم صحتها ومن ثم حكم الجم بسجن الخمسة رهبان الذين انفذهم ثوفيلس ليشكوا ضد رهبان وادي النطرون وظلوا في السجن الى ان توفي بعضهم وكان ثوفيلس في هذه الاناء قد ارسل مكتوبًا الى ايفانوس اسقف سلامين يرجوه فيه الذهاب الى القدسية وعرض قرار المجتمع الاقليسي الخاص بمحرم اوريجانوس والحكم عليه كهرطوقى على كريوسنتم ليصدق

عليه ويعبره بخته ولكن هذا البطريرك رفض ذلك قائلاً إن هذه المسألة تحت نظر مجمع عام فهو يحكم فيها حسب القانون وفي سنة ١٩٠٣ سافر البطريرك ثوفيس قاصداً القسطنطينية وأثناء قيل سفره انه ذهب إليها ليخلع يوحنا (١) بطريركها من وظيفته قصاصاً له على اعماله التي اثارها ضدّه . فسار البطريرك المصري إلى عاصمة الملائكة في إبنة السلطان تحف به حاشية من ألقنة مصر والجيشة وتحيط به زمرة من الكهنة والقوس كالملوك والسلطين فالقت سفينته مرساها في مياه البوسفور التي كانت تعكس أشعة شمس شهر يونيو على مياهه فيخالها الرأي جلينا أو عسجداً في أيام بحارة المراكب المصرية التي كانت راسية هناك حاملة ضريبة الخطة وادواله واجيات التعظيم والتجليل وهم يفرحون ويطلبون ولكن قوس القسطنطينية لم يغدو لاستقباله او الاحتفاء بقدومه فلذلك لم يرغب في الاقامة بالقسطنطينية بل قصد خلقدونية ومدّث بها حيث لاقاه سيرينوس أسقفها المصري الجنس بكل اكرام وتعظيم واحدن وفادته . فلما استقر به

المقام ارسل يستدعي كريسوسم بانفة وعزّة نفس يعزّ نظيرها وطلب منه الحضور امام الجمّ يدفع عن نفسه تهمّات طويلة عريضة اتهمه بها اعداؤه وسعوا في اثباتها ضده وكانت اكبرها عدّيـة الاـهـيـة لاـمعـنى لها بل قصدوا بها ازعاج خاطره ووسوـة عقله ولكن ثوفيس اختار تهمتين من هاته التهم الكثيرة ورتبها ترتـيـباً يعـرـضـها ولاـيـسـهلـ دـحـضـهاـ أولـاهـاـهـاـمـ كـريـسوـسـمـ هـذـاـ بـتـقـيـهـ الـامـيرـاطـورـةـ لـقـبـ «ـايـزـابـلـ»ـ (ـهـيـ اـمـرـأـةـ اـخـابـ مـلـكـ اـسـرـائـيلـ الشـرـيرـةـ)ـ وـالـثـانـيـةـ اـنـهـ تـكـلمـ صـدـهاـ كـلـامـ آخرـ لـاـقـ يـدلـ عـلـىـ اـحـتـارـهـ لـهـاـ .ـ فـلـمـ يـنـكـرـ هـذـاـ بـطـرـيرـكـ بـاـنـهـ دـىـ هـذـهـ اـلـامـيرـاطـورـةـ بـاـسـمـ ايـزـابـلـ فـيـ عـظـمـ القـاـهاـ عـلـىـ مـلـءـ مـنـ النـاسـ .ـ ثـمـ ١٩٣٣ـ بـتـهـمـةـ أـخـرىـ لـهـاـ مـسـحةـ مـنـ الـحـقـيقـةـ هـيـ اـنـهـ عـمـلـ عـلـىـ هـضـمـ سـلـطـةـ بـعـضـ الـأـرـاخـنـةـ وـتـجـيـصـ الـآـخـرـينـ عـلـىـ عـصـيـانـ رـؤـسـاـمـ الـرـوـحـيـنـ وـكـانـ يـقـضـ ثـوـفـيـلـسـ بـذـلـكـ مـسـأـلـةـ رـهـبـانـ وـادـيـ النـطـرـوـنـ وـمـنـ مـمـمـ الـتـيـ كـادـتـ تـصـبـ نـيـاـ مـنـسـيـاـ وـتـطـرـحـ فـيـ زـوـيـاـ الـأـهـمـالـ لـوـلـاـ انـ حـرـكـ سـاـكـنـاـ هـذـاـ الـبـطـرـيرـكـ الـاـكـنـدـرـيـ وـطـلـبـ شـهـودـ الـأـثـيـاتـ وـلـكـنـ اـحـدـ الشـهـودـ وـهـوـ دـيـسـفـوـرـسـ كـانـ قـدـ اـنـقـلـ اـلـىـ رـحـمـةـ مـوـلـاهـ وـلـمـ يـقـ سـوـيـ اـمـوـيـوسـ اـخـيـهـ (ـاـنـ كـلاـ وـكـرـسوـسـ)ـ هـيـ لـقـبـ اـطـلـقـ عـلـىـ بـطـارـكـ القـسـطـنـطـيـنـيـةـ وـمـعـنـاـهـ فـمـ الـذـهـبـ اوـ ذـهـبـيـ الـفـمـ اوـ ذـهـبـيـ الـفـمـ وـكـثـيرـونـ مـنـ الـقـرـاءـ يـعـرـفـونـ بـوـحـنـاـ قـمـ الـذـهـبـ الـاـكـنـدـرـيـ الـمـصـرـيـ الـذـيـ اـشـهـرـ بـزـلـاـةـ لـسـانـهـ وـطـلـاقـةـ يـاهـ وـاصـهـ فـيـلـيـسـوـفـ وـنـيـ مشـهـورـ بـنـ كـبارـ الـعـلـمـاءـ فـيـ ذـلـكـ الـعـصـرـ

على العين وابحاج التأثير في قلبين يقبلانه حالاً قبل الأرض الجدباء للماء
القراح . وفي هذه الائتمار أرسلت الإمبراطورة خطاباً صادراً من ديوان
الإمبراطور إلى مجمع خلقدونية جلاسته الثانية عشرة وفيه تحريم على المجمع
بإصدار حكمه في مسألة كريوسوم بغایة ما يمكن من السرعة والذي
دفعها إلى ذلك حنفها على هذا البطريرك وتغيمظها منه لانه شتمها
واهانها

و على ذلك حكم المجمع بخلع كريوسوم من وظيفته ثم صدر أمر
الإمبراطور بفتحه حالاً خارج القسطنطينية ولكن ثوفيلس فعل كل هذا
ان قوة عسكرية جاءت فطردت المهاجرين خارجها بالعصي والمعامل .
وكانت الشوارع قد امتلات بجمور من الاوبارش التائرين وهم يلاؤن
القضاء بصاحبهم طالبين ارجاع بطريركهم لهم وكادوا يجمون على ثوفيلس
ويأخذونه غيلة مع تعضيد الإمبراطورة له لو لا ان حدثت زلقة المزيع
الاول من الليل فهزت المدينة ورجتها حتى ان الإمبراطورة قامت مدعورة
من نومها وسارت سرعة الى مخدع زوجها ورجته ان يعيد كريوسوم
الي وظيفته ما دام ان السotas غضبت لاجله وكادت تصيب غضبها على
الارض حزناً عليه فابى يسمع الإمبراطور اركاديوس الا اجاية هذا الطلب
ولما عرف ثوفيلس ما تم وخاف قيام جميع الشعب ضده برج القسطنطينية
حالاً وعاد راجعاً الى الاسكندرية . وللحال انعقد مجمع من نحو ستين
اسقفاً انجى كل اجراءات المجمع السابق وقرر ان كريوسوم لا يزال

بطريرك القسطنطينية . أما ثوفيلس فكتب خطاباً إلى بابا رومية يخبره فيه أنه جرد كريستوس من وظيفته فرد عليه هذا البابا يسألة أبابا هذا التجريد ثم قان له أنه لا يزال على تمام الصدقة ولا خاتمه ومع كريستوس أيضاً

أما بابا الإسكندرية ثوفيلس فلم يكف عن أبابا الخصم والنزاع ولم ينتأ يناسب كريستوس - تم العداء فاوفد وفداً من قبله إلى القسطنطينية ولم يذهب هو بنفسه معتذراً بكثره اشغاله ووفرة الواجبات الضرورية المحم علىه أذوهارعيته فناب هذا الوفد منابه في التدابير التي افضت إلى طرد كريستوس طرداً نهائياً من إبروسيته باصر استصدروه من الامبراطور والامبراطورة مما . واتفيذ هذا الامر ارسل خصوصه كوكبة من الفرسان هاجمت الكنيسة بينما كان البطريرك يؤدي خدمة عيد الفصح وقبل انه كان يوجد في هذه الكنيسة أكثر من ٣٠٠ نفس طالبين العهد فطردم العساكر من المعودية باسته لرماح ثم دفوا كل الشعب خارج الكنيسة بالقوة . فتقدم جماعة من القوس الاشداء وجمعوا طالبي العهد من الشوارع واخذوهم إلى حمامات قسطنطين وقرأوا على الماء التي في هذه الحمامات وبياركتوه انتم عمدو القوم بكل نظام تام وسرعة زئدة ولم يكدر لهم عماد الجميع حتى سمع العساكر بذلك فهجموا على القوس وطردوهم من هناك أيضاً . وأخيراً صدر الحكم النهائي

بني كريستوس وذلك في يونيو سنة ٤٠٤ وظل في منفاه إلى أن توفي في خريف سنة ٤٠٧

دُخُولُ الْمَلَكِ

الفصل الحادي والعشرون

(سينيسيوس الوديني)

ولد سنة ٣٦٥ للمسير و١٨ للشهادة

في آخر رئاسة ثوفيلس حدث بهذه وبين سينيسيوس الوديني صدقة وولا، وكان الأخير رجلاً مشهوراً بالعلمية والفضل ولله رابطة مع حوادث تالية سمعها فيما يلي :

ولد هذا العالم في مدينة قورينة سنة ٣٦٥ من عائلة يونانية قديمة استوطنت هذه المدينة في الأيام الباكرة وكانت لعائتها هذه أملاكاً واسعة وعقارات كثيرة في مقاطعة بنتابوليس . وكان قد صرف بعض شبابه في الجيش ولكنها استوفى من منصبه وهو بعد شاب وعكف على درس الفلسفة والتبحر فيها

وكان الدهر قد عبت بمدرسة قورينة الشهيرة وأودى بها فساد سينيسيوس إلى الإسكندرية ليتلقي العلوم فيما مثل غيره من الطلاب الذين كانوا يوماً من المدارس الولائية التي كانت في ذلك العهد قد انحطت ودخلت في دور التعمق . وكانت هيأشا الشهيرة قد بدأت تلقى الدروس

على التلامذة الذين ينهم سينيتوس وكان وجهها يطفح بالجمال وعقلها يفيض
علمًا ومعرفة ففعت موهبها هذه في قلب سينيتوس الجندي الباسل فصار
عبدًا مطیعاً لها وبعد اعتناق الديانة المسيحية أصبح صديقها المخلص لولاهما
المحب بخصالها وفقها . ولم تكن هيأشا إلى ذلك الحين قد حازت
المعرفة التامة فيما يختص بعبادى، الفلسفة الوثنية ولم تكن قد استوعبت
العلوم المصرية الرفيعة بكل اجزائها ولكنها جدت فيما بدموا جهده حتى
تضلت في هذه المعرفة واستعملتها لاصلاح الفساد السريع الذي سرى
في الديانة المسيحية بالاسكندرية كما أسلفنا . فلما رأى سينيتوس
أن معلمه ليس في وسعها ثقيف عقله كأن يبني جنج قلبه إلى مدارس
آثينا عاصمة اليونان والتردد عليها خصوصاً وأنه كان يحن إلى زيارة وطنه
ومنيت الله حنين من تشبّث نفسه بحب الوطن وما فيه . فارسل إليه
صديق من أصدقائه جواب توبخ يمنه فيه على تركه الاسكندرية
وذهابه إلى آثينا وتعلقه بعبادتها وديانتها فرد عليه سينيتوس ردًا جيلاً
هذا مغزاً : -

(اني بذهابي الى آثينا ساتحصل على الاقل على شيء واحد مفيد
هو اني لا أعود انظر نظرة الاحتراز والاجلال الى اولئك الاشخاص
الذين مع انهم لم يفوقونا في معرفة فلسفة افلاطون وارسطو طليس
ولكتهم يعدون انفسهم في مصاف الالهة ويدعوننا نحن حيوانات صماء

بكمَا لأنهم حضروا الجمعية العلمية العالمية مرّة وشاهدوا دار الفنون ، المعارف
باعينهم فقط فالذكى يحتقر ، نا ويزدرون بما لأننا لم ننظر هذه الآثار ولم
نحضر جلسات الجميات العلمية فالذكى دعّتني الغيرة وحب الماظرة والبارزة
إلى مساواتهم في هذا الشأن والسبق عليهم في غيره
أما سينيتوس فلم يطال الاقامة في آثينا بل انكشفت له اباهه هذه
المدينة وعظمتها فظهرت امامه بظاهر حقرها في عينيه حتى انه قال عنها
انها مثل حيوان مات فلخوا جلد وملاؤه قشًا ونصبوه ليغروا الناس
بأنه حيوان والحقيقة أنه خياله أو مثاله . ولم يبق في آثينا حينذاك من
الصنائع المهمة - سوى استئجار الشهد من خلايا النحل . قال سينيتوس إن
أشهر الأساتذة والمعلمين في آثينا لم يستمليوا تلامذتهم عليهم بواسطة القاء
العلوم المقيدة عليهم بل باهداهم هدايا وافرة من عسل النحل فيغروهم
بهذه الطريقة على مداومة الحضور لمدارسهم
وبعد أن تحصل سينيتوس على شيء كثير من العلوم في الاسكندرية
وأثينا عاد إلى مصر ومحك في بيتا بوليس يعمل في أملاكه ويدبر حركة
عقاراته بعقل واسع ومعرفة كاملة . وكان له آخر اسمه افويتيوس أحبه
جبارًا و كان يكتبه في مدة غيابه بلا انقطاع ولا تزال بعض مكتاباته
موجودة إلى الآن وفيها دليل كاف على أن المصريين المتعلمين في أواخر
القرن الرابع كانوا يمثلون غيرهم من علماء القرن الوسطى والحادي عشر كما

ان الفلاح المصرى في هاتيك الايام كان عاقلاً عارفاً غزير المادة اكثراً من التلميذ المصري في هذه السنين . وهاك جواب ارسله افويتيوس الفلاح الى أخيه سينيتوس بينما كان هذا متنعياً في اثنينا مترجم هو وغيره عن الموات نفسيها بغاية الدقة والوضوح : -

أخي المزيف

نحن الان نستيقظ من نومنا مبكرين بواسطة صهيل الجبول ونخوار الشيران وبسبعة الفم والمعزى ونلتئم موشر الفلاحين مما كانا من مائة واحدة لا يشوب اجتماعات القوم المتعددين من التجاليد والنافر والتباغض بل يساعد الواحد من اقاربه في كل واجباته واعماله واء في زرع الاراضي وتغليحها او في رعي فطم ان الفم واسراب المعز او في صيد الظباء والابائيل التي لا يعذر افتتاحها الافى الاريات ووسيع الخلاء . أما طمامنا فبيط خفيف هو خبز الشمير تلذذ من اكله ويعريء جسمنا من غذائه ولا نفرح باطباب الافاویه ونهدد اصناف المآكل على الحوان مما نظر فيها تحمة للمعدة . ولسنا نشرب سوى عصير الشمير الذي نأكله فذهب عنه بعد كثرة الشغل فيمتصل من اجسامنا الحرارة الشديدة التي نعاذه بها في أيام الصيف ولا نخفي غيرها من انواع المشروبات المذهبة للعقل المضمنة للبصر الحطة للشرف المحرابة للعجب . ولا تظن انا نأكل الشعير ونشرب عصيره لتحقق ذات يدنا او لانا محرومون

من المواد الاخرى بل اعلم ان عندنا مقاديرأً وافرة من القمح واكداً مكدة من الفواكه والاطيب الالذيدة واواعية مفعمة بقطر الشراب وبين الاغنام الذي تستدره منها ونأدم به ولا نخل الابقار بل ترلاً لبها لفصيلها ينتدي به ويقوى ، أما احسن أكل تنفتح له الشبكة فهو ما نصطاده بيدينا ونتعب بالحصول عليه . ولنا آلات طرب تلذذ لسماعها ونطرب وهي وطنية صرفة عبارة عن قصبة مزمار علاها الصداء لها نغمة خشنة فهي تنفع لان يستعملها احد استاذكم كعصا يؤدب بها تلميذة مدرسة افلاطون اذ لا يمكن لكم ان تشجو من نفاهما ولا يحرك صوتها الا جيش - اكن احساياتكم التي ترق ترقاً فصارت لا طارب من الذي يطرب منه الفلاح الساذج نظيرنا الذي له بعض ادوار بسيطة اختارها ارباب الطرف منا ليس لهم التوقع على آلات بها وهي ادوار ليست على شيء من الرقة ولكنها تختص بمدح الكلاب القوية التي لا تخاف الضياع ولا تخشى الذئاب بل تنقض عليها وتقبض على ارقابها فقتلاها . وكثير من هذه الاغاني ثنا ، وشكراً للنعجة التي تلد توأمين ولا شجارتين التي تحمل ثمراً كثيراً وفيها ايضاً نزل بالحر وباق انواع الشروبات والانبذة . واكثر ما يكون من اغانيانا تسبح حمد وطلب بركة الله على الانسان والنبات وكل عشب اخضر . أما عن الملك (أي الامبراطور) واصدقائه فليس لنا

شيء نقوله عنه سوى أنها نعرف بوجود ملك حاكم علينا ويدركنا
بوجوده الحياة الذين يحيطون بجمع أموال الخراج ولكننا لا نعرف من
هو هذا الملك أو ما هو اسمه حتى إن البعض منا يظنون أن أغايمون
بن آريوس الذي اشتهر في حروب طروادة لا يزال ما علينا إلى
الآن والذي حدث بهؤلاء البعض إلى هذا الظن هو مسمعوا
طفولتهم أنه يوجد ملك اسمه أغايمون فقالوا إنه لا يزال متسلطاً
إلى الآن وإلى الأبد . ولا يخطرن على بالك يا شقيقتي إن هذا ناتج عن
جهلانا أو تقصير في معرفة حكامنا بل إننا قوم لا علاقتنا بهؤلاء الملوك
والقياصرة ولا يهمنا من أمرهم سوى العدل واجراء الانصاف بين الرعية
فليس من الضروري معرفة اسم الملك أو نظر رسمه ما دمنا جماعة متذمّحة
بساط القلوب حتى لا تتعجب جداً إذا قلت لك إن الكثيرين من
الفلادين الذين بلغوا من العمر شدّه أحياً ما يسألونني عن المراكب وشكّها
والفروع وكيف توضع عليها وبأي كيفية تسير هذه الجواري في المياه السائلة
فما شرح لهم ذلك ببيان وإيضاح وقد يصدقون ويفهمون ولكنني إذا
قلت لهم أنه يوجد في البحر حيوانات حية متحركة يأكل منها الإنسان
ويقتدي فقد لا يصدقون قولي ولا يعقلون كلامي بل يذهبون أن كل
ما يأكل ومشرب لا يأتي إلا من الأرض التي هي أم كل حي . ولما اتبعت
معهم في البرهان على وجود سلطنة البحر اضطر أن أجيء لهم بمجرة فيها

ماه وسک من ارض مصر واقتھا امامھم لاقعہم بوجود هذه الاسماء
في مياه البحار ولكنهم مع ذلك لا يقتعنون بهذا البرهان بل يقولون
انها هذه الايام هي حیات واحناش سامة تجنبت الزعاف فصارت
نعوم وتسبح بترلي عظامها لا بد وان تكون ملائی بالسم الزعاف
كالباب الاول وغريب أن رجالا يعتبر من انبه الفلاحين واعقولهم قال
ان لا يسعه التصديق بوجود شيء يصلاح للاكل والغذاء في المياه المالحة
في الابحر سوى شيء من الضفادع والعلق الذي نجده في اماكن ماء
الشرب التي لا يجسر حتى المعتوه على اكلها أو القرب منها «
اما جماعة الفلاحين الذين كانوا يستغلون في حقول سينيتوس فاكثرا هم
من العبيد الارقاء ورثتهم اباوئه عن اجداده وورثهم هو عن الاباء وهم من
ابنا البلاد كانوا يعاملون معاملة طيبة حتى كأنهم اولاد صاحب الارض
وحدث في سنة ٣٩٧ ان الضرورة اجأت سينيتوس للذهاب الى
القدسية لعمل هام يتعلق بعدينته وصالح بلاده فكث في اسعيabol
ثلاث سنوات كاملة قبل ان ينظر أحد من رجال البلاط الملاوي اليه او
يهم بعمالة وذاته لكثره ارتباكات الحكومة وخل نظمها في هاتهik
الايمان (وهذه ايضاً) . وكان له صديق اسمه اورليان هو فيلسوف شهر
له نفوذ قوي وتدخل متين في شؤون الملكة فساعد سينيتوس في اصر
خطير هو ان صدر النطق الامبراطوري لسينيتوس هذا يان يلق خطايا
على مسامع الامبراطور او كاديوس ورجال حاشيته وكبار عمال دواه

فاصاب هذا الامر مغزاً في نفس سينيتوس الذي كان متقيطاً جداً من سير الاعمال في حكومة القسطنطينية ومتاء من الخطل الكبير الذي اتى بجسم هذه الحكومة ولذلك اختار موضوع خطابه هذه العبارة « خطارة وظيفة الملك وواجباته نحو رعيته ». فإذا صح ما نقله اليانا الناقلون عن هذا الخطاب وما فيه من قوارص الكلم فهو يدل على ما كان عند الامبراطور اركاديوس من سمو المدارك وشرف النفس وحرية الفكر لانه صفتى الى هذا الخطاب القاسي بكل اناة ولطف ولم يتخلل من سهام الكلام الموجه اليه كايفعل غيره من الملوك والاقيال الذين يتعلل على صفات آذانهم قول الحق فلم تظهر عليه بوادر الغضب الكامنة في نفسه ونفس اسلافه من العنصر البيزنطي فسمع قول سينيتوس بكل هدوء ورضاه حيث قال هذا في عرض خطابه المذكور : -

(اسمع يا جلاله الامبراطور واصغ لاقوالي . أن ترفعك عن مقابلة الناس وظننك ان الاختلاط بالرعية يخفيض من مقامك ويجعلك مساواً لها - ان هذا الفكر اوجد عندك مبدأ العزلة والانفراد حتى اصبحت كسيجن في قصرك لا تعرف شيئاً مما يجرى في مملكتك ولا تقف على امر من الامور السائرة في حكومتك التي لو عرفتها لصرت اكثر خبرة واوسع دراية بشؤون دولتك مما انت عليه الآن . بل خالفت القانون الطبيعي ووضعت نصب عينيك الملاذات النسائية والتمتع بكل انواع السرور التي تروق لك بعض النظر عن شعبك ورعايتها فلذلك كانت حياتك

*) ٣٤٧

الخاسين وهو لم يكن يعرف شيئاً عنها حتى في مدة وجوده بالفلسطينية وبعد أوبيه منها . وقد كتب فيما بعد عن هؤلاء المسيحيين يقول : -

« أني ابداء بشكر جماعة القوس واتي على مرؤهم وشجاعتهم وهم الذين اظهروا من الباله وفوة البايس ما يحمدون عليه حتى انهم فاقوا الجنود المدربة الذين لما كسر لهم العدو عن ناب الغضب ولووا الاذبار ولم يقفوا له في طريق ولكن هؤلاء الكتيبة بواسل جمعوا شعبهم وبعد ان صلوا الله طالبين المعاونة والنصر قاموا يذبون عن يضنه وطنهم ودافعوا عن دفاع الاسود الكواسر . ومن اجمل ذكره في هذا المقام ان الاعداء تخصنوا في أخدود (واد ضيق) كثير الادغال والاحراش وساروا نحو البلاد دون ان يقابلهم جند يصد هجماتهم ولكن البطل المقدام فو سطس وهو شهاب ذكي الفؤاد اعترضهم في طريقهم وهو اعزل من كل سلاح وهجم على جندي من الاعداء مدرج بعمدات القتال والآلات العذراء فضربه بحجر في رأسه غاص في جبهته فالقاه على الارض صريحاً ونزع عنه سلاحه وتقدم نحو القوم ينازفهم ويكافحهم حتى قتل كثرين منهم وهكذا كان حال الآخرين من رجال الدين الذين اظهروا شجاعة وبسالة تستحق المكافأة الحسنة بل لو كنت ملكاً لوضحت على رأس كل منهم تاجاً من الذهب الابريز وشررت اسحاقهم في طول البلاد وعرضها لانهم من الرجال المعدودين الذين ابدوا شهامة ومقدرة يعجز عنها الاولون والآخرون حتى ظلم اكثير العارفين ان اهل اينا لم

يكونوا من الفزاء الاقواء الذين يحاربون ويقاتلون بل هم قوم خطفة سالبين يسهل الانتصار عليهم ورد كيدهم في نحورهم » ولكن مدافعة عدد قليل اعزى من المسلمين الاشداء لم تكن تغنى فتيلاً ضد جماعة من المهرج المتواحدين كثيرون يددهم وزادت قوتهم حتى اضروا بالبلاد ضرراً يتضح لك مقداره مما كتبه سينيتوس في هذا الصدد حيث قال : -

(لقد الحق بنا هؤلاء العتاة خسارة جسيمة اذ احرقو الزرع واهلكوا القسرع ونهبوا البلاد وسبوا النساء والاطفال وقتلو الصغار والرجال ولم يبقوا على احد وكانوا قبل ا تكون الشبان احياء ولكنهم عدلوا عن ذلك لانه لم تكن عندهم جنود تكفي لحراسة الاسلاك والغائم وخوض معاهم القتال . كل هذا ولا تزال بارقة من الامل تضيء امام قلوبنا حتى صرنا نعكت في منازلنا منتظرين مجيء المساكير المنظمة لا تقاذنا من مخالب هذا الموت الزوأم ولكن الفتح لنا بعد ذلك ان هذا الامل يعد ضرباً من الحق لأن النجوم اقرب لنا من قدوم جنودنا ولم يبق علينا سوى ان نعتقل البيض الصفاوح ونستعد للحرب والكفاح دفاعاً عن ابناءنا ونسائنا ووطننا العزيز . وقد كتب هذا الجواب وانا منتظر صهوة جوادي لاني مشغول في مراقبة الجيش الذي جيشه ورتبته من شبابنا وشبان جيراننا وصرت الان اسير على الاعداء والامل رائد في على ان كثيرين من الفتيا سيتعون وينتفعون في النزود عن دمار

الوطن والأهل)

وكانت صورة هذا العمل تنطوي تحت عدم وجود الأسلحة خصوصاً وأن أخاسينيوس لما بلغه خبر هذه الحرب كتب لأخيه كتاباً شديداً للهجنة يخبره فيه أن عمله هذا عرضه لتهمة خيانة الدولة لتجيشه الجيوش وتبعته الفيالق في وسط بلاد الحكومة وهو عمل تستأذ منه القوة الحاكمة وتحتى عاقبته فرد سينيتوس على أخيه يقول : —

(ان سذاجتك وبساطة قلبك وعدم تبصرك في عواقب الأمور اضرت بنا ضرراً عظيماً لأنك اعتقلا من الحصول على الأسلحة حتى اقترب العدو منا وصار قاب قوسين أو أدنى وأخذ نهب ويلبس ويقتل ويذبح ما دام لا يوجد معنا جيش يدافع عنا ولا سلاح لدينا نصد به هذا المهاجم القوي . فهل يصح لك بعد هذا كله أن تخطئنا وقول أنه لا يجوز لأحد من أفراد الرعية حل الأسلحة النارية وان الحكومة تمنجب وتنتاظ من كل شخص يدافع عن نفسه . اتني أن أموت يوم انظر بلادي تسترد مجدها الطارف وتعيد إليها سلطتها ورونقها . نعم ابني اموت يومئذ فرير العين سرتاح البال على وطني الذي إليه أحن ونحوه تصبو النفس وتطمح الأ بصار)

وقد كتب سينيتوس بعد ذلك إلى العلامة هيبياشا في هذا الصدد يقول : (اذا صدق قول هوميرس الشاعر — « في الجحيم من يذكرك » على الآخرين فهو لا يصدق على أنا الذي مازلت اذكر العزيزة هيبياشا

بين شفرات السيف وصليل بعض المهد . وانني لا خاف على قلبك ان يتتصدع اذا انا ذكرت لك ما اعانيه من حزن يقضم الظہور على بلادي اناخ عليه الدهر كل كله وما انا فيه من كآبة واسى على رجال كرام يجز العدو رؤوسهم بسيفه الصقيل كما يجز الجزاء صوف القنم او كما يجز الجزاء رأس الكباش حتى صار المهواء الذي استنشقه ملائماً بالروائح الكريهة المتتصاعدة من حيث القتلى واشلاء الموتى ولذلك صرت انتظر الموت لنفسي بين آونة و أخرى وأرى كأن هذه الطيور الجوارح التي تحوم في الجو تأكل من جسدي بعد موتي كما هي الان تمرق اجسام هؤلاء الموتى المساكين وتغلاً بطنها بها . كل هذا وانا لا ازال عن ما انا عليه من الحب لوطنى والميل الى بلاد تضم رفات اجدادي الكرام والنفس في تحن الى ارض يحوى ربها بقايا أولئك الآباء الذين شادوا لذاصر ووح الحمد والفتحار فلنبرهن باننا ابناء ابائهم لا ان نعم جحيلهم علينا وعلى هذه البلاد يا كلها . فاذا ساعدنا الدهر وفزنا بالنصر اتبعت اميال قاتي من نحوك وتركت هذه البلاد وجئتكم يحملني اليك الشون وتحمدوني حادي الود الصحيح والولا ، الطاهر . فصبراً)

وكانت التبيجة ان سينيتوس فاز بالنصر الذي كان يرجوه قعاد الاعداء ناكسين على اعقابهم وتعتمت البلاد بالراحة والمنا ، بعد طول الجهد والعنا . أما سينيتوس فوفي بوعده مع هيبياشا وسار بحث المطابق ان الاسكندرية لزيارة هذه العالمة التي اشتهرت بجمال الوجه وكمال العقل على الآخرين فهو لا يصدق على أنا الذي مازلت اذكر العزيزة هيبياشا

حدث له في هذه المدينة حادث يستحق الذكر هو أن قلبه وقع في نفاح المحب لانس مسيحية ومال إلى الاقتران بها فسوى جهده إلى اقناعها بذلك فرضيت وعقد لها البطريرك ثوفيلس عقد الزواج (مع ان سينيتوس لم يكن قد صار مسيحيًا بعد) وكان هذا البطريرك فرحاً بذلك الزواج الذي يقرب هذا النابغة إلى الديانة المسيحية ويوجد بينها وبين صديق هياشا رباطاً متيناً لأنه يظهر أن العالمة هياشا كانت في ذلك الوقت خصماً للدوداً للبابا ثوفيلس كما كانت كذلك مع خلفه كيرلس ولم يعتنق سينيتوس الديانة المسيحية عند زواجه ولم تخمد نار محبته الطاهرة لعلمه هياشا وقد كانت قريبته من صديقات هياشا المسيحيات وفي الأربع سنوات التي تلت قرآن سينيتوس أخذت الديانة المسيحية تعمل في قلبه عملها المعروف حتى اعتنقها بسرور وفرح لا يوصفان ولا غزو في ان القلب النقي والعقل الذي يقبلان هذه الديانة الطاهرة باسرع مما قبل الأرض الطلاقة ماء المطر المتأخر

اما زواج سينيتوس فكان في سنة ٣٠٤ وملكت في الاسكندرية سنتين بعد زفافه وضع في النائم ما فذلك عن الرؤى والاحلام والفال أيضاً بذلة ايات فيها ما يعتقد هو في الديانة المسيحية وما يعتقد باقي المسيحيين فيها ولسبب هذا الاختلاف بينه وبينهم وقد جعل سينيتوس اهله كبرى للرؤى والاحلام وقال ان احلامه التي كان يراها في منامه كانت الرائد الوحيد له في اعماله اما النبذة الثانية فكتبها ليرد بها على

الانتقاد الشديد الذي وجده ضده فلاسفة الوثنيين ورهبان المسلمين وايدفع عن نفسه ما رموه به من سفاهة الرأي واعوجاج المبداء في كونه خالفاً ذلك الفكر الشائع في مصر بخصوص الرهبنة والتبتل حتى ان البعض يذهبون الى ان مبدأ الرهبنة وتعظيمها في مصر كان السبب الوحيد في تأخير سينيتوس عن اعتناق الديانة المسيحية من زمن مضى . ولما اكل سينيتوس وضع هذين النبدين ارسلهما الى العالمة هياشا التقدمة وتحصصهما فلما وقفت عليهما سرها ما قيما من غزارة المادة وقوتها الحجة و يؤخذ من الملحق الذي صنفه سينيتوس لهاتين النبدين انه صار مسيحياً في اثناء الثلاث السنوات التي مكثها في وطنه بعد عودته من الاسكندرية ويحتمل ان عماده تم بعد زواجه بحوالي خمس سنوات أما سينيتوس هذا فكان شاعرًا بارعًا وناثرًا ماهرًا ظهرت نفحات تأثير الديانة المسيحية في افكاره فأثرت في شعره ونشره . ولما دُرجم الى بلاده سنة ٤٠٤ وجد انه قد عادت الى عترها ليس وان جماعة الفرازة المتوحشين عاودوا الهجوم على البلاد لأنهم سخروا بحاكمها وهزأوا بضعف رأيه وخوار عن ينته فلم يكن ثمت وقت لسينيتوس ينعم فيه بالسعادة العائلية أو ينوص بافكاره في لجج العلوم وبحارها فистخرج منها ما يزري بالدرر الغوال فاعاد الكره على الاعداء حتى في جواباته وخطباته لاصدقائه في الاسكندرية التي كنت لا تقرأ فيها سوى ذكر يادر حرقت وقطعان نهبت وقرى سلبت وأصبح جميع الناس يستعدون للقتال والنزال . أما

حاكم هذه المقاطعة فترك وظيفته وفر هارباً فراراً الجبناء الانذال فقوضت
الحكومة الى سينيتوس امر الدفاع عن بطلومايس عاصمة اقليم بنتابوليس
ففعلاً في مهنته هذه فعلاً يظهر لك مقداره من نصوص المكاتب الآتية
حتى قال :-

العلوم الأخرى وهو يضاد في ذلك المبدأ الذي سار عليه ناشئة بنتابوليس
في ذلك الحين من تفضيلهم العلوم والفنون على الفلسفة وفروعها وهكذا
ما كتبه سينيتوس في هذا الصدد : -

(اني لا ارى اثراً للفلسفة في ليبيا باكلها ولا اسمع لها صوتاً - وى صدى
صوتي الذي يرن في الآذان فان لم يشهد احد لي بهذه الاسبقية فان الله
جل شأنه يعلم اني باريت الاخرين في هذا المجال الفسيح لانه اعطاني عقلاً
نيراً هو صنع يديه . كذلك النجوم والكواكب تنظر الي من فوق
منقرة مبتسنة لى لاني اعتني باصرها وارقب حركاتها وارصد دورانها
وميلها في فضاء هذا الجو الواسع الذي يهر الانظار ويغير العقول)

وقد سعى سينيتوس كثيراً في تنظيم رديف عسكري وطني في
مقاطعة بنتابوليس ولكن لم يفلح ولم يقبل أحد رأيه لأن سيادة الدولة
الرومانية لم تكن لتسمح للمصريين الكارهين سلطتها بالتجند وحمل
السلاح . وقد شرع سينيتوس ايضاً في مشروع مفيد هو ان يعيده بتعيين
حاكم مقاطعتهم الى والي مصر لا لديوان الامبراطور في القسطنطينية
وذلك لانه اتضح له بعد الاختبار الكبير ان تعيين الحاكم من قبل
الامبراطور يكون مجابة للضرر وسيبه انه لا يطمع احد بهذا المنصب في
بلاد بعيدة محفوفة بالمخاطر الدائمة وغزوارات القوم المتوحشين سوى
رجل يكون عرضه الاول جمع المال والحصول على الثروة في مدة ولادته
التي هي عبارة عن التزام او استئجار هذه الولاية . وقد ضرب سينيتوس

مثلاً هو ان احد حكام بنتابوليس جمع ثروته بطرق دنيئة قبيحة منها انه
فتح بيته لا ينبغي ذكره لهذا الفرض . وقد كان الناس يرسلون شكاوىهم
تبايناً إلى القسطنطينية ولكن بدون فائدة واحياناً لا تصل هذه الشكاوى
إلى ولاة الامور لصعوبة المواصلات وبعد المسافة بين هذه المقاطعة وتلك
المدينة القاصية مع ان اكثراً البيوتات الشهيرة في قضاء بنتابوليس كان لها
اقارب واصدقاء في الاسكندرية حيث يسهل التخاطب معهم وايصال
طلباتهم اليهم لرفع حيف أو طلب انصاف

ومضى الزمن الطويل ولم يعبأ احد من رجال بطانته الامبراطور
بهذه الطلبات العادلة فباج السكان وماجوا وسمعوا في دس الدسائس
ضد الدولة فاذعنوا هذه الى مطالبهم واستدعت الحاكم العسكري
الذى كان عليهم وعيّن بدهم حاكماً اسواء منه حالاً وارداء خصالاً
كان مشهوراً في الولاية باكلها بالشر والفساد حتى جميع افراد الرعية
وغضبوا من هذا الظلم الجائر وقاموا بكرجل واحد بطريقة لم تكن
تلذ لهم حتى كادوا يسلون جذوة ثورة في البلاد لا تحمد نارها
الاشق الانفس

ولا يخفى انه منذ ما جاس قسطنطين على العرش الروماني حملت
السلطنة الرومانية في مصر تنسل شيئاً فشيئاً من يد الامبراطور وعملاً به
إلى يد البطريرك والاساقفة وأصبحت القوة الحقيقة في القطر المصري

في قبضة الاباء الروجيين بدل الولاية الزمنيين (١) وسبب ذلك بغض المصريين للحكم الروماني حتى تعرفوا اخيراً وصاروا لا يخشون سطوة هذه الدولة ولا يهترون لهايتها ولا يهتمون لامرها سوى في دفع الضريبة السنوية المفروضة عليهم التي لم يدفعوها الا بعد تعب ومقاومة وتحكم سوط الحياة في اجسادهم كما اشرنا الى ذلك قبلأ . فما داموا يدفعون الضريبة ويؤدون جزء الحنطة المفروضة عليهم سنوياً الى القسطنطينية فالديوان الامبراطوري لا يهمه من أمر مصر شيء ولا يعمل على ما فيه راحتها وانصافها سوى انه كان يتميز غيظاً وحسداً من ازيد اداء سلطة بابا الاسكندرية وامتداد نفوذه الادبي والروحي . كذا كان اسلام السطوة من ايدي الحكام الى الاساقفة سارياً في جميع أنحاء المملكة على النط الذي سرى عليه في مصر وذلك لان الوالي من هؤلاء الولاية لم يكن يعرف شيئاً عن البلاد التي يحكمها ولم يكن يفكر في تقدمها وارتفاعها

(١) في مدة حكم امبراطرة الروم كانت مصر بجزء الى ست مدبريات يحكمها ولاة من قبل الامبراطور يستمدون الاوامر من القسطنطينية وليس لاحد في مصر حق الرئاسة عليهم . كذا كان الحياة الذين يجمعون اموال الخارج تحت سلطة القسطنطينية رأساً ولا علاقتهم مع ولاة مصر . ثم قسمت مصر بعد ذلك الى ثانية اقضية (١) طيبة العليا تتبعها ١١ مدينة (٢) طيبة السفل ولهما عشر مدائن عاصمتها الواحات البحرية (٣) ليبا العليا او قورينه (٤) ليبا السفل (٥) اركاديما (نسبة الى الامبراطور اركاديوس) (٦) نصف الدلتا الشرقي (٧) نصف الدلتا الغربي (٨) من تل بسطة ب مديرية الشرقية لغاية البحر الاحمر

بل كانت علاقته معها كعلاقة المستأجر مع اجيره او كعلاقة الغريب النازح مع المستوطنين فضلاً عن ان الاساقفة كانوا دائماً مصربيين ينتخبون من ذات البروشية التي يعيون فيها ولذلك كان يحبهم شعبهم ويرضخ لاشارتكم ويطيعهم طاعة تامة بحيث لا يخالفون لهم قولاً ولا يسيرون على غير رأيهم . اما الاساقفة الذين اصلهم رهبان ورقاهم انسانيوس وثوفيلس فع انهم لم يكونوا عبوبين كثيراً من شعبهم لجودهم وبالادهم ولكنهم كانوا يملكون قلوب الرعية في بروشيتهم بواسطة تقوفهم وغفهم ولا ز بضمهم كان عارفاً بقدور من علوم المصريين القدماء وفلسفتهم فكانوا يظاهرون امام الشعب بمعظمه العالم العارف ويعوهون على البسطاء السذاج منهم فلم يكونوا يخرجون عن طاعتهم او يرثون حاكماً لهم غير هؤلاء الاساقفة فقط . والذي زاد انحراف الرعية عن الحكم الروماني وبغضها له ما وجد في طبع هذا من الجشع والطمع وعدم المقدرة على ادارة امور البلاد بالحكمة والسداد حتى ان اهالي المديرية مثلاً كانوا كثيراً ما يهربون

الى تغير حاكمهم ويقع اختيارهم على رجل ينتخبونه ثم ياتمرون من البطريرك تعيينه استقراً عليهم ليحكمهم ويسوّهم . وكثيراً ما يكون في البروشية استقى بودي اعمالها ويدير حركتها ولكن لات ساعها وتعدد مدنهما يبعد بعض اهاليها الى تعيين استقى آخر تهدى اليه اعمالهم فيلاحرون على البطريرك والاستقى الاصلي بجاية طفهم ورسم الاستقى لهم وتخصيصه ببروشيه خاصة به وبهم او على الاقل تعيينه معاوناً للاستقى القديم

ولا انى انى ساكون بعفري مسؤولا عن كل شخص حاملا اثقال
جميع الناس وهذا عمل يحتاج وجلا نادر الصفات ثابت الجنان قوي العقل
والجسم ليقوم بشعائر هذه الامور الروحية بدون كلل او ملل)
وفضلا عن هذه الامباب السالف ذكرها كان يوجد سيبيان قويان
جدا يحulan سينيتوس على الابتعاد عن هذه الوظيفة ورفضها بتاتا . ذلك
انك عرفت في الذي من انه في مدة الأربعين سنة الاخيرة جرت العادة
بانتخاب الاساقفة من طفعة الرهبان وصار القس المتزوج محروما من
الترقية مثل هذه الوظائف . ولقد اعترض سينيتوس على هذه القاعدة
اعتراضا منه الحجة القوية والبرهان الصحيح حيث قال :

(ان الله والناموس ويد البطريرك ثوفيلس سلمتي امرائي التي اصرخ
جهازا انه لا توجد قوة في الكون غير الموت تقدر تفصاني عنها كما اني
لا اسير على مذهب ضعاف المقول الذين يقولون ان ابتعد عنها وازورها
سريرا كما يفعل الزناة الخاطئون فهذا العمل يخالف الانسانية والشراطيم الالمية
وعليه فسائل ملتصقا بقرني الى النهاية واطلب الى الله ان يرزقني منها
اولادا اتقياء يعبدونه وخدمونه)

هذا سبب من السببين اللذين بعضا سينيتوس في وظيفته الاسقفية
اما السبب الثاني فيختص بآرائه الدينية ومذهبه واعتقاده . فعلوم الله لم
يعن زمن طوبل على صدوره سينيتوس مسيحيانا كما انه تربى تربة وثنية
ورضع البان فلسفة هذه الديانة وعلومها ولذلك كانت افكاره في بعض

ولهذا السبب لم يعبأ سكان مقاطعة بتابوليس بتعيين الوالي اندرونيكس
حاكم عليهم وذلك لأن مقاطعة بطلومايس التي كان لها حق السلطة الدينية
على ابورشية بتابوليس كانت بدون رئيس ديني فقسم الشعب على اختيار
سينيتوس اسقفاً ووالياً عليهم فلم يتوقف البطريرك ثوفيلس في رسامة
سينيتوس ولم يتتردد في اجابة طلتهم لانه كان راغباً في اعطاء هذا المنصب
اكثر من رضى سينيتوس به . وفي هذا الحين كتب سينيتوس كتاباً مطولا
ادسله الى أخيه الذي كان مقيناً في الاسكندرية واوصاه باطلاع
البطريرك على خواه وهو يتضمن الشكر الكثير والثناء والافر على موطنيه
الذين زادوه شرفاً باختيارهم ايامه لهذا المنصب الخطير الذي شعر بعدم كفاءته
له وعدم رغبته في هذه الوظيفة لاسباب ذكرها في الخطاب المذكور
ما ذكرت على مغزاها حيث قال :-

(اني اقم او قاتي الى قسمين للرياضة والنزهة . وللدرس والمطالعة
في الوقت الذي اشتغل فيه بالدرس خصوصاً في الكتب الدينية انقطع
عن أي عمل آخر وامتنع نفسي عن ممارسة أي شغل ولا اذهب للرياضة
وتنمية اخاطر اكون وجلا ورعاً نقياً والورع لا يهم بالرياضة الجسدية
ولا بما ينزع النفس ويسير المؤود كما ان العيون كالها تتطلع نحوى لترى
ما اذا كنت متبعا لواجباتي فاما باعباء وظيفتي وويل لي اذا قصرت في
امر . كذا تجبرني وظيفتي الدينية الى الابتعاد عن المزلاة او الانقطاع للدرس
ومطالعة بل التزم بمخالطة الناس وصرف كل اوقاتي وجهي في التعليم والارشاد

النقط الدينية لا تزال مرتدة مضطربة مع انه عاهد نفسه صهداً متيناً
بعدم الخوض مع شعبه في المسائل اللاهوتية الغامضة قائلًا في نفسه ان
ما فائدة العامة من البحث في الامور الفلسفية الموصدة ما دام ان الله سهل
المأخذ قريب الايمان به ومعرفته بامور بسيطة لا تحتاج للتنقيب عن
اسرار والغاز تدهش العقل واللب ولذلك رغب في عدم ايجاد امر لشتم
منه سوء الفهم بينه وبين البطريرك وكتب يقول :

(اني اذا دعيت لمنصب الاسقفية فاي كلام اقول لها لا استطيع كلامها
وهي حقيقة يشهد على صحتها الله والناس ولا اخشى في قولها لومة لائم
لان الحق من عند الله الذي احب ان اكون امامه بلا لوم . ذلك اني
متقرم من نعومة اظفاري بعود الرياضة والتسليةولي ميل شديد لاقتناه
الاسلحة الفاخرة واحراز الحيوان الاصحاف ومع ذلك فاني راض ان اترك
كل هذه الاشياء واتخلل عنها ولو انه يسعني ان ارى كلاب العبيد التي لي
محجورة لا تصطاد ولا تطارد فريستها وان اترك سهامي واقواسي عرضة
للث والسوس يخترها وأأكلها ولكن هذه جميعها شيء تافه زائل لا يهمني
اذا اراد الله ان يستعملني آلة لمجده اسلمه واصطبغ الناس .)

وكما اني لبغض كل ما يشق بالى وينفع عقلي ولكنني مستعد لذكر اس نفسي
لخدمة المسيح خدمة احتل في سبابها كل عناء وتعب الا اني لا استطيع ان اغش
نفسى من جهة العقائد ولا ان اقول ضد ما اصرر ولا اصرح للباقي ان ينطق ضد الذي
في جنبي . وعليه فاني ارجو ان ترفعوا ايديكم نحو العزة الالهية ونفعوا
الي الله العظيم وان تعطيا من شعبيكم ان يصلوا عليكم من اجلى الى الله لكمي
وابأخذ يدي وينفع عملي . فاذا عصدي الله فاني اضع مرکز الاسقفية هذا فوق كل
مرکز آخر من نوعها وارفعها بمعونة القدير الى اعلى علبي ،)

الشريين ولا يحيطون بها ولا يوْا كائنة كائنة انبع على الاصفهان لاتتكلمون معها وهم احياء ولا يدفنونها بعد موتها . واذا ارتأى شخص ان يحيي هذاء الار لانه صادر من كنيسة صغيرة حقيقة كك كيستا فيختلط بهذهين الشقيقين عليه لم انه خالف اراده الله الذي ارسل ابنه المسيح ليغتصب هذه الكنيسة ونظيراتها بهذه ويجعلها كنيسة واحدة في اته ولذلك نضطر ان نعامل هذا الشخص سواء كانت اسقفاً او شهاساً او عالمانياً مهـاـمـهـ اندرونيكـسـ نفسه فلا يخـافـ معـهـ ولاـنـاـ كلـمـ من اكلـهـ لـانـهـ يـكـونـ قدـ قـضـىـ اندرونيكـسـ وـثـواـسـ الشـرـيرـينـ عـلـيـتـاـ وـلـمـ يـقـبـلـ حـكـمـناـ) لما بلغ اندرونيكـسـ خـبـرـهـاـ الحـكـمـ وـعـرـفـ انهـ عـلـىـ وـشـكـ النـشـرـ بينـ اـسـاقـفـةـ بـنـتـابـولـيسـ جـاءـ اـلـىـ سـيـنـيـثـوـسـ مـقـراـ بـنـدـبـهـ تـائـيـاـ عـاـقـرـفـهـ مـنـ الذـوبـ وـالـآـثـامـ طـالـبـ فـسـخـ هـذـاـ الحـكـمـ وـابـطـالـهـ ، فـلـمـ يـعـتـدـ سـيـنـيـثـوـسـ عـلـىـ قـوـلـ اـنـدـروـنـيـكـسـ وـلـمـ يـشـكـ بـكـلـامـهـ لـمـ اـوـقـفـ نـشـرـ الحـكـمـ اـلـىـ حـيـنـ لـلـاـ اـذـاـ عـرـفـ هـذـاـ الـوـالـيـ اـنـ الحـكـمـ الـذـيـ صـدـرـ خـدـهـ اـصـبـحـ لـغـواـ فـكـ يـعـودـ اـلـىـ اـرـتـكـابـ الشـرـورـ الـتـيـ نـشـأـ عـلـيـهـ)

واذ عرف سينيتوس ان الطبع ثلاج وان هذا الولي الغاشم لا يكتبه التنازع عن علم اتفى عليه حكم المزمان وكتب الى البطريرك ثوفيلس يعاده بذلك ويطلب منه معاملة هذا الرجل بما يستحقه من الاغصاء والاحتقار

ولما ارداه سينيتوس رعيته من ظلم هذا الظالم جال في هذاء الاقليم ينقذ شعبه ويواسيهم ووصل في سياحته الى قربتين واقفتين على حدود صحراء بيبا وكانت هذان القرىتان قد انجذبها اسقفاً شبيطاً عاماً في مدة حكم فالناس يبرد عنهم شيئاً ويدفع عنهم اغواطه وكانتا قد طابتاه من البطريرك اثناسيوس ان يكرسه لها ففعل واختص هذا الاسقف التشيط بابروشية صغيرة تابعة في اعالي ابروشية بنتابوليس وعند زيارته سينيتوس لهاتين القرىتين كان الامير المذكور قد ادخل الى رحمة مولاً فطلب من ثوفيلس ان ينخب خلفاً له . وحدث ان بواس اسقف ابروشية صغيرة اخرى ائمه ارشيون كان عبويماً من الجميع فطلب اهالي القرىتين المذكورتين ان ينفعوا الى ابروشيه دون ان ينخبوا اسقفاً جديداً لهم . وكان لما جدهم سينيتوس وطالعهم اختيار خلف لاسقفهم المنوفي بذلك منهم الامر الثالثة التي نشرحها لك في السطور الآتية :) عندهما تكامل عدد الشعب الذي جمعه سينيتوس وطالب منه انتخاب ياسقف

وقد فرق سينيتوس ثلاث مسوات في وظيفة الاسقفية ذاق فيها كل انواع العذاب والتعب . فانه بعد عودته من الاسكندرية عند اقامته وخدم مقاطعة بطومايس في هياج واخطراب ذلك لان الولي اندرونيكـسـ ارتكـبـ فيها من الفظائع ما لا يحصـرـ القلمـ فـانـهـ اضـطـيـدـ شـعـبـ هـذـاـ المـقـادـعـ الـوـاقـعـ عـلـىـ حدـودـ مـعـدـرـ بـعـيدـ عـنـ سـلـطـةـ الـوـلـاـةـ العـلـامـ دونـ انـ يـقـرـفـ هـذـاـ الشـعـبـ جـرـمـاـ بـوجـبـ اـضـطـهـادـ وـعـذـابـ مـوـىـ اـنـ هـذـاـ الـوـالـيـ الـظـالـمـ كـانـ يـسـعـيـ فـيـ اـلـزـازـ اـوـ الـهـمـ وـاخـذـ مـقـتـلـاـتـهـ اـنـفـهـ وـهـذـاـ هوـ سـبـبـ مـلـاـرـتـكـبـهـ مـنـ القـبـائـعـ وـالـظـالـمـ . وـقـدـ تـفـاقـمـ الـخـطـبـ جـداـ وـدـاقـ النـاسـ مـرـاجـةـ المـزـابـ المـرـبعـ الـذـيـ سـكـبـهـ عـلـيـهـ اـنـدـروـنـيـكـسـ فـهـرـعـواـ اـلـىـ دـارـ الـاسـقـفـيةـ بـطـلـبـوفـ الـلـاقـفـمـ مـلـجاـ وـمـدـافـعاـ يـدـرـأـ عـنـهـ هـذـاـ الشـرـ المـرـبعـ فـقـامـ سـيـنـيـثـوـسـ وـعـنـفـ الـوـالـيـ عـلـىـ عـنـفـوـانـهـ وـشـرـهـ وـسـعـيـ جـهـدـهـ فـيـ حـلـهـ عـلـىـ الـكـفـ عـنـ هـذـهـ الـفـطـائـعـ وـلـكـنـ الشـعـبـ تـدـمـرـ وـنـجـرـ وـظـنـواـ انـ سـيـنـيـثـوـسـ زـعـيمـ وـمـقـدـامـهـ لـمـ يـعـبـاـ بـهـ وـلـمـ يـلـفـتـ لـأـدـرـمـ وـكـارـنـ الـمـهـاـبـ تـوـالـتـ تـبـاعـاـ عـلـىـ رـأـسـ هـذـاـ اـسـقـفـ الـهـامـ فـرـاتـ اـبـنـهـ الـوـحـيدـ وـلـمـ يـسـعـ اللـهـ لـصـوانـهـ الـحـارـةـ الـتـيـ فـدـمـاـ طـالـبـ شـتـاوـهـ فـقـطـ سـيـنـيـثـوـسـ وـاسـتـولـيـ عـلـيـهـ وـلـمـ يـسـعـ اللـهـ لـصـوانـهـ الـحـارـةـ الـتـيـ فـدـمـاـ طـالـبـ شـتـاوـهـ فـقـطـ سـيـنـيـثـوـسـ وـاسـتـولـيـ عـلـيـهـ الـلـأـسـ حـتـىـ اـنـ عـدـدـ الـلـاـخـاـزـ لـيـخـاصـ مـنـ حـيـاةـ مـلـوـحـاـ الـهـمـ وـالـكـدرـ . وـكـانـ قبلـ هـذـاـ الـوقـتـ اـرـسـلـ مـكـتـوبـاـ شـدـيدـ الـلـمـجـةـ اـلـىـ الـقـطـنـطـيـنـ يـجـنـجـ فـيـهـ عـلـىـ سـلـوكـ الـوـالـيـ الـمـذـكـورـ وـلـكـنـ الشـعـبـ لـمـ يـهـلـهـ حـتـىـ يـصـلـ رـدـ مـكـتـوبـهـ فـشـكـلـ سـيـنـيـثـوـسـ حـيـنـ الـذـجـمـهـ حـافـلاـ فـيـ الـكـيـسـةـ الـكـبـرـىـ وـاصـدـرـ فـيـهـ حـكـمـاـ بـحـرـمانـ اـنـدـروـنـيـكـسـ وـالـقـيـ مـوـعـظـةـ مـوـثـقـةـ شـرـحـ فـيـهـ الـقـدـرـ وـالـآـثـامـ الـتـيـ اـرـتـكـبـهـ هـذـاـ الـوـالـيـ حـتـىـ اـغـطـرـ اـنـ يـخـذـ ضـدـهـ مـاـ اـخـذـهـ وـخـتـمـ بـقـوـلـهـ)

(بـنـاءـ عـلـىـ مـاـ اـنـهـ اـنـدـروـنـيـكـوـنـ مـنـ الـفـطـائـعـ اـصـدـرـتـ كـيـسـةـ بـطـلـمـاـيـسـ الـأـقـيـ الـلـيـ جـمـعـ الـكـنـائـسـ فـيـ الـمـسـكـونـهـ وـهـوـ لـاـ يـجـبـ انـ تـفـتـحـ كـيـسـةـ اوـ هـيـكـلـ فـيـ وـجـهـ اـنـدـروـنـيـكـسـ وـعـائـلـهـ وـثـواـسـ وـعـائـلـهـ وـهـوـ الـذـيـ كـانـ آـلـهـ شـرـهـ هـذـاـ الـوـالـيـ الـظـالـمـ وـمـاعـدهـ فـيـ مـقـلـمـهـ وـلـنـقـلـ مـجـيـعـ الـإـنـجـيـلـ الـمـقـدـسـ فـيـ وـجـهـ هـذـيـنـ الشـرـيرـينـ فـلـاـ يـدـخـلـهـاـ وـلـاـ يـقـبـلـهـاـ فـيـ عـضـوـيـهـ اـبـنـ اللـهـ . وـكـانـ الشـيـطـانـ لـاـ نـمـدـلـهـ فـيـ مـكـوـنـ الـسـهـوـاتـ فـمـكـذـاـ هـذـاـ الـظـالـمـ اـنـ لـاـ يـجـانـهـاـ بـالـ يـطـرـدـهـ خـارـجـاـ حـيـثـ يـكـوـنـ الـكـلـاـهـ وـصـرـرـهـ الـاسـنـانـ . وـعـلـيـهـ قـانـيـ اـحـدـ جـمـيعـ النـاسـ مـنـ ايـ طـبـقـةـ كـانـواـ اـنـ لـاـ يـسـمـاـ كـوـنـ هـذـيـنـ هـذـيـنـ)

والا كان جميع القصور التي قام فيها الصلوات والخدمات الدينية في أيام الحروب شبيه
كنائس بناء على هذا الرأي . ثم كتب فقرة في هذا المعنى يقول فيها : -

« اني من الناس الذين يفرقون بين الامور الدينية الصحيحة وبين اخر افاداتي
اعدها نوعاً من الرذيلة لها مسحة الفضيلة ويعبرها العلم شكلاً تالاً من اشكال الزندقة
والكفر كما اني لا اعتقد بقداسة مكان وطهارته الا اذا اجريت فيه اعمال القداسة
والطهارة . فان الاعيان المسيحي المذين لا يقول بحمل الروح القدس في مكان بناء
على تكريسه ، او تعميم بعض كلمات فيه ولكن الروح القدس يحمل في الانفس الطاهرة
والاجسام التي صارت هي وكل الله ولا يسكن المسيح وسطيئاته عملت له هانيك العاقرورس
والرسوم تكريسه ولكنه يسكن بين اثنين او ثلاثة اجتماعاً باسمه . ومن نوم ان الروح
القدس لا يدخل وسط جماعة استولى عليهم الشهان والخافق واستفحلاً بذلك روح النفار
والنقار حتى اذا كان موجوداً في مكان دخلت فيه هذه الرذائل فلما شئت ان روح الله
يهرب منه وبفارقته . اذاً فكريس الابدية لا توجب طهارتها وقداستها بل تشير فقط
على تحصيصها للعبادة »

وعلى هذا المبداء القوي لم يسع الاسقف بولس الا التأييم لحكم سينيتوس وقببه
ملوء من المم والكدر . اما ديسفورس فاظهر كرماً ومرؤة يحيى دان ويدمان في انه قال
باستعداده انهم كما يزيل الخصم ويوجد السلام وعليه اشتري منه بولس الكثيب
والقصرين الذي فوقه وزال الشقاق من بين الجماعات وصاروا جميعهم مسرورين فرحين
ولم يمض وقت طويلاً على هذا الحال حتى استدعت الحكومة القائد الماهر
الذي كانت قبائل المحوشين تخشي باسمه وحل محله قائد ضعيف جبار مهد
الطرق بجماعة الغزاة بالمجووم على مقاطعة بنتا بوليس كما كان الحال سابقاً . وقد كتب
سينيتوس في هذا المعنى يقول : -

« فرأيت في التواريخ ان مدناً وقرى لم يبق فيها سوى النساء والاطفال اسب
النحر والدمار اللذين استولياً عليها وقد شاهدت هذه الحالة في بلادنا بل اكثراً منها
شراً لأن الاعداء لم يتركوا النساء والأولاد بل المخدومين غيبة لهم وكانتا يقتلونهم عذراً
إلى ان يكبروا فيرجعونهم لوطنهم ولكنهم كانوا يأتونه كعاداته بعد ان تشربت قلوبهم
عداوتة وبغضه حتى ان الشاب منهم كان يتأتى الحقل الذي لا يبيه وهو لا يعلم انه له

طرح الشعب كله انفسهم الى الارض واخذوا يتوسلون الى البطريرك ثوفيلس كلامه كان
حافراً وياتـون منه اذـمـوع ان يجـبـ عليهم ويفـيـفهم الى هـذاـ الاسـقـفـ الذي قالـوا
عـنـهـ وـكـانـواـ يـنـهـلـونـ ذـلـكـ بـدـونـ تـرـتـيبـ اوـ نـظـامـ بلـ ماـ كـتـ تـسـمـ الاـ زـفـراتـ تـصـاعـدـ
منـ اـفـواـهـ الرـجـالـ وـشـهـيقـ بـرـدـهـ النـسـاءـ وـبـكـاءـ منـ الـاطـفـالـ يـلـأـ الفـضاءـ حـرـنـاـ وـكـدـاـ
عـنـ كـرـمـيـ اـسـتـهـمـ المـحـبـوبـ الـذـيـ اـصـبـعـ خـالـيـاـ مـنـهـ بـعـدـ موـتـهـ . فـلـمـ يـسـطـعـ سـيـنـيـتوـسـ
تـرـتـيبـ هـذـاـ الجـمـعـ المـخـيـطـ وـحـيـنـذـ صـرـفـ الشـعـبـ إـمـدـ انـ أـخـبـرـهـ بـالـمـوـدـةـ إـلـىـ هـذـاـ المـكـانـ
بعدـ اـرـبعـةـ اـيـامـ . فـلـمـ اـجـتـعـواـ فـيـ الـاجـلـ المـفـرـوبـ حدـثـ مـاـ حدـثـ اـوـلـاـ مـنـ الـاخـيـاطـ
فـاضـطـرـ سـيـنـيـتوـسـ انـ يـكـتـبـ بـالـفـصـيـاءـ إـلـىـ الـبـطـرـيرـكـ ثـوـفـيلـسـ وـيـجـبـهـ عـلـىـ (ـ بـاـ حدـثـ
وـيـطـلـبـ مـنـهـ القـولـ الفـصـلـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ)ـ

ولـهـ فـيـ القـصـةـ التـالـيـةـ اـعـظـمـ دـلـيـلـ عـلـىـ صـفـاتـ الـاسـقـفـ بـوـلـسـ المـنـازـةـ الـتـيـ جـذـبـ
إـلـيـهـ قـلـوبـ الشـعـبـ فـيـ اـهـمـ رـجـالـ فـيـ اـسـتـهـمـ اـسـقـفـ بـقـبـبـ اـسـدـقـاءـ وـيـصـرـ مـبـغـيـهـ
اما هـذـاـ القـصـةـ فـيـ اـنـ كـانـ يـوـجـدـ بـقـرـبـ اـحـدـ الـقـرـيـتـينـ المـذـكـورـتـينـ قـبـلـ اـطـلـالـ
قـصـرـ قـدـبـ قـائـمـ عـلـىـ قـهـ كـثـيـبـ كـثـيـبـ كـثـيـبـ الـحـزـونـ وـلـوـهـادـ . وـكـانـ هـذـاـ التـصـرـ قـدـ اـمـرـتـ بـهـ
اـيـديـ الزـلـازـلـ فـقـوـضـتـ بـعـضـ جـدـرـانـ وـكـانـ بـعـضـهاـ يـصـلـحـ لـانـ يـكـونـ حـصـنـ مـبـعاـ
لـلـقـرـىـ الـجـاـوـرـةـ لـهـ تـدـرـأـ بـهـجـمـاتـ الـاـعـدـاءـ فـيـ هـاتـيـكـ الـاـيـامـ الـتـيـ كـنـزـتـ قـلـاقـلـهـ اوـ عـلـمـتـ
اـضـعـلـاـبـاـنـهاـ حـتـىـ اـنـ الشـعـبـ اـضـطـرـ حـيـنـذـ انـ يـبـحـثـ عـنـ حـصـنـ يـكـمنـ فـيـ عـنـدـ تـعـاقـمـ
الـخـطـوـبـ حـيـثـ يـكـونـ فـيـ مـأـمـنـ عـلـىـ الـمـوـانـيـ وـالـأـرـزـاقـ مـنـ غـارـاتـ الـمـتـوـحـشـينـ الـقـيـنـ
كـانـواـ لـاـ يـفـتـأـونـ يـغـيـرـونـ وـيـخـارـبـونـ . وـكـانـ هـذـاـ الـكـثـيـبـ وـالـصـرـحـ مـلـكاـ لـدـيـسـفـورـسـ
اسـقـفـ قـرـيـةـ اـسـهـمـاـ دـرـدـانـوـسـ بـجـاـوـرـةـ لـاـحـدـ الـقـرـيـتـينـ المـذـكـورـتـينـ وـلـذـاـ عـبـزـ بـوـلـسـ
عـنـ الـمـحـسـولـ عـلـىـ هـذـاـ الحـصـنـ الـمـيـعـ وـعـلـيـهـ سـارـ اـلـيـهـ بـالـقـوـةـ الـجـبـرـيـةـ وـنـصـبـ فـيـ وـسـطـهـ
مـنـضـدـةـ اـخـذـهـاـ كـذـبـ وـشـرـعـ فـيـ تـكـرـيـسـ الـمـكـانـ لـيـكـونـ كـكـنـيـسـ وـحـيـنـذـ صـارـ هـذـاـ
الـحـصـنـ بـقـيـنـيـ تـكـرـيـسـ مـلـكـاـ لـبـوـلـسـ تـاـيـاماـ لـاـبـرـوـشـيـتـهـ وـلـمـ يـمـدـ لـاـحـدـ حـقاـ اـيـتـصـرـفـ
فـيـهـ . وـاـ وـقـعـ الـخـلـافـ بـيـنـ الـفـرـيقـيـنـ بـبـبـ هـذـاـ القـلـعـةـ رـفـعـواـ الـاـسـقـفـ
الـكـيـرـ اـعـنـ بـيـنـيـتوـسـ الـذـيـ لـمـ يـسـتـحـنـ مـاـ عـمـلـ وـلـكـنـهـ لـمـ يـعـلـمـ بـعـلـانـ التـكـرـيـسـ وـمـ
يـقـلـ اـنـ غـيـرـ نـافـذـ الـمـفـهـوـمـ مـعـ اـنـهـ يـشـكـ فـيـ ذـلـكـ لـانـهـ قـالـ اـنـ مـارـسـ الـقـرـائـصـ الـاـمـيـةـ
وـتـكـرـيـسـ اـحـدـ الـاـمـاـكـنـ لـاـ يـؤـخـذـ مـنـهـ اـنـ هـذـاـ الـمـكـانـ الـمـكـرـسـ يـقـالـ مـقـدـساـ اـلـاـبـدـ

فلا غرو اذا جاء الوقت الذي فيه اقدم نفسي قرها على هيكله ولاشك في ان الله يرى
تعبه اذا رأى ان مذبحه تخضب بدماء امنقه الذي يظل امياً له الى النس الاحرار
وبعد ان انتهت هذه المخاوف مات ابن سينيتوس الصغير وكانت امرأته ولدان
آخر قدماها قبله في ظرف سنة واحدة فتراكت الاحزان على هذا الاسقف المفضل
و قضت المصائب ظيرة فكب حواباً لمباش الشهادة يقول فيه . - اما اذا فقد اصبع
برض في الجسم نشاء عنه مرض في العقل والفك لافت موت ايماني وامرائي اختار
واسقئني فاصبحت واضحة اولادي مرسومة امام عيني اللتان ایضاً من الحزن ولست
انسام حتى اسكن التراب نظيرهم اما امراً في الفربة فاني اقول لها :
اللقيك ما بقيت حيادي بعدك حتى اراك ودم عيني احرا

وقد قال بعضهم ان سينيتوس اشتهر بزبالم تعرف عن غيره في انه كان جندياً
شجاعاً وراسياً متضاماً وخطيباً مفوهاً وشاعراً مفتقاً وفي سواماً ومنطقاً يابعاً واسعناً
ورعاً كما انه كان محبوباً مكرماً من الجميع . وفي نحو هذا الوقت تبع البطريركية وهو اول من اطلق
دنه من اقوى وأشهر البطاركة الذين جلسوا على السدة البطارير كة وهو اول من اطلق
على الامة المصرية اسم « الكنيسة القبطية » ثم خلفه بطريرك سارا على ذات الخطبة
التي سار هو عليها حتى اوصلها الى درجة الاستقلال العقلي ولو انها لم تسقط
اميناً وخلت في مصر مدة تحكم نفسها بواطة افتقها وبطاركتها ولم تتدخل الحكومة
الامبراطورية في شؤونها مدة طولها الا عند ظهور تهـة المطرفة التي صرـفـ الامـبرـاطـور
ملطف خوفاً من نتائجها

وقد اضاف توبياس بعض القوالين الى الكنيسة يختوي احدها على ان الاكاروس
يحب ان يختار الاكاروس عند تعينهم ويختارهم الاسقف ويختارهم الشعب بعد تمام
رض الله ورغبتـهـ ومن غريبـ ما يحكى عن البطريرك ثوفيلـسـ انه فضـىـ اقامـهـ الاخـيرةـ فيـ
شـغلـ منهـكـ مـضـعـفـ حتـىـ اـصـبـحـ هـزـيلـاـ خـيلـاـ لـدـرـجـةـ اوـجـبـتـ لهـ الـدـهـولـ وـالـبـاتـ الـىـ
انـ اـنـقـلـ لـرـجـهـ مـوـلـاهـ فيـ ١٥ـ أـكـتوـبـرـ سنـةـ ١٢٤

تمـ المـجلـدـ الـاـولـ وـلـيـهـ المـجلـدـ الثـانـيـ

فـلوـ كـانـ عـنـدـنـاـ فـائـدـ مـاهـ لـامـكـنـاـ انـ نـقـمـ لـاـنـسـنـاـ مـنـ عـدـوـ دـيـ مـهـانـ اـنـتـكـ حـرـمةـ
الـاـشـيـاءـ الـمـقـدـسـةـ عـنـدـنـاـ وـلـمـ يـنـزـكـ مـكـانـاـ مـقـدـسـاـ الاـ وـدـاسـهـ بـرـجـيـهـ الدـنـسـيـنـ وـلـمـ يـدـعـ قـبـرـاـ
اوـ حـدـدـ الاـ وـبـنـشـهـ بـنـشـاـ وـلـمـ يـنـزـكـ كـنـيـةـ الاـ وـاحـرقـهاـ وـدـنـسـ المـذـاجـ المـقـدـسـةـ وـاـسـتـعـلـمـهاـ
لـاعـيـادـهـ وـلـاـنـمـ وـاـحـدـ الاـوـانـيـ الـمـقـدـسـةـ وـوـضـعـهـ فـيـ هـاـكـلـ الـاـصـنـامـ وـالـشـياـطـينـ فـضـلـاـ
عـنـ الـفـلـاعـ الـتـيـ هـدـمـهـاـ وـالـمـوـاثـيـ الـتـيـ اـسـنـافـهـ وـالـعـقـارـاتـ الـتـيـ سـلـبـهـ حـتـىـ اـصـبـحـ مـقـاطـعـةـ
بـنـتـاـوـبـلـسـ خـرـابـاـ لـاـ يـأـوـيـ الـهـاـ اـحـدـ وـلـمـ يـقـلـ لـيـ بـلـدـ اـبـنـ اـهـرـبـ لـيـ الـاـ فـورـيـةـ مـقـطـعـةـ
رـأـيـيـ حـيـثـ اـنـ سـيـيـ بـيـتـ الـتـيـ اـنـتـيـ فـيـ هـنـاـ اـنـتـيـ اـشـعـرـ اـنـ اـمـسـيـةـ فـيـ بـيـةـ مـيـيـ
الـتـيـ اـنـ اـسـقـفـ هـاـ وـلـاـ اـفـرـ مـنـ الـقـبـرـ الـذـيـ اـفـرـ فـيـ هـنـاـ اـنـتـيـ اـشـعـرـ اـنـ اـمـسـيـةـ فـيـ بـيـةـ مـيـيـ
عـنـ اـنـ دـوـعـيـ فـاضـتـ وـخـتـقـتـ الـزـفـرـاتـ فـالـتـحـقـقـ اـنـيـ بـحـكـيـ وـلـمـ اـعـدـ اـسـتـطـعـ النـطقـ
حـبـنـ اـفـتـكـ بـيـاـ حـلـ بـيـتـ اللـهـ وـكـنـيـسـتـهـ وـحـرـتـ فـيـ دـرـجـةـ الـمـدـبـدـةـ حـقـ
اـذـاـ اـرـتـاـيـتـ اـنـ اـتـجـوـ بـنـفـسـيـ اـلـىـ جـزـيـرـةـ فـرـيـةـ مـنـ اـعـودـ فـاـغـيرـ فـكـرـيـ وـاـمـكـتـ هـنـاـ وـلـمـ
يـقـ عـلـيـ الـآنـ الـاـ الـاتـجـاهـ لـيـكـلـ اللـهـ وـالـتـحـكـ بـقـرـيـ مـذـبـحـهـ حـيـثـ اـسـكـبـ دـوـعـيـ
عـلـيـ اـرـضـهـ وـاـخـلـ اـقـبـلـ رـاـبـهـ وـمـحـرـابـهـ وـاـطـلـبـ مـنـ اللـهـ النـجـدـةـ وـالـمـعـونـةـ . اـنـ عـيـنـيـ جـفـاـهـاـ
الـنـوـمـ كـثـرـةـ الـقـلـقـ وـالـاـضـطـرـابـ وـلـمـ تـعـدـ لـيـ فـرـصـةـ لـاـوـسـنـ فـيـهـ اـبـرـيـتـ يـقـ اـجـفـانـيـ اـكـثـرـ
اـهـتـمـيـ بـتـرـنـبـ الـحـرـسـ الـلـنـاوـبـهـ وـبـعـدـ اـنـ كـنـتـ اـصـرـفـ لـيـ فـيـ مـرـاقـبـةـ اـنـجـوـمـ وـالـسـيـارـاتـ
وـعـلـ الـاـرـصـادـ الـجـوـيـ اـصـبـتـ الـآنـ اـفـتـيـ لـوـلـهـ بـعـدـ الـاـخـرـيـ فـيـ مـرـاقـبـةـ الـعـدـوـ حـتـىـ اـذـ
هـبـعـتـ فـيـاـلـاـ اـبـقـظـتـ الـاـحـلـامـ الـمـارـيـعـةـ وـالـمـذـاـفـلـ الـمـحـيـفـةـ وـيـخـالـ لـيـ فـيـ الـشـامـ اـنـيـ هـارـبـ اوـ
مـسـجـونـ اوـ شـرـوحـ اوـ مـكـبـلـ بـالـقـيـودـ وـالـاـصـفـادـ اوـ بـاعـونـيـ عـبـدـ اـرـقـيـةـ اوـ كـثـيرـ مـاـ كـنـتـ
اـقـوـمـ وـنـوـبـيـ مـذـءـورـاـ لـاـنـيـ اـحـلـ بـعـدـ هـذـاـ كـلـهـ اـنـيـ هـرـبـتـ مـنـ عـدـوـيـ الـخـالـمـ بـعـدـ
اـنـ اـسـتـفـلـتـ الـعـكـرـيـ الـذـيـ كـانـ بـتـوـلـ حـرـاصـيـ . فـلـوـ اـبـتـ لـيـ اـنـ اـلـزـرـ الـمـحـاـوـرـةـ لـذـاـ
خـالـيـةـ مـنـ مـثـ هـذـهـ الـمـصـابـ لـكـنـتـ ذـهـبـتـ الـهـاـ وـارـحـتـ نـفـسـيـ قـلـيـلاـ مـنـ هـذـهـ الـمـخـاـوفـ
وـلـكـنـيـ اـخـشـيـ اـنـ يـنـزـلـ بـيـ الـقـدـرـ الـمـحـتـومـ قـبـلـ اـنـ اـسـتـطـعـ اـمـرـوـبـ اـذـ اـنـ يـوـمـ الـهـلـالـ
اـصـبـعـ فـرـيـاـ وـلـمـ يـقـ دـلـيـ مـوـىـ الـذـعـابـ لـيـكـلـ اللـهـ وـالـسـجـودـ لـاـمـمـهـ تـعـالـيـ لـبـرـسـلـ لـذـاـ
الـمـعـونـةـ وـالـتـيـعـاـةـ وـفـرـعـوـنـ عـوـاتـ عـلـيـ الـبـلـادـ فـيـ هـذـهـ الـبـلـادـ وـعـدـمـ تـرـكـ الـكـنـيـسـ وـسـاـضـعـ اـمـامـيـ
الـاـوـانـيـ الـمـقـدـسـةـ وـاـسـلـقـ بـهـاـ عـلـيـ اـعـمـدـةـ الـكـنـيـسـ وـسـاـقـيـ فـيـاـمـاـ يـقـ فـيـ رـمـقـ تـمـ اـمـوـتـ
مـدـافـعـاـ عـنـ بـيـتـ اللـهـ مـتـاـ وـاجـبـاـتـ لـاـنـيـ مـعـيـنـ مـنـ قـبـلـ اللـهـ اـقـدـيمـ الـقـرـآنـ عـلـيـ مـذـبـحـهـ